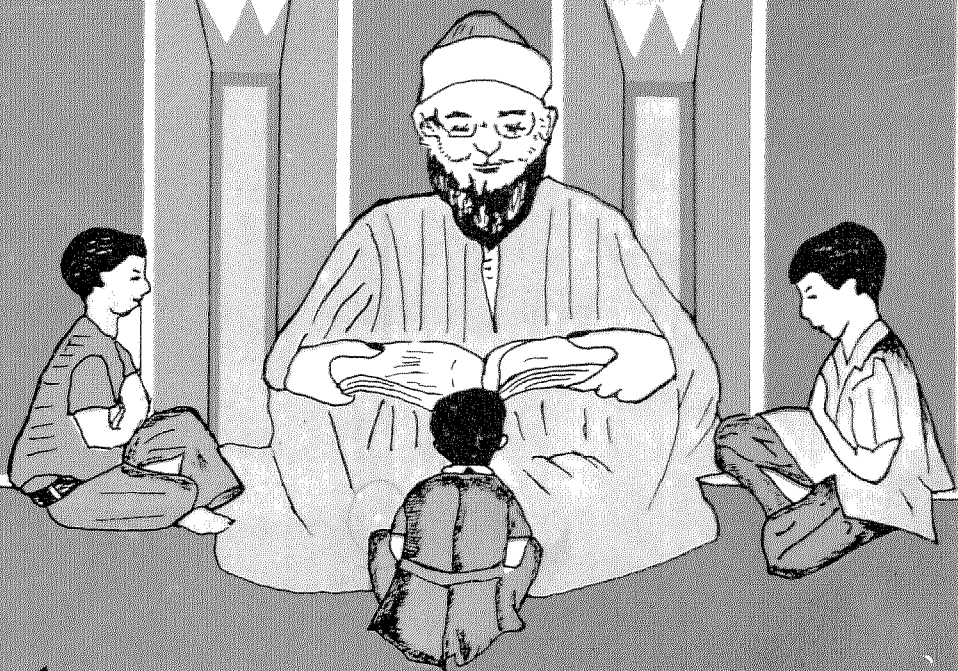


نَحْوُ تَرْبِيَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٢٩٤٧٢:٢٩٤٧٢
ألكندرية

الدكتور
محمد الشراوى

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر / عبد الحليم القبانى

الإسكندرية

تَحْوِيَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ

دكتور
حسن الشقاي

١٩٨٣

الناشر
مؤسسة كليات الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
٣٩٤٧٢٢ بالإسكندرية

”أَدَبِي زَنِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي“
حدیث نبوی شریف

- ٧ -

اهداء :

في خضم هذه التيارات المعادية
للاسلام والمسلمين ...

يركب ثلثه من العلماء المجاهدين البحر
الجسور لنصرة دين الحق والشرعية السمحاء ..

فالي هؤلاء القانتين الواثقين بنصر
الله القريب ..

أهدى هذا الكتاب تأكيدا منهمجهم ، وتأييدا
لهم على طريق الحق الذي اتبعوه ..

المؤلف

مقدمة

من الملاحظ أن من يكتب في الفكر التربوي الاسلامي ، لا يتهم كثيرا بالمصطلحات التي يستخدمها في مناقشاته وآرائه التربوية، على أساس مثل سائد، فحواه أنه لا مشاحة في الاصطلاح، ومعنى ذلك أن أى مصطلح يمكن ان يؤدي المعنى ، يستخدم حتى ولو كان له أبعادا ، أو مضامين ، لا تدخل ضمن الفكر التربوي الاسلامي ، ومثال ذلك مصطلح «الصراع أو الغريزة أو الموضوعية أو العلمانية ، وغير ذلك من المصطلحات التي يمكن ان يقصد بها معانى محددة أو اتجاها فكريا معينا .

ومن ناحية أخرى، هناك اختلاف بين علماء التربية في مفهوم التربية الاسلامية ، فنجد لفيها من العلماء يركز على أن مفهوم التربية ، انما يقتصر على التعليم فحسب ، أو بمعنى أكثر تحديدا على المنهج الدراسي ، بينما ينظر علماء آخرون الى مفهوم التربية الاسلامية على أنه من الموضوعات العامة التي تهتم جموع المسلمين، ومن ثم فهي تعالج موضوع التربية على أساس أنه معالجة للفكر التربوي في الاسلام ، وعلى هذا ، فالتربية الاسلامية تهتم بالكون والانسان والحياة جميعا .

ولاشك أن النظرة الاخيرة تواكب الفطرة السليمة ، وتتمشى مع مفاهيم المسلم وقيمه الدينية ، لان تحديد العملية التربوية في المنهج الدراسي معناه ، أننا نجعل مجال التربية . المواد الدينية من فقه وتفسير وحديث وعقيدة فحسب ، دون اشتراكها مع العلوم الاخرى المكمل لها .

- ١٠ -

ولا ريب فى أن ذلك معناه ان التربية انما هى تخصصــــص ضيق ، مثل أى علم من العلوم ، ونحن نتصور أن العلماء الذين ينحون هذا المنحى ، وقد تأثروا كثيرا بالفكر الغربى الذى يهتم بالتخصصات الضيقة .

واذا كان ذلك مقبولا فى العلوم الطبيعية والتطبيقية والعملية ، فان ذلك يعد مرفوضا من وجهة النظر الاسلامية .

ذلك أن هذه النظرة للتربية الاسلامية بعيدة كل البعد عن الفكر التربوى الاسلامى .

لذلك فاننا نتفق مع آراء علماء التربية الاسلاميين من المحدثين ، والذين يقررون بأن التربية الاسلامية ، انما هى تلك المفاهيم التى يرتبط بعضها ببعض فى اطار فكرى واحد ، مستندا الى المبادئ والقيم التى أتى بها الاسلام ، والتى ترسم عددا من الاجراءات والطرائق العلمية التى يؤدى تنفيذها الى أن يسلك سالكها سلوكا يتفق وعقيدة الاسلام .

ونحن نذهب مع بعض الباحثين فى مجالات التربية الاسلامية، الذين يقررون أن مصطلح التربية يشتمل على مفهومين متداخلين :

الاول : مفهوم عام يتعلق بالتربية .

الثانى : مفهوم خاص يتعلق بالتعليم .

والمفهوم الاول انما يتعلق بالعملية التربوية ككل ، أى انه يغطى المجتمع المسلم باعتباره ظاهرة مرتبطة بالحياة ، لا تتوقف

فى زمن أو مكان معين ، اذ أن العملية التربوية تدخل فى المؤسسة التعليمية ، كما تدخل فى البيت ، كما تدخل أيضا فى المجتمع المسلم على مختلف مستوياته .

أما المفهوم الخاص للعملية التربوية ، وهو الذى يقتصر على عملية التعليم ، أو على التعليم الاسلامى كفرع من فروع الفكر الاسلامى ، الذى على أساسه توضع البرامج التعليمية ، وتختار المواد الدراسية ، وتصاغ الاهداف التربوية فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، وتبحث فى علاقة الادارة المدرسية بالطالب ، والمنهج والبيئة ، وغير ذلك ، ولا شك أن المفهومين يتداخلان بعضهما مع بعض ، ولا يمكن التمييز بينهما بسهولة ، الا أننا نهدف من وراء تضديدهما الى تعريف مصطلحى التربية والتعليم .
تسهيلاً للبحث .

وفى هذا المؤلف نحاول أن نستخدم المفهومين معا ، فنحن من جهة نرسم الاهداف والغايات للتربية الاسلامية ، باعتبارها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، ونبين القواعد الاساسية فى بناء الانسان الصالح فى الاسلام ، ونبين الى أى حد تختلف نظرة الاسلام التربوية عن الفلسفات ونظريات التربية فى الامم المختلفة ، ونصف سلوك هذا الانسان ، وطريقة تفكيره وخصائصه المميزة ، والتى ينفرد بها دون غيره ، باعتبار أن التربية الاسلامية ، لها هدف أساسى وهو ربط الانسان بربه ، فمنهج التربية الاسلامية منهج ربانى وفطرى ومتوازن وشامل وواقعى وايجابى .

ومما لا ريب فيه أن هدف التربية الإسلامية الاساسى هو التربية الخلقية ، التى ينبثق عنها سلوك المؤمن ومنهجه وطريقة تفكيره ، فارتباط المسلم بدينه انما يحدد مساره فى دنياه ، وما دامت تربيته الخلقية على هذا الاساس النقى التقى الورع ، فان ذلك سيكون نبراسا يضىء حياته المستقبلية ، اذا ما عمل فى أى فرع من فروع العلم والمعارف والصناعات .

ولا يمكن ان يقتصر الانسان على تعلم حرفة من الحرف ، دون أن يتعرف على أخلاقيات هذه الحرفة ، ومن ثم يتوجب عليه ان يتربى خلقيا ، مع تعليمه الحرفة التى سيرتزق منها .

واذا ما تأملنا فلسفات التربية الغربية الحديثة والمعاصرة ، لوجدنا أن التربية الإسلامية قد سبقتها بقرون عديدة ، فى المناداة بالاساليب التربوية التى تنادى بها الان .

ان أهم ما تنادى به التربية الإسلامية ، هو اقتران الدين بالدنيا فى الفكر والسلوك والاخلاق ، ذلك لأن اهمال الجانب الدينى فى العملية التربوية ، انما يعكس ظلمة القلب ، ومن ثم اتباع الهوى وغلبة الشهوات والانانية ، وهو الأمر الذى يقود الانسان الى الضلال المبين ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك الا بالفهم الرشيد والاقتناع والايمان ، والبعد عن طرق التلقين المتبعة فى الجامعات والمدارس ، والبعد عن الجوانب التى تشتت تفكير الطالب ، ثم التركيز على الجوانب الايجابية فى العقيدة الإسلامية ، والتى يمكن أن تؤثر فى السلوك ، وكعوامل مساعدة يجب استخدام وسائل اقناعية ليتعرف الطالب على الحقائق اليقينية ،

ليزداد ايماننا و يقيننا بالمنهج الاسلامى ، كما أنه يجب تكوين عاطفة قوية نحو دينه القيم و شريعته السمحاء ، كى تحبب اليه موضوعات التربية الاسلامية .

فالتربية الاسلامية اذن ، هى تلك المفاهيم الاسلامية العظيمة التى تؤدى بالانسان الى عملية التخلية والتحلية ، التخلية من الاوصاف المذمومة ، والتحلية بالاوصاف المحمودة ، فهى تثقيف للمقل ، وتقوية للجسم ، وتركيز للنفس ، وتطهير للقلب ، دون أن يكون ذلك تضحية بأى من القوى على حساب قوى أخرى . فهى عملية توازن وتناسب وتناسق وانسجام بين قوى النفس ، وبين قوى النفس وعلاقاتها بالله والكون والحياة والناس جميعا .

فالتربية بمعناها العام،انما تدعو الانسان الى أن يرتبط بخالقه ، وتسلك سلوكا يتفق مع عقيدة الاسلام ، وهذا معناه اشتمال التربية على العملية التربوية والتعليمية معا ، سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى المجتمع .

وهذا جد مختلف عن نظام التربية مثلا فى المجتمع الشيوعى أو فى المجتمعات الاشتراكية ، اذ توجه وسائل التربية الى فلسفة عن الكون والحياة والانسان ، تجعله يفصل بين العقيدة والتعليم ، وكأن التربية انما تتعلق بالنجاح الدنيوى فحسب ، ولا يختلف كثيرا الفكر الليبرالى عن الفكر الاشتراكى فى العملية التربوية ، فكلاهما ينحى هذا المنحى ، وهو فصل العملية التربوية بمعناها الواسع أو الضيق (التعليم) ، عن الله والدين ، واقتصار نشاطها على وسائل التثقيف الاجتماعى ، وعلى نظم وضعية وفلسفات

مادية ، تبتعد كثيرا عن هدف التربية الاسلامية •

ان هدف التربية الاسلامية اذن ، انما هو جعل الفكر التربوى
فى خدمة الدين ، على أساس تحقيق ذلك على مستوى الفرد
والعائلة والمجتمع والامة جميعا •

لذلك فنحن نطالب باعادة صياغة المناهج التعليمية ، صياغة
اسلامية ، تسمح للطالب أن يطبق مفاهيمه وقيمه وفكره التربوى
فى عمله وحياته ، فيصبح بذلك داعية لله ، غايته أى كان
عمله ، رفع راية الاسلام ، والخوض عن دينه الحنيف ••

ان كل معرفة للطالب فى مدرسته أو فى أى مؤسسة ثقافية
جامعية أو شعبية ، ان كل معرفة له بالانسان والكون والعالم
والله ، واستثمارها لخير الانسان وأمنه ، وسعادته فى الدنيا
والآخرة ، هى أعظم رسالة يمكن أن يؤديها فى حياته الدنيوية •

واذا تعرف الانسان على خالقه وفطره ، وعمل بأوامره
ونهى عما نهى عنه ، فان ذلك الانسان هو الجدير بأن يكون خليفة
الله فى أرضه ، والذي هو أفضل الناس •

- ١٥ -

الباب الاول

(التربية بين منهج الله والمناهج الوضعية)

الفصل الأول :

- ١ - تفاوت العقل فى تحصيل العلوم .
- ٢ - حدود العقل الانسانى .
- ٣ - هادى العقل .
- ٤ - المشيئة والأهواء الانسانية .
- ٥ - العلم والظن .

الفصل الثانى :

- ١ - التأمل والسلوك العملى .
- ٢ - فطرة التربية الاسلامية .
- ٣ - الربوبية والعبودية .

تؤسس نظريات التربية فى المجتمعات الحديثة والمعاصرة ،
على أنظمة وضعية أو مذاهب فلسفية ، أو تجارب اكلينيكية ، أو
تطبيقات عملية ، وتعقد المؤتمرات وتعرض الأبحاث والدراسات
والقواعد التى تحدد النظم التربوية الناجحة ، والتى تكفل فى
تصورهم ، ايجاد المجتمع الافضل أو الاصلح ، والذى يمكن أن
يخدم أغراض الدول ويعمل على انمائها ، ولا تستهدف هذه
السياسات تكوين الانسان الصالح من قريب أو بعيد . .

فالمواطن الصالح فى فلسفة التربية البراجماتسية (١)
(الامريكية) ، هو الشخص الناجح الظافر بكل شيء . . . ولذلك
فاننا نجد المرأة الامريكية تربي ابنها على حب الغلبة ، اذ عليه
أن يسعى جاهدا أن يصرع غيره ، ويتفوق عليه ، فى كل فعل
وأمر ، وهذا الصراع الانانى يفسد علاقات الأخوة والمحبة ،
ويميت فى النفس والايتار والتضحية . . . فتضيع فى فلكه
القيم الكبرى ، مكارم الاخلاق كالاخسان والعدل والمساواة
والإخاء .

فمثلا تقول هذه الأم لابنها : هل أنت الاول !! هل أخذت
الدرجات النهائية !! هل سبقت أقرانك ! هل حققت نصرا حاسما
على الآخرين !! فاذا رد بالإيجاب فرحت به وهللت بشرا . .
وقبلته سعيدة راضية . .

(١) مؤسسها وليم جيمس وهى فلسفة تسود المجتمع الامريكى ، وهى
فلسفة نفعية تستهدف كل شيء مادى ولا تعترف بفكر أو قيم أو اخلاق ، ما لم تكن
تؤدى الى منافع مادية . . .

ومن ثم يربى الطفل فى ذلك المجتمع على أساس أن يظفر
بأكبر فائدة ممكنة فى جميع المجالات ٠٠٠ وعندما يصبح شابا
يكون قد تعود على تلك الافكار المنحرفة، وأصبحت طبعاً ملازماً له،
وأسمى فى مزاجه الطبيعى التغلب على الغير والظفر والنجاح على
الآخرين ، وتطلع الى حب السيطرة والولوع بالعدوان * ومن هذه
التطبعات المكتسبة التى تظهر فى سلوك رجل الشارع الاوروبى
والامريكى ، قوله لزميله عن شخص يمت لهم بصلة معرفة ، كيف
حال مستر باركى !! فيرد الآخر : انه ناجح انه طيب وحسن *
انه يمتلك ٢ مليون دولار ٠٠

ثم يسأله عن شخص آخر : كيف حال زميلنا القديم فى
الدراسة مستر جون ؟ فيرد : انه بائس ٠٠٠ انه فقير ٠٠

ويتضح لنا من هذه المحاوره الصغيره ، ان تقييم الانسان فى
هذا النوع من التربية ، يتم على أساس التفوق المادى ، دون
الاهتمام بأى معايير أخرى ٠٠ فالغنى فى تصورهم هو الطيب
الحسن ٠٠ والفقير هو السيئ البائس ٠٠ وبذلك تكون الاحكام
جد بعيدة عن الحق والصواب ٠٠ اذ ربما يكون الثانى الفقير
أفضل كثيراً من الناحية الاخلاقية والسلوكية من ذلك الغنى الذى
ربما جمع ماله بطرق غير مشروعة ، ويحيا فى رعب دائم خوفاً
على ماله ، وبالرغم من ذلك كله ينظر اليه على أنه فى سعادة وخير
دائم ٠٠

لقد تأثرت التربية فى البلدان الاوروبية بالحضارة المادية ،

وجعلت المادة والنجاح المادى هو الاساس الذى يستهدفه الانسان
فى حياته .

لذلك نجد التكالب على جمع المال والمنافسات غير المشروعة
واستثمار الاموال بطريقة ربوية هو هدف الاقتصاد الليبرالى فى
الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى برغم الاختلاف بين المعسكرين
فى النظرية الاقتصادية .

ان تعاسة الانسان وشقائه انما يكمن فى أن يكون عبدا
للهوى من ناحية ، وللمادة من ناحية أخرى ، فالمال فى النظرة
الاسلامية هو وسيلة وليس غاية ، ومتى أصبح الانسان عبدا
للمال وصبح المال غاية له فى حد ذاته، انقلبت المعايير والمفاهيم
فى عقله ونفسه وقلبه جميعا ، ونسى الانسان روحه وقيمه ودينه
وطفق يسمى وراء سراب لا يمسك به ، ويرفض ان يتركه .

ان ربط الاخلاق بالمعاملات ، وربط المعاملات بالاحكام هو
هدف التربية الاسلامية . . .

فالمعاملات ان لم تقم بطريقة شرعية فهي محرمة ومستكرهة،
فالاساس فى التشريع الاسلامى التركيز على الاخلاق ، ومن
الاخلاق تنبعث كل المعاملات ، فاذا لم يقتدى الانسان بشريعة
الله وسنة رسوله فلا يعول على كلامه أو ماله ، ونجاحه فى الحياة
الدنيا .

اذ العبرة بأن يكون الانسان تقيا نقياً ورعا ، وليست العبرة

بأن يكسب خصمه أو يتفوق على غيره فى أى مجال من مجالات الحياة ...

فالنجاح والفشل انما هو باذن الله وبمشئته تعالى ، وليس يعلم الانسان أو بماله أو نفوذه ، واذا أراد الله بالانسان خيرا بآرك له فى رزقه الحلال .

لذلك فان منهج التربية القرآنية ، يركز على الاهتمام بالايثار والاخوة والمساواة ، دون النظر الى المراكز الاجتماعية ، أو الشراء المالى ، أو السلطان .

فكم من رجل غنى مبغوض من الله والناس ، لشربه وحرصه واستغلاله للناس والعياد ، وكم من فقير فى المال غنى بعفة نفسه وإيمانه العميق بالله ، فالقياس بين منهج التربية الاسلامية ومنهج التربية الغربية جد مختلف ذلك لان تلکم المناهج تفصل بين روح الانسان وبدنه ، وبين دنياه وآخرته فتركز على النجاحات المؤقتة فى الحياة الدنيا دون الاهتمام بربط ذلك النجاح بالاخلاق .

ولذلك نجد الحضارة الغربية متقدمة تماما فى النواحي المادية بعامة والتكنولوجية بخاصة ، الا انها من ناحية أخرى متأخرة تماما فيما يتعلق بتربية النفس والاخلاق .

فالمثلية الجنسية منتشرة فى أوروبا فى الربع الاخير من هذا القرن ، وكذلك السفور والتعري والشذوذ فى السلوك والتصرفات هى سمات هذا العصر .

- ٢١ -

لذلك أنه يتوجب على المسلمين فى هذا العصر أن يتمسكوا
بأخلاقياتهم ودينهم ، وأن يرفضوا محاكاة الغرب وتقليده فى
النعرات الزائفة والدعاوى الكاذبة والمزاعم المستكرهه .

على المسلمين أن يرجعوا الى الكتاب الكريم والسنة المحمدية
ليتزودوا بهما فى رحلة الحياة ، حتى يأمنوا موافقة الاهواء
وغواية الشيطان .

تفاوت العقل فى تحصيل العلوم

ان هناك اختلافا فى تفاوت الناس فى العقل ، ولا معنى للاشتغال بنقل الكلام لمن لا يستطيع تحصيله ، وهذا التفاوت فى العلم ممكن أن ينصرف الى عدة أقسام ، الا أن هذا التفاوت لا يتطرق بالنسبة للراشد الى العلم الضرورى ، مثل أن يعرف ان الاثنين أكثر من الواحد ، وبذلك يعرف استحالة وجود جسم فى مكانين ، كما يعرف استحالة كون الشئ قديما وحادثا ، فى آن واحد . وهذا معناه أن هناك مسلمات يدركها الانسان ادراكا محققا من غير شك فيها .

أما الاقسام الاخرى التى يمكن أن يتفاوت فيها الناس مثل :

١ - القدرة على قمع الشهوات ومخالفة الاهواء ، وذلك مثل قدرة العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ، فالشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، فاذا كبر وتم عقله قدر عليه ، كذلك الامر بالنسبة لشهوة حب الرياسة أو الجاه أو شهوة الرياء ، وربما يكون السبب فى ذلك قلة العلم بهذه الشهوة ، مثل الطبيب الذى يمنع نفسه عن بعض الاطعمة المضرة ، ولا يقدر على ذلك من يساويه فى العقل ، ان لم يكن طبيا، وان كان يعتقد انها مضرة فعلا ، لان الطبيب ما دام علمه اتم ، فان خوفه أشد ، فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات ، وبالمثل فان العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل ، لقوة علمه بضرر المعاصى ، ونقصه بذلك العالم الحق وليس مدعى العلم . .

٢ - وهناك قسم آخر يتفاوت فيه عقل الانسان ، وهو ما يتعلق بالعلوم العملية والتجريبية ففيه يتفاوت الناس ، فمنهم من هو سريع الادراك ، يصيب في تجاربه نجاحا ، وربما يكون ذلك راجعا الى تفاوت في الجبلة واما تفاوتها في الممارسة .

والتفاوت في الجبلة لاسبيل الى انكاره ، اذ انه مثل نور الشمس يشرق على النفس ، وما يزال الانسان يافعا ، ثم لا يزال ينمو ويزدهر على مر الايام الى أن يتكامل في الاربعين سنة ، وهذا التفاوت يظهر مثل ظهور الشمس درجة درجة ، وليس طفرة انما بالتدريج ، ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ، ولا انقسموا شيئا وأحزابا ، وتباينوا من بليد لا يفهم الا بعد تعب طويل ، والى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة ، والى كامل تشرق في نفسه حقائق الامور بدون تعليم وحاجة الى معلم (١) .

فالناس تنقسم الى من يتنبه بنفسه من نفسه فيفهم ، ومن يفهم الا بتنبيه وتعليم ، ثم صنف ثالث من لا يمنعه التعليم ولا التنبيه ، وذلك لاختلاف النفوس في التعقل .

حدود العقل الانساني :

العقل الانساني عاجز في البداية والنهاية ، عن التعرف على حكم الله البالغة وحججه الدامغة ، ومهما عمل الانسان عقله لادراك كنه الاشياء ، ومعرفة ماهية الافعال وأسباب الابتلاءات

(١) الامام الغزالي - أحياء علوم الدين - الجزء الأول ص ١٤٩ : ١٥٢
طبعة الشعب .

والمحن والشدائد ، التى يمر بها كغير من الخلق ، فانه فى كل الاحوال يفشل فشلا ذريعا ، ويسقط أحيانا فى اليأس والقنوط ، ولا يجد طوق النجاة ليصل الى شاطئ الحقيقة بسلام * *

ومن المفكرين والفلاسفة من أجهدوا عقولهم ، وعاشوا جل حياتهم يبحثون ويتألمون ، ليتعرفوا على حقائق الوقائع أو أصول الأشياء ، أو كنه الموضوعات أو العلل والاسباب ، لما حدث ويحدث من أفعال وأعمال ، ولكنهم يعجزون عن ادراك ذلك بالكلية ، وتقف عقولهم صاغرة أمام حكم الله البالغة وحججه الدامغة فى الكون والوجود والحياة ، وكثير من هؤلاء المفكرين والفلاسفة يسلمون يعجزهم ، ويعلنون عن قصور عقولهم ، ثم أنهم يلجأون الى الله يسلمون له الامر ، ويستسلمون لارادته ، ويخشعون لقدرته ويفوضون له الامر والنهى ، فتصبح قلوبهم وعقولهم ونفوسهم جميعا فى قبضة الحق تعالى * * وهؤلاء هم الذين سلموا وغنموا *

أما المفكرون والفلاسفة الذين لما انتهوا الى عجز عقولهم عن تفهم الحقائق الكبرى ، ركبهم الشطط ووافقوا أهواء النفس وغواية الشيطان ، وزعموا ظلما وجهلا أن عقولهم هى امامهم ، وأن منطقهم العقلانى هو المعبر عن كل حقيقة ، وأنه هو الهادى الى سواء السبيل ، ولقد قادتهم عقولهم الجانحة وقلوبهم المظلمة ونفوسهم الظالمة ، الى التحدى للقدرة الالهية والاعتراض على

(١) المزيد من الاطلاع - كتاب قوت القلوب * أبو طالب المكي - الجزء الاول

الحكمة الربانية ، والى بث الشك والارتباك فى قلوب الخلق والعباد .

وهؤلاء النفر قادوا راية الكفر والالحاد ، وصموا أذانهم عن سماع كلمة الحق والرشاد ، وعمت قلوبهم عن ادراك طريق الاستقامة والايمان ، فعاثوا فى الأرض فسادا وفسادا ، وظلموا أنفسهم ، فانتهوا الى الفجور والضلال .

والتاريخ الانسانى يسطر لنا تلكم المواقف ، ويظهر لنا بوضوح عجز العقل الانسانى عن تفهم الحقائق الكونية المجردة ، وقصوره عن ادراك العلل والاسباب للافعال والاعمال .

كما يبين لنا تاريخ الفكر الانسانى ، الذين آمنوا من المفكرين والذين أضلّتهم أنفسهم عن توخى سبيل الهداية والرشاد

ولقد نسى الضالون والمضلّلون ، أن العقل الانسانى موهبة أودعها الله فى الانسان ، لا ليتجبر بها أو ليفتر بقدراتها ، وانما أودع الله فى الانسان موهبة العقل ، وهى جوهرة فريدة ودرة ثمينة ليحسن استعمالها ، فيتأمل بالعقل بديع خلق الله ، ويحكم به على فاسد الامور من صالحها بامر الله ، ويتبع به طريق الهداية ويتجنب به طريق الضلالة والغواية ، فيثبت على الحق قولاً وفعلًا وسلوكًا .

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »
« ابراهيم : ٢٧ » .

أما اذا استعمل العقل فى غير ما يسره الله له ، واعترض على المشيئة الالهية ، وطفق يرفع سيف التحدى والعصيان ، فان ذلك معناه أن هذا العقل يحمل فوق أم رأسه ما لا طاقة له به ، وكأنه ينطح برأسه حائطا صلدا صلبا ، فيسقط حينذاك مغرقا فى دماؤه صريعا فاقد الوعي . . . قد خلع زينة الله التى زينه بها .

هكذا الامر بالنسبة للعقل الجـانـح ، فلقد تمدى حدوده وجاوز صلاحياته ، ونسى أمر الله وغفل وتغافل عن حكمته تعالى، فاستحق الانتكاس والنكوص، وانتهى به الامر الى الحسرة والضلال المبين . . .

ولكى يأمن العقل طريقة ويسترشد بخالقه ، ويهذى الى فاطره ويتعرف على موجهه ، فان عليه ان يخلص العلم لله جميعا، وأن يتجه بكليته اليه تعالى ، وأن يبتعد عن الرياء والنفاق والتكبر والتجبر والاغترار ، فيسلم من موافقة الهوى ، ويتجنب غواية الشيطان ، وبذلك يقرن العلم بالايمان ، والتفكر بالتحيد ، والعلم بالعمل والظاهر بالباطن فلا يضل أبدا . .

المؤمن اذن يعرف حدوده فلا يتعدها ، يعرف أنه عبد وأن الله تعالى هو الرب ، يعرف أنه عاجز فى البداية والنهاية عن ادراك الاسباب ، لانه تعالى خالقها وفاطرها وموجدها . . يعرف أنه ضعيف وأن الله هو القوى على الحقيقة ، يعرف أنه محتاج ون الله تعالى الغنى عن العالمين .

فهناك بون شاسع بين حياة المؤمن وحياة الشاك المرتاب ،

— ٢٧ —

فالمؤمن يحيا حياة آمنة مطمئنة ، والشاك يحيا حياة الخوف والقلق
والغم والهم ، وذلك جزاء الجاهلين •
على العقل الانسانى ان أراد النجاة ، أن يفوض الامر لله
فيما يتجاوز حدوده وقدراته ، والا انزلق وسقط فى بئر سحيق
وبعدها لا تقوم له قائمة أبدا •

هادى العقل

انها تلك القصة التى تكرر عبر الزمان والمكان ، ورغم أن نهايتها مفاجئة أبدا ، والعظة فيها عظيمة وكأنها تخاطب الناس كل الناس الا أن الانسان ينسى ويتناسى غالبا ويغفل ويتغافل كثيرا ، وكأنه لم يسمع، ولم ير، ولم يفقه، ولم يعقل * - هذه القصة المتكررة *

عجيب أمر ذلك الانسان فقد وهبه الله العقل تلك الجوهرة الثمينة والدرة الفريدة ومع ذلك لا يستخدمه الا نادرا ، وان استخدمه فمن أجل التظاهر بحب الحق، فاذا كان هو موضوع الحكم ألغى معيار العقل واتبع الهوى * - فما اكثر ما يجادل الانسان ويشبث أشياء وينفى أشياء، ويدافع عن الحق والصدق والعدل ، حتى اذا ما أمتحن فيما يقول وطولب أن يطبق ذلك على نفسه انسحب من الجولة الاولى ، وهرب كما تهرب الجرذان من مصيدة الفئران ، وغير جلده ، وتلون كما تتلون الحرباء بلون الرمال، وتظاهر بالعلل والاسباب الواهية، وأمضى حياته بين القيل والقال والتزلف والتذلل والرياء * - وقد ظن انه نجح فى تحقيق أغراضه، وتوهم أنه كسب دنياه ونسى أنه خسر آخرته ، وغفل عن ضياع نفسه دنيا وآخره *

وهكذا ترى الانسان فى ظاهرة عاقلا حكيما ، ينطق بالعدل ويحرص على اظهار الصدق ، وينصح القريب والبعيد باستخدام طريق الحق ، ثم انه اذا ما مرت به محنة تقوقع حتى تحسبه يائسا واذا ما أبطل بمصيبة انتهى وكأنه لم يكن حيا *

والعقل لم يهبه الله للانسان ليستخدمه فى موافقة هواه ،
ولا لظلم نفسه والدفاع عن رغباته وملذاته ومبتغاه ، ان العقل
ميزان للتفريق بين الحق والهوى وبين النور والظلمة وبين الهدى
والضلال *

فاذا استخدمه الانسان فى غير ما يسره له تعالى ، وطفق يلعب
به ويلهو ، فانه يصبح نقمة على صاحبه لانه رمى بالجوهرة
الفريدة فى مستنقع الاحوال **

ولان العقل يمكن ان يخطئ ويصيب ، فيكون صاحبه أحمقا
حينما وحكما حينما ، فان الله تعالى وهو العالم بخلقـه اذ هو
فاطرهم وخالقهم وموجدهم ** قد وهب الانسان لطيفة أخرى ،
بالاضافة الى العقل تستشار فى الملمات ويرجع اليها فى الامور
المغيبة ، وتفتى فيما لا يستطيع العقل ادراكه أو تصوره أو حتى
تخيله ** وتلك اللطيفة هى القلب ، ومتى كان القلب سليما فهو
لا يكذب ولا يظلم ولا يضر بالآخرين ** وانما تكون أحكامـه
تشملها الرحمة وتغدو مشاعر صاحبه يملؤها التسامح والتلطف
والصفح الجميل **

واذا ما توازن العقل مع القلب ، وتصادقا فى تناسق وتناسب
وانسجام ، اعتدل أمر النفس وسلكت طريق الاستقامة ، وابتعدت
عن الكذب والرياء والغواية ، وبدى الانسان حكيما والحكمة هى
أكمل الخيرات فى الانسان *

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا
كثيرا » (البقرة : ٢٩) *

والحكمة. هنا توازن بين العلم والعمل ، بين العقل والقلب ، بين الاحساس والسلوك بين الفهم الرشيد والعمل الصالح ، ولا يمكن القول أن قوة العقل فى الانسان كافية لسلوك الطريق المستقيم ، فلو كان الامر كذلك ، ما كان هناك من داع أن يرسل الله الرسل الى الناس مبشرين ومنذرين ولكان العقل الانسانى كافيا بنفسه لاقامة الدين واتباع الفطرة السليمة والوصول الى التقرب من الله .

لكن العقل وان أدرك أن هناك الها واحدا كاملا عالما قادرا لا شريك له ، الا أن ذلك ليس بكاف للدخول فى حظيرة الايمان ، فهذا هو « برتراندراسل » الذى يزعم الغربيون أنه أكبر عقل مفكر فى القرن العشرين ، عاش ومات ملحدا ، فقد ضحك منه شيطانه ، وسلب عنه جوهرته الفريدة ، عندما أغواه بالاعتراض ثم الشك ، وانتهى به الى التحدى والشرك العظيم ، لقد وصل راسل عن طريق التفكير والنظر الى قصور العقل البشرى عن فهم المغيبات ، وادراك ماهيات الاشياء وكنه الوقائع . وبالجملة وصل الى أن العقل البشرى وان كان يعرف وقائع الاشياء ، الا انه عاجز فى البداية والنهاية عن التعرف على حقيقة الدين بطريق العقل ، أو بمعنى أكثر دقة ، معرفة حقيقة الألوهية .

وكان الاجدر براسل أن يسلم قياد نفسه الى الله ليهديه ، وأن يستسلم بعجز عقله عن التعرف على كنه الله ، وبعجزه عن ادراكه فىأخذه تعالى بيده، وينير له الطريق، الا انه قد ركبه الغرور، وقاده الاعتراض الى التحدى فحجب عن الحق ، وأظلمت نفسه عن ادراك

نور الله ، فوق فريسة للشيطان الرجيم وانتهى به الى الضلال
المبين ..

العقل اذن ليس بكاف لمعرفة الله ، اذ انه يصعد ويصعد
ويرتفع الى أعنان السماء ، ثم اذا به فى لحظة ينزل فيسقط فى
المتشابهات ويختلط عليه الامر فيقع فى براثن الخطايا والضلال ..

فاذا لم يدخل الايمان الى القلب ، خرج الحق من العقل ،
ولا يزال الامر كذلك حتى يعود الايمان الى القلب ليقود مسيرة
الانسان الى طريق الرشد المبين ..

واذا لم يكن الايمان بالله هاديا ومرشدا للعقل ، جنح العقل
الى الاسراف والغلو، والتقتير والتقصير، أو الى الافراط والتفريط،
اما ركب عجلة الغرور ، واما امتطى دابة العجب ، واما حمل
وتبطل وشح وبخل وجبن عن الجهاد والاجتهاد وضل فى نهاية
الامر سواء السبيل ..

فالدين فى حقيقة الامر هاد للعقل ، واذا رفض العقل هداية
الدين فسيظل ابدا حبيسا لخيالاته وارهاساته الفارغة ، وسيمضى
دوما فى حلقة مفرغة يجتر نفسه اجترارا ، ثم يسقط وقد فقد
كل شيء ، فقد نفسه وعقله وقلبه جميعا ..

ان القلب السليم هو قلب المؤمن الصادق الذى يعرف حدوده،
فلا يجعل عقله يتعدى حدوده ، ولا يظلم نفسه فيتجبر بعقله أو
يفتر بجوهرته الفريدة ، أو يعجب بدرته الثمينة، ولا يزال يلهو
بها ويعبث حتى تضيع منه بين حباب الرمال فى صحراء الحياة ،

المظلمة ، فيضل طريقه فى الدنيا والآخرة . .

وهذه القصة مع نهايتها المفجعة والتي تقترن فيها النصيحة بالموعة ، تتكرر كل يوم وكأن الناس لا يفقهون حديثا ، وكأن قلوبهم ابواب مغلقة على افعالها ، تسألهم فلا يجيبون، وتعظمهم فلا يتفكرون ، وكأن انسان القرن العشرين عقل كل شىء ، فلا يريد من الحق مزيدا وبستكون نهاية الكافرين أليمة وستعاد قصة عاد وشمود وآل لوط ويدمروا تدميرا . . وهكذا تنتهى كل حضارة باغية اغترت بعقلها وكذبت أمر الله الى هذه النهاية الأليمة فدمرها ربك تدميرا . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المشيئة الالهية والاهواء الانسانية

يبدو لغير المؤمن بالله تعالى ، ان أمور هذا الكون يمكنه أن تسير وفق هواه ، مادام حاصلا على العلل والمعلولات ، ممسكا بالاسباب والمسببات ، ويعلم بعض الملحدين والذيث في قلوبهم مرض في تبجح وقحة ، انهم يستطيعون علميا وعمليا احداث ظاهرة معينة ، كان يقال عنها فيما مضى انها من بديع خلق الله . .

ويتطاول هؤلاء المفرضون على قدرة الله، ويؤكدون أن بإمكانهم الوصول الى نتائج محددة ، اذ اجتمعت لديهم الادوات اللازمة ، والشروط الضرورية التي تحقق ما يستهدفونه من ابحاث ودراسات في الكون والطبيعة . .

لقد غلا هؤلاء في ظنونهم ، واغترون بزيف منطقهم ، وجنحوا عن الحق بطيش عقولهم ، وملكهم العجب بنفوسهم الامارة، فتباهوا بخبراتهم المادية ، وعلومهم الطبيعية ودراساتهم العملية ، فزعموا أنهم يعملون لكل شيء حسابه ، وأنهم قادرون على الدنيا وما فيها ، حتى زعموا آخر الامر أن بمقدورهم أن يخلقوا من العدم حياة وأن يبعثوا الى الحياة جديدا . .

لقد صادف هؤلاء بعض النجاحات فيما يتعلق بالمادة ومستحدثاتها، اذ أن المادة من المسخرات للانسان وقد تساوى المؤمن والكافر في الوصول الى نتائج محددة عند البحث فيها ، ويؤكد ما نقول ماورد عن الله تعالى :

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض » •
 (لقمان : ٢٠) •

إلا أن هؤلاء لم يقتصروا على هداية الله لهم المسخرات ، بل طمعوها فيما هو من اختصاص الخالق تعالى وحده ، فطفقوا يطبقون مناهجهم المادية ، وتطبيقاتهم العملية فى مجالات العلوم التجريبية ، يطبقونها فى مجالات العلوم الحياتية كالاخلاق وعلم النفس والتربية ، ويشرعون من عند انفسهم قوانين ونظما وقواعد ليست من الحق فى شىء •

ورغم أنهم فشلوا فشلا ذريعا فى الوصول الى ما يستهدفونه من غايات ، ولم تحقق أى من النتائج التى أكدوا تحققها ، ولم يصادفوا نجاحا فى وضع تشريعات أو نظم حياتية تحقق للانسان أمنه وسعادته •• رغم ذلك كله فانهم ما يزالون فى غيهم يعمهون ، وفى ضلالهم يتخبطون مازالوا يفترون على الحقيقة ويدعون أن سبب عدم تحقق نظرياتهم يرجع الى ظروف مادية بحته ، ويختلقون المعاذير الواهية ، والاسانيد الملفقة •• فيزعمون مثلا أن هناك خطأ قد حدث فى تطبيق النظرية التى ألفوها ، أو أن هناك تقصيرا فى فهم الناس لها ، أو أن اهمالا قد اكتشف من قبل المجموعة المشرفة على العمل أو البحث ، وبالجمله يخترعون أسبابا ومسببات ، يعتبرونها العوامل الرئيسية فى فشل تجاربهم ودراساتهم التى أكدوا على حدوثها وتنبأوا بتحققها فى المستقبل القريب •

وخير مثال لتلك التنبؤات الفاشلة ، ما يخطط له الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى من مخططات فى المجالات الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية، ويضع البرامج ويحدد الزمى التى تتحقق فيه ، كما حدث لروسيا فى الخطة الزراعية فى الخمسينات ، (١) فبالرغم من الخطط العلمانية ، والبرمجة ، والتنبؤ بالوصول الى انتاج معين فى خلال مدة محددة ، فقد اتضح مع الاحصائيات أن غلة ٩٤ ٪ كانت ٥٥ ٪ من اجمالى المحصول ، أما غلة ٦ ٪ فكانت ٤٥ ٪ من اجمالى المحصول ، ومعنى ذلك أن ٦ ٪ ينتجون نصف المحصول وهم يمثلون القطاع الخاص الذى لا يستخدم التخطيط العلمى ولا البرمجة العلمية . .

ورغم هذا الفشل الذريع فما زال الروس متمسكين بشعارهم الماركسى المزيف ، (٢) وبتصلبهم العقائدى بالنظرية المادية الجدلية . . حتى يمكن القول أنهم لا ينظرون لابعد من أنوفهم ، وانهم لو فعلوا لرأوا الحقيقة ناصعة كالشمس المضيئة . .

ان هناك عللا بعيدة لا يمكنهم رؤيتها بعين واحدة، وهى العين المادية العوراء وان هناك أسبابا خفية على عقولهم القاصرة لا يتوصلون عليها الا بالايمان بالله تعالى ، (٣) وانهم مهما فعلوا واعملوا فكروهم ، واجهدوا انفسهم، واستعانوا بالاجهزة المستحدثه والميكنة والبرمجة والخبرات العملية والعملية . . . فانهم مع ذلك لن يصلوا الى تلك الاسباب البعيدة ، ولن يجدوا لما يحدث امام اعينهم من احداث غير متوقعة تبريرا أو تفسيراً أو تأويلاً . .

(١) المزيد من الاطلاع كتاب المسلم فى عالم الاقتصاد - مالك بن نبي
 (٢) المزيد من الاحصائيات ، يرجى الرجوع الى كتاب « السوق الأوروبية المشتركة » للأستاذ محمد الجبالى
 (٣) راجع للمزيد « الحكومة الباطنية » للمؤلف .

لا يؤمن اذن ذلك الانسان الذى ركب جنوح عقله ، وغلبته نفسه الامارة ، ان هذه الافعال التى رتب لحدوثها ولم تحدث ، وجزم بوقوعها ولم تقع . . مرتبط تحقيقها بالمشيئة الالهية . . وأنه مهما خطط وفكر ودبر وتنبا فلن يتحقق شيء الا اذا شاء الله تعالى أن يتحقق . . .

ان هؤلاء الماديين يستبعدون فى ابحاثهم ودراساتهم وتجاربهم مشيئة الله ، وينسبون كل نجاح الى أنفسهم ، ويعلمون كل فشل بعلم واهية يخترعونها من عند أنفسهم ، وذلك لتبرير فشلهم ولتكبرهم وتجبرهم فى الارض ، ويففلون ويتغافلون عن وجود خالق مدبر لهذا الكون ، بيده مفاتيح الغيب وبأمره تعالى يتحقق النجاح والفشل جميعا . .

ان الله تعالى عليم بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء فى الارض أو فى السماء وأنه تعالى لا يغل أبدا ، ولا ينسى ، يمنح لمن يشاء ، ويمنع ممن يشاء ، ولا معقب لأمره ، ومهما رتب الانسان وخطط ونظم ، وزعم أنه قادر على اكتشاف العلل والحقائق الاولى ، ومهما تمخض بحثه وسعيه عن استكشاف بعض السنن الكونية ، فان ذلك رهن بالمشيئة الالهية ، فسبحانه وتعالى هو خالق العلل والاسباب والمعلومات والمسببات ، يخفى عن الانسان ما يشاء ويظهر له ما يشاء ، سواء أراد الانسان أو لم يرد . .

ان المشيئة الالهية هى التى تدبر شئون الكون على الحقيقة ، وتدبر نظامه وانسجامة على أكمل وجه وأقوم حال ، وما الانسان الا مخلوق ضعيف لا يقدر على شيء الا اذا أراد تعالى .

فاذا وضع فاطر السموات والأرض سننا يسير عليها الناس
والمخلوقات ، فليس معنى التعرف عليها من قبل الإنسان ، أن يزعم
أنه خلقها أو اكتشفها من العدم ، وانما الحق أن الله تعالى يسر
لبعض بنى الانسان استجلاء غوامضها ، وفض أستارها ، وسخر لهم
السموات والأرض وما بينهما ، لينتفعوا بما فيها وما عليها
وليدكروه ذكرا كثيرا * * * ويشكروه على ما يسر لهم من النعم *

لقد وضع تعالى نظاما لهذا الكون يسير وفقه ، وحض الانسان
على البحث والتأمل فيه ، وحفزه تعالى على السعى والعمل ، واعتبر
ذلك عبادة له ، لانه تعمير للأرض ، وجد واجتهاد من أجل العلم
والرزق * * * وبين له تعالى أن ذلك طريق سعادة الدنيا وثواب
الآخرة * *

ولو ترك الله تعالى هذا الكون غامضا للإنسان ، لسدت أمامه
السبل ، ولتملكه اليأس والقنوط ، وتعطلت مواهبه التي أودعها

له فيه ، وأصبح كالانعام أو أقل *
لو ترك الله تعالى هذا الكون بلا سنن ، لظن بالله الظنون وما
عبده من أحد ، ونزع الناس الى الفساد والافساد ، ولصدق الناس
أصحاب الدعاوى الفاسدة ، والمذاهب الضالة ، الذين يزعمون أن
الانسان مسلوب الإرادة ، وأن السعى فى الدنيا خطيئة ، وأن الدنيا
سراب يحسبه الظمآن ماء ، لذلك يدعو أصحاب تلك الفرق الضالة
الناس الى الترهين وحياة التأمل ، ومحاولة التخلص من الكثافة
الجسيمة حتى تخلص لهم الروح ، وتنطلق من سجنها البدنى ،
وتميش حياة السعادة الحقة * *

وهؤلاء أيضا قد خرجوا عن أمر الله ، وحالوا أن يضعوا
للإنسان تشريعا جديدا ، ففرقوا في لجى من الخيالات والالوهام ،
وعاشوا حياة التبطل والسلبية والاستكانة ، ونسى هؤلاء أن الله
تعالى خلق الجسم ليؤدى وظيفة ، كما خلق الروح لتؤدى وظيفة ،
وما النفس الانسانية الا جماع الروح والجسم ، ولا تصلح
بدونهما ، ولا يستقيم حالها الا بهما .

ليست النفس الانسانية روحا خالصة فحسب ، كما أنها ليست
جسما ماديا فحسب ، وانما هى جماع روحى وجسمى بهما تعذب
وبهما تثاب (١) .

لقد خلق تعالى الإنسان من طبيعة صلصالية ، ثم نفخ فيه من
روحه ، فيكف يعارض هؤلاء وهؤلاء خلق الله وأمر الله ،
ويفرضون على أنفسهم وعلى غيرهم نظاما لم يأت به الله ، يستهدفون
منه تعطيل عمل البدن ، والغاء حقوق الجسم ، وبذلك يحاولون
تخريب التركيب الانسانى . . ويضعون ارادتهم بدلا من ارادة الله
ويقدمون مشيئتهم على مشيئة الله .

ومن ناحية أخرى يغلو أصحاب المادية فى ماديتهم ، ويجعلون
الجسم هو كل شيء وينكرون الروح ويعتبرونها كالنغم الذى تؤديه
الآلة الموسيقية ويقصدون بها الجسم ، وبذلك يسلمون قيادهم
للالهواء الشخصية ، والمنافع الذاتية ، وينسون ويتناسون خالقهم
وفاطرهم وموجدهم تعالى ، ويتحررون من كل قيد ، وينسلخون

(١) «الروح» لا بن القيم الجوزية

من كل شريعة مساوية ، ويهدمون كل فكر ايماني ، ويتركون لعقولهم الفارغة التحكم في أمر الانسان ، واغترار بقدرتهم في حل طلاسم الوجود ، والادعاء بالباطل أنهم بسبيل الوصول الى الحقائق النهائية في تفسير سر الوجود ، دون حاجة الى خالق أو مدبر لهذا الكون . . ثم يعلنون في تبجح وقحة أنهم قد توصلوا الى حقائق نهائية ونتائج يقينية ، سيعلمونها قريباً تفسر كل شيء .

ان هذا افتراء على العلم والحقيقة ، فالعلم الحديث لم يستطع أن يكتشف في الحقيقة . من السنن الكونية الا نسبة ضئيلة جداً لا تتعدى ٣٪ . فيكف يزعم هؤلاء أنه بمقدورهم أن يتعرفوا على الحقائق ، ويجزموا بمقدرتهم على كشف حقائق الوقائع ، وينتهى هؤلاء الى الاغترار والتطاول على الله تعالى فيدعون أنه الا الله والكون مادة .

واذا كان تعالى قد خص الانسان على البحث والتأمل والنظر - فلم يحثه تعالى على الطغيان في الارض والتكبر والتجبر والشرك به تعالى .

واذا كانت حكم الله ومشيتته أن تكون الارض مكاناً صالحاً لسكن الانسان واقامته ، لذلك سن بعدله سننا ونواميس ، ونظاماً كونياً يتوافق مع طبيعة ذلك المخلوق الذي استخلفه في الارض . . الا أن هذا النظام وتلك السنن خاضعة لامره تعالى ، مرتبطة بمشيئته ، مسبحة له على الدوام مطيعة له على الاستمرار . .

فالمشيئة ، الالهية مهيمنة على تلك السنن التي يسعى الانسان

لاستكشافها ، واذا ما توصل الانسان الى التعرف على بعض حججه البالغه ، وسننه المعجزة ، فانه لم يتم له ذلك الا بالمشيئة الالهية ، التى سخرت له الاسباب ويسرت له الادوات .. فاذا ادعى بعد تحقق بعض النجاحات فى مجال المسخرات ، أنه قادر وحده دون معونة الله ، وظلم نفسه بمزاعم فاسدة وأقوال جاهلة .. كان ذلك بداية النهاية لهذا الانسان وتلك الحضارة ..

واذا ترك تعالى هذا المدعى يعمسه فى ضلالتيه الى حين ، فانه تعالى له يتركه فى كل حين ، .. واذا أعجبتة نفسه الامارة ، وسجد لعقله القاصر من دون الله .. أتى لاريب أمر الله على حين غرة ، فأطاح به ، وسد المنافذ فى وجهه ، وغير تعالى ما اراده هذا المغتر ، ودمرت الاجهزة والادوات من حيث لا يدري ولا يحتسب ، وهذه هى الحرب العالمية الثانية شاهدة على ما نقول .

ان المشيئة الالهية هى النافذة فى الاولى والآخره ، ولو علم الانسان ذلك ووعاه وطبقه على نفسه وعلى غيره ، لراح واستراح ، وما عاش ضائعا تائها عاجزا لا نصير له ولا معين ، وقد أظلمت الحياة فى وجهه ، ووقع فى الشك والحيرة وأخذ يتساءل الى أين المفر ..

والمشيئة الالهية مع ذلك مناصرة للعمل الصالح ، مقرونة بالخير ، موافقة للصالح والاصلاح ، وأن بدت للكافر بالله أنها تعين الظالم ، فذلك افتراء وجهل وعصيان ، لان الله يمتحن العباد والناس بالابتلاءات ، حتى يتمحص قلوبهم وأعمالهم ، فيهدى من

— ٤١ —

يشاء ويمهل من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويثيب من يشاء ،
ولا معقب لحكمه تعالى ..

ان تقديم المشيئة هى النعمة بعينها التى أنعم الله بها على
الناس ، فيها يبلغ العبد الصالح مراده ، وبها يوفق فى علمه
وعمله ، وبها يبارك له الله فى ماله وولده وعافيته ..

«ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا .. الا ان يشاء الله»
(الكهف : ٢٣)

العلم والظن

للنفس أحاديث لا تنتهى ، وأمانى لا تشبع، وهواجس لا تهدأ،
وخواطر لا تفتقر ، وأضغاث أحلام لا تسكن ، تصاحبها مصاحبة
الظل ، وتجالسها مجالسة الضيف الثقيل ، وتبت فى روعها
ما يخيف وما يحزن ، وتثير فيها شجوناً، وتهول لها الامور ، وتحسن
لها قبيح الاعمال، وتحضها على اقتراف الرذائل واتيان الفواحش .

وإذا تمسكت النفس بالحق وتقوت بالله ، وسارت فى طريق
الاستقامة وقامت الخواطر الشيطانية والأمانى الشهوية ..
ورفضت الاستسلام لاحاديث النفس ونزعاتها الباطلة ..
وجاهدت واجتهدت وتزهدت فى مطالب الدنيا ، وتقشفت فى
متعها الزائلة وتزهدت فى اشباعات البطن والفرج .. وإذا
تمسكت النفس بالله ساعدها تعالى فى التخلص من ذلك
الاضطربوط ، الذى ينشر سمومه فى النفس ويحيط بمخالبه فى
الجسم ويقضى على كل أمل للخلاص منه .

أما اذا استكانت النفس للخواطر المدمومة والامانى الكاذبة ،
وقعدت عن الجهاد وتباطأت فى المجاهدة ، ورضيت بالخنوع
والاستسلام لتلك الهواجس ، عاشت حياة هامشية لا معنى لها ،
قوامها الظن وأهدافها لذات زائلة وأمانى زائفة واحلام لاحقيقة
لها ولا وجود .

ان حياة الظن هى موافقة لغواية الشيطان ، ومساييرة
لاحاديث النفس . وبذلك تحيا النفس فى عالم خيالى وتحلم بصور

لا صدق فيها ، تعشش في قلبها هو اجس باطلة تـُورق نومها
وتكدر صفوها وتجعل ليلها غما ونهارها هما .. وهكذا تنتهي
بها حياة الظن الى المرض العضال ، فيعترىها القنوط ويلقى بها
الى غياهب اليأس والضياع .

ان مقاومة ظنون النفس وأضعافها جهاد وسلوك ايجابي
كبير ، وهو دليل صحة الايمان وعلامة الصدق في العقيدة ،
والاخلاص في العمل والعبادة لله .

ان هناك بون شاسع بين الظن واليقين ، فالنفس اذا تابعت
أهواءها وانقادت لأحلامها ، ظنت اغترارا وكبرا وظلما وعلوا في
الارض ان ما تراه هو الحق ، وان ما تستشعره هو الصدق ، وان
ان ما تريده يحقق لها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة . وحتى
ان خابت ظنونها وظهر فساد مزاعمها وتهافت دعاويها، وتمخضت
مفترياتها عن نتائج فاسدة وسعادة متوهمة كاذبة .. رفضت
الرضوخ للحق وتمسكت بعنادها وتلونت كالحرباء بلون
الرمال .. وعلمت الفشل بأسباب واهية وعلل زائفة وتمخضت
ظنونها عن آراء جانحة ، واستنتاجات غير متحققة وتنبؤات غير
متوقعة :

« وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا »
« الفتح : ١٢ » .

وظنون النفس المنحرفة توردها موارد التهلكة ، فتحيا في
ظلام دامس ، وتتخبط في نار الاوهام ، وتفشل في اتخاذ القرار
السليم ، واصدار الحكم السديد، واتباع هدى العقل الرشيد ..

تنتابها أبداً تخيلات ، وتعايشها الهواجس ، وتثقل كاهلها الاهواء
الباطلة فتبتعد عن الفطرة السليمة والدين القيم :

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس »

• « النجم : ٢٣ » •

لو استقامت النفس وآمنت بهدى الله ، ماظنت ظن السوء
وما أضاعت دنياها وآخرتها ، ولعلمت أن الرجوع الى الله هو
الملجأ الوحيد لها من كل هم وغم ، وهو المعين الأمين من كل خوف
ورعب وفزع ، وأن ظنونها وأوهامها لا يعتد بها ، ولا تؤثر على
مجريات الامور ولا تغير من الحق شيئاً :

« ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

• « النجم : ٢٨ » •

واذا صادفت بعض ظنون النفس تحققاً ، فان حدوثها انما هو
فى واقع الامر موافقة لأمر الله ، وربما كان فتنة لضعاف الايمان
يمتحن به قلوبهم ليكشف عن معادتهم ، ويختبر اخلاصهم فى
ايمانهم به تعالى •

لقد أبتلى المسلمون يوم الخندق ، فقد جاء الأحزاب من
الاعداء من أعلى الوادى ومن أسفل ، وملك النفوس الفزع
والاضطراب ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ،
لقد كان ذلك اليوم اختباراً عظيماً للمؤمنين امتحن الله به قلوبهم
فى الصبر والايمان • وكشف عن قلوب المنافقين والذين فى
قلوبهم مرض ، فقد زعموا أن الله لم يعدهم الا غروراً :

« واذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله
الظنونا »
« الاحزاب : ١٠ »

ثم نصر الله فى هذا اليوم العصيب عباده من المؤمنين ،
وأرسل على اعدائهم ريحا عاصفة باردة ، وملائكة من لدنه تعالى
لم يروها نشرت الرعب فى قلوب الكافرين ، وهزمتهم شر هزيمة .

ان الظن وهم لاسند له ولا دليل من الحقيقة ، وهو علم
لا ينفع ورأى لا يخدم صاحبه ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم
فى دعائه :

« اللهم أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن
نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع » . « السيوطى »

ان العالم فى الاسلام من لا يتبع الظن (١) ، اذ هو صاحب
الفطرة المستقيمة والعقل الرشيد والقلب السليم ، لا يعتمد على
الهواجس والخيالات والالهام والاحلام ، ولا يغير بعقله فيتوهم
أمورا ظنية يجزم بوقوعها وهى غير مؤكدة ، ولا ينسب لنفسه
مفاخر ومآثر كاذبة ، وليس العالم بالذى يظلم نفسه ويتبع هواه
ويحقد على غيره ويحسده ويتمنى زوال النعمة عنه . . انما العالم
على الحقيقة التقى النقى الورع . . فما يعلمه من علم ينسبه
الى عون الله . وما يجهله يطلب من الله أن يهديه الى معرفته
ويساعده فى تحصيله ، ولا يجتهد برأى مفيد حتى يلهمه الله

(١) لمزيد من الاطلاع فى هذه النقطة الرجوع الى كتابنا « نحو منهج على
اسلامى » من ١٩ ، ٣٢

بالحق خوفاً من الوقوع فى الغفلة الضلال ، وحتى لا ينقاد الى
الظن والوهم والريبة والشك فى نفسه وعلمه جميعاً •

أما الجاهل فهو المتبع للهوى ، ، الظالم لنفسه المنقاد الى طيش
عقله الخاضع لشهواته المغتر بعلمه الموافق لغواية شيطانه •
يظن الجاهل دوماً افتراءً وكذباً أن قوله حق ، وعلمه حق ،
وعلمه مجزوم بصحته ، وفكره صائب ، ويعلم الله أنه أبعد ما يكون
عن انحق ذالصدق والرشد •

ان الجاهل عندما يأول شيئاً ، يضع نسبا خاطئة ويظنها
صحيحة ، ويزعم أنه عالم بخفايا الامور ، ويتوهم أنه يستطيع أن
يأتى بما لم تأت به الاوائل فيزعم مثلاً :

ان اللذة هى غاية الحياة • •

ويدعى :

« أن الطبيعة قد خلقت نفسها بنفسها ، ولا أثر لوجود خالق
مدبر عالم قادر » • •

ويجهز الجاهل نفسه بأسلحة واهية ، ومزاعم كاذبة وأباطيل
متخيلة ، وآراء فجّة ودعاوى ظنية لا يؤكدها علم صحيح ، ولا
يقبلها منطق سديد • • ذلك لأن نفسه متحرفة ، وقلبه مريض
بعيد عن طريق الاستقامة ، سائر فى طريق الضلالة • •
والجاهلون نوعان :

١ - مجاهر بغير علم •

٢ — مجاهر بغير علم ولا هدى •

والصنفان غافلان تأييدا لقول عز من قائل :
« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره
فرطا » « الكهف : ٢٥ »

أما العالم التقى النقى الصالح ، فان نظرتـه الى الأمور
صحيحة ، اذ يأخذ علمه من الله • فيلهم بالحقائق • ويصدق في
علمه وعمله وسلوكه جميعا • • ويشهد دوما أن ما يأتيه من علم
انما هو تفضل الهى ، ومنة رحمانية :

« ومن اصدق من الله حديثا »
« النساء : ٨٧ »

فاذا قال العالم صدق ، واذا اجتهد أخلص ، واذا عرف
ازدادت طاعته ، فيخرج ثمار علمه بسند محقق ، ونسبة صحيحة
ونتائج مقبولة عقلا وواقعا •

والعالم الموقن الصالح • • لا يزعم لنفسه شيئا وانما يرجع
فلاحه وتوفيقه الى الله • • وبذلك لا تشغله نفسه عن ربه ،
ولا تجتذبه زخارف الدنيا فيفتتر بها وينسى خالقه • • انما هو
دوما يحاسب نفسه حتى يسير فى طريق الاستقامة ، ولهذا يشهد
الله على نفسه بأنه لا اله الا هو كما يشهد الملائكة وأولى العلم
من الراسخين والأتقياء الصالحين فيقول تعالى :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما
بالقسط » « آل عمران : ١٨ » •

وهذه شهادة من الله للعلماء المخلصين الأتقياء .. تضعهم
 فى مقام عال فى الدنيا والآخرة . أما العلميون الذين قست
 قلوبهم عن ذكر الله ، وظلمت نفوسهم فأظلمت .. وذهبت منهم
 رائحة التقوى .. فان الله يتوعدهم فى الدنيا والآخرة ويصفهم
 بالجاهلين ، لأن بصائرهم عميت عن رؤية الحق، وحجب عنها اليقين
 فضاعوا ضياعا رخيصا .

التأمل والسلوك العملى

ارتفع أفلاطون بالفيلسوف التأمل عاليا ، وجعله الحكيم الذى يستطيع عن طريق العقل ان يسوس نفسه والمجتمع جميعا فهو الانموذج الذى يجب أن يقتدى به فى الفكر والاخلاق والسلوك العملى ...

فالفيلسوف هو وحده - فى رأيه - الذى يجعل العقل أساسا للحكم على صالح الأمور من فاسدها ، لانه يستطيع بحكمة العقل أن يقود زمام نفسه، ويسيرها فى الطريق الصحيح ويضبط شهواته وغضبه بما يملئ عليه عقله من الحكمة .

جعل أفلاطون فى النفس - قوى ثلاثة أو نفوسا ثلاثة (١) أرفعها شأننا العقل ثم القوة الغضبية ، ثم القوة الشهوية، وعبر عن النفس بعربة يجرها جوادين احدهما ابيض والآخر أسود ، ويمثل احدهما القوة الغضبية ويمثل الآخر القوة الشهوية فى النفس البشرية ، اما القوة العاقلة فهى بمثابة السائق أو الحوذى الذى يقود عربة النفس ، ويمسك بلجامها ، كى يوجهها الى الطريق الصحيح .

لقد توسع أفلاطون فى تطبيق هذا المثلث الأفلاطونى أو بتعبير آخر هذه الثلاثية النفسية ، توسع أفلاطون فى تطبيقها فى علم السياسة والمجتمع والاخلاق ، فاذا كانت النفس البشرية الجزئية يجب أن يحكمها العقل ، فكذلك المجتمع يجب أيضا ان

(١) راجع تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم .

يحكمه الفيلسوف المتأمل المتعقل ، فالنفس البشرية انما هى جزء لا يتجزأ من المجتمع ، ومن ثم فان ما ينطبق عليها انما ينطبق أيضا على المجتمع ، اذ المجتمع عبارة عن الكل الذى يحوى النفوس الجزئية .

لذلك فقد قسم أفلاطون أفراد المجتمع بحسب تقسيمه للنفس الجزئية ، فاذا كان بعض الافراد يميلون الى الشهوة والهوى فأنهم يمثلون القوى الشهوانية فى النفس واذا كان بعض أفراد المجتمع يميلون الى العدوان والقوة البدنية ، فانهم يمثلون القوى المفضبة فى النفس البشرية ، وهناك قلة قليلة تمثل انحرمة والتعقل والتأمل فى المجتمع ، وهؤلاء يمثلون عقل المجتمع كما تمثل القوة العاقلة النفس العاقلة .

ولقد دأب أفلاطون على استخدام . هذا المثلث - كما سبق القول - فى جميع تصانيفه فى السياسة والمجتمع والأخلاق بالاضافة الى النفس ، وتصور أفلاطون ان القوة العاقلة فى النفس عندما تحكم وحدها نيا النفس والمجتمع فانها الجديرة فحسب بالوصول بالنفس والمدينة الى الخير بالذات والسعادة المثلث .

ويلعل أفلاطون سبب اختياره للفيلسوف المتعقل المتأمل حاكما للنفس والمجتمع جميعا ، يعلل ذلك بأن القوة الشهوية انما تستهدف اشباع الحس ، وتبغى تحقيق اللذات وموافقة الشهوات ، وبذلك تجعل اللذة هى الخير الأسمى، ولما كانت اللذات لا تشبع أبدا ولا تقف الشهوات النفسية عند حد معين ، ولما كانت القوة الشهوية تجد موقوفات تقف دائما حائلا دون تحقيق مطالبها،

لذلك فان النفس الشهوية تحاول أن تحقق بجميع الطرق الممكنة وبالتحايل للوصول الى اشباعاتها ، الأمر الذى يعرضها دائماً للوقوع فى الرذائل والآثام ، يوقعها فى شرك الشر فتصبح النفس الشهوية كالحیوان سواء بسواء .

ولا يختلف الامر كثيرا عن ذلك بالنسبة للقوة الغضبية ، فهى عبارة عن سعي لا ينطفئ أبدا وعدوان لا يتوقف عند حد ، فالقوة الغضبية تستهدف الظفر والانتصار والنجاح فى كل موقف . وضد أى خصم أو معارض فتتسبف كل من يحول دون تحقق ذاتها ، وتدمر كل من يعارض مطالبها ، فهى قوة بهيمية تهدف الى تحقيق مطالب الحس ، دون النظر الى العواقب التى يجرها استخدام القوى من آلام ورذائل وشرور .

ويرى أفلاطون ان الأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة للمجتمع فاذا تسلطت القوى الشهوية فى المجتمع التى يمثلها العامة والذين يسمهم بالرعاع أو الغوغاء ، فان الحكم يكون للفضويين الذين يفسدون فى الأرض وينشرون الفساد والانحلال ، فيفسد المجتمع ويضيع الامن والنظام .

ولا يختلف الامر كثيرا عندما تسيطر القوى الغضبية على المجتمع والتى يمثلها الاقوياء والمتكبرون والجبابرة والطفة ، فيستعبدون الضعفاء ويقتلون الأبرياء وينفذون خططهم للظفر والانتصار ، دون وازع من ضمير ، أو زاجر من اخلاق، فينشرون الرعب فى الافئدة ويذلون الناس والعباد .

واما اذا حكم العقل المجتمع وترأست القوى العاقلة على

المدينة وامسكت بزمام الأمور ، فانها وحدها التى تستطيع ان تنشر العدل بين الناس ، وتحقق الصلاح والاصلاح للمجتمع .

والفلاسفة هم وحدهم الذين ارتقوا وتساموا عن الشهوات وتجنبوا الاعتداء والعدوان ، وتوسطوا فى الأمور كلها ، فان حاكمهم هو العقل ، ورأئدهم هو العقل وغايتهم الوحيدة هى خير النفس والمجتمع .

وهذا المثلث الافلاطونى الذى وضع افلاطون على قمته الفلاسفة ، حاول افلاطون تطبيقه فى مجال الساسية كما حاول تطبيقه كمذهب ونظرية فى النفس والأخلاق ، لكن ذلك العقل الخالص الذى يريده افلاطون أن يدبر شئون النفس والمجتمع ، انما هو عقل تأملى لا يمت الى الواقع بصلة من قريب أو بعيد ، وكأنه عقل مفارق للبدن ، لا يرتبط به سواء فى الفكر أو الاخلاق أو السلوك العملى .

ان العقل الخالص فى مثلث افلاطون يستهدف الوصول الى الخير الاسمى (١) ، تاركاً وراءه البدن دون ان يسمو معه فى عالم المعقول ، فلكى يكون الفيلسوف متأملاً لا بد ان يصعد بعقله الى المثل وهى صور ونماذج مجردة عن الحس ، والشهوة والغضب ، اذن لا بد فى نظرية افلاطون ان يتخلص الانسان من القوى الشهوية والقوى الغضبية لكى يسمو ويرتفع عن الأدراَن وشوائب المادة الصماء .

(١) راجع تاريخ الفكر الفلسفى — د محمد على أبو ريان (افلاطون) .

فأفلاطون بذلك يريد نفسا ليست كالنفوس ، ومجتمعاً ليس كأي من المجتمعات القديمة أو الحديثة ، انما نفسا الهية ومجتمعاً مثالياً أشبه بالجنة في أرض الدنيا التي يختلط فيها الشر بالخير ، والباطل بالحق ، وتتأجج فيها العواطف المحمومة والانفعالات الطاغية . .

لذلك فان مطلب افلاطون وغايته لا يمكن تحقيقها في الواقع الحى الذى يحمل الخير والشر ، والباطل والحق ، وتسيره العواطف والوجدانيات حيناً ، والتأمل العقلى حيناً آخر ، فمثلث أفلاطون غير صالح كامنودج فى عالم متناقض .

وربما يرجع فشل أفلاطون فى تحقيق نظريته هذه الى انه اعتبر العقل الانسانى هو وحده الذى يستطيع ان يشرع القوانين ، وان يتعرف على حقائق الوجود ، وأن يصل وحده الى الخير الاسمى بدون وسائل أو واسطات ، لذلك فقد سقط مثلث أفلاطون على أم رأسه ولم ينجح فى تطبيقه فى عصره أو فى العصور اللاحقة التى حاول بعض مقلديه أن يخضعوا مثلثه هذا للتطبيق .

واذا عقدنا مقارنة بين أفلاطون والامام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ نجد ان الامام الغزالي أكثر فهماً للنفس وأكثر واقعية فى الفكر والسلوك والتطبيق ، اذ أنه قد انتقد بشكل مباشر أو غير مباشر نظرية أفلاطون ، وبين أن العقل وحده ليس بكاف للوصول الى الحقائق الكبرى ، وانه قاصر عن تحقيق الخير الاسمى للنفس والمجتمع جميعاً ، فالعقل الانسانى قاصر فى البداية والنهاية عن معرفة المبادئ الاولى معرفة يقينية ، ومن ثم فهو

لا يستطيع ان يصل الى كنه الأشياء بدون الاستعانة بقوة أخرى ، رآها الامام الغزالي فى القوى الربانية التى يستعين بها العقل الانسانى لترشده الى طريق الصلاح والاصلاح .

لذلك فقد اضاف الامام الغزالي القوة الربانية كقوة رابعة فوق القوى الثلاثة الافلاطونية ، وجعل لها الامر والنهى والحكم على صحيح الأمور من فاسدها ، وعلى العقل ان يسترشد بها فينتهى عما نهى الله عنه ويأتمربما أمر الله به ، وبذلك تحل الصعوبات الافلاطونية فيما يتعلق بالمفارقة والمشاركة والمثل .

فالله جل وعلا هو المحيط بكل شئ ، العليم الخبير ، وهو الخالق المدير العالم بالنفس الانسانية وبنفوس الناس جميعا وهو الهادى الى سبل الرشاد .

لذلك فقد ارسل الانبياء منذرين ومبشرين ليهدوا الناس الى طريق الحق ، ويتجنبوا طريق الباطل ويعلموا ان عقولهم وحدها عاجزة عن معرفة الحقائق الكبرى بدون الاستعانة بكلام الله وعلم الله وشريعته السمحاء .

فمربع الامام الغزالي يرفع العلم ويجعله فوق العقل والقوتين الغضبية والشهوية جميعا (١) وما دام العقل يستنير بالعلم الالهى فانه يستطيع ان يسكن الشهوة بالغضب ، ويرتفع بالانسان عن الشرور والردائل . ويجعل القوتين الشهوية والغضبية فى خدمة خير النفس والمجتمع جميعا .

(١) اشار الغزالي الى هذه القوى النفسية فى كتابه الاحياء ، الجزء الثامن ، كتاب العلم « كتاب الشعب » .

ومن ناحية التطبيق العملى نجد ان مربع الغزالى اشمل وأفضل من مثلث افلاطون ، ذلك لأن افلاطون عندما جعل العقل على رأس القوى النفسية فى الانسان قد ظلم الانسان وظلم المجتمع جميعا ، فعلاوة على انه قسم النفس الى اقسام برغم ان النفس واحدة فانه قسم المجتمع الى طبقات أيضا ، وحدد لكل طبقة اختصاصات ووظائف واوصاف، وعن طريق حكم العقل جعل هناك شيوعية بين الرجال والنساء، بهدف ان يصل الى المدينة المثالية ، برغم ان ذلك يعد شيئا فظيحا لا يقبله انسان أوتى ذرة من الايمان، ثم انه عن طريق حكم العقل ، يصل الى أنه لابد للوصول الى الكمال من قتل الاطفال الابرياء ، اصحاب العاهات ، وتعقيم الضعفاء من النساء والرجال ، حتى تتحقق فى مدينته الخالية القوة والمنعة والكمال ويدل ذلك على عقم التفكير العقلى الافلاطونى وبعده عن الرحمة والفضيلة واليسر ، كما انه جعل عن طريق حكم العقل ، الأموال شيوعية بين الناس ، فأضاف شرا الى شر ، ومنع الأمل فى الحياة والجهاد والاجتهاد والتميز بين القاعدين والساعين للرزق ، ثم الى شيوعية النساء التى يحو فيها العلاقة الاسرية ويمزق اواصر المحبة بين الآباء والابناء والأزواج، وقد نسى أن الاسرة هى الخلية الاولى للمجتمع وانه بدونها فلا مدينة ولا قرية ولا جماعة من الناس يمكن أن تتعاون من أجل الخير .

فالعقل وصل افلاطون الى مجتمع انانى نفعى لا يمثل الخير من قريب أو من بعيد ، ولا يدعو للتعارف والمودة والرحمة ، وانما يدعو الى الرذيلة والشر والفساد جميعا .

واذا لم يخلق الامام الغزالي مدينة مثالية جديدة كما اختلق افلاطون ، الا ان قواعده التي رسمها لنا بالنسبة للقوى النفسية فى الانسان يمكن ان تطبق فى واقعية ومرونة ، وبشكل ميسور على أى جماعة من الناس ، ودون ان نجد فيها ظلما لأحد أو ضرار لأحد ، لان مصادر الغزالي ليست من عقله القاصر ، أو نفسه العاجزة ، وانما مصادره هى القرآن الكريم والسنة المحمدية ، والتي بها يستقيم كل اعوجاج ، ويتحقق كل صلاح واصلاح ، فتهدى النفس الى الحق ويهدى المجتمع الى السعادة فى الدنيا والآخرة .

فطرة التريية الاسلامية

لم يتنزل دين من الأديان •• ولم تنص شريعة من الشرائع على أنها دين الفطرة الا دين الاسلام وشريعته •••

ومن الحق القول أن الأديان السماوية كلها — مع اختلاف أزمانها وتعدد أنبياءها ورسالتها ، دعت الى الاسلام وتوحيد الله وعبادته ، والايمان بأنه الخالق على الحقيقة المعبود على الدوام ، المستغن عن الكل ، والكل مفتقر اليه ••

الا أن الاسلام قد انفرد دون الاديان جميعها — كما سبق الإشارة — بوصف أجمع عليه العلماء والفقهاء على أنه دين يواكب الفطرة السليمة ، والعقل الرشيد والخلق القويم ، والنفس المطمئنة (١) ••••

«فاقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها»
(الروم : ٣٠)

فالفطرة هي الاصل الجامع ، وذروة التشريع الشامل ، ومقتضى العمل الصالح ، والأساس الذى يرجع اليه فى المسائل كلها ، والمعنى الذى يوزن به صلاح الامور من فسادها ، وبالفطرة تتفهم مناحى الدين • وما يقصد اليه من حكمة الله البالغة • وبالفطرة أيضا يهدى الناس الى استنباط الأحكام ، ومعرفة القوانين الكلية التى تستخرج منها المسائل الجزئية • والتفريعات التى تندرج تحت الموضوعات العامة •••

(١) الاسلام دين الفطرة — الشيخ عبد العزيز جاويش •

« الا الذى فطرنى فانه سيهدين » (الزخرف : ٢٧)

الفطرة السليمة حال وفعل وعمل للنفوس المسترشدة بالحق ، لا تقبل الفساد فى الارض ، وتشجب الفوضى فى الكون ، وتؤمن بالوسط العدل ، فلا تغلو أى نفس فى ابتذال واسراف ، فتظن لمرضها وجبها للتجبر والسيطرة والأنانية ، أن المنفعة الذاتية غاية ، وأن تحقيق اللذة هى السعادة المنشودة ، ولا تقتتر فى بخل أو شح فتتوهم ان المذلة والجبن والسلبية هى الطريق الموصلة للأمن من الخوف ، كما قال الكافرون :

« فاذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون »

(المائدة : ٢٤)

ان الذى يمشى على يديه أو يأكل برجليه ، أو يسلك سلوك الحيوان • مستهدفا كل شهوة ، ظالما نفسه ، مرتكبا الفحش لغرور عقله وفساد نفسه ، انما يعاند الفطرة التى فطر الله الناس عليها • •

واذا تأملت أصحاب الوهم من المتفلسفين الذين يدعون أن الحق متكرر ، وأن الفضائل نسبية ، وأن الانسان عليه أن يجرب كل شىء ، فيأخذ ما يصلح له ، ويرفض ما لا يصلح له ، هؤلاء نجدهم يعيشون فى وهم باطل ، وزعم كاذب وقد ابتلوا باليأس والقنوط ، وهذا بطبيعة الحال يتنافى مع الفطرة السليمة التى فطر الانسان عليها • •

ان فى اتباع أمر الله تحقيق للفطرة السليمة ، وهجر أمره

تعالى ، بعد عن هذه الفطرة التى هى الاصل ، والتوبة اليه بعد
اقتراف الاثم والذنب ، انما هو الندم على الغفلة ونسيان الفطرة
الانسانية ، ورجوع عن الغواية والضلال :

« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون
من قريب » . (النساء : ١٧)

الدين اذن فطرة فى الانسان ، والفطرة موافقة العقل
للشرع . فالدين هاد للعقل من الجنوح والجمود والتهور والجبن
والسلبية فى الأخلاق والعلم والسلوك . .

والفطرة لا يختص بها نفر من الناس (١) ، أو شعب دون
آخر أو زمان دون زمان أو حضارة دون حضارة ، انما الفطرة
التى قرن بها الدين الاسلامى مشتركة بين البشر جميعا ، مفطور
عليها الناس فقيرهم وغنيهم . مسلمهم وكافرهم عربيهم وعجميهم .
أسودهم وأبيضهم . .

« فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »
(الروم : ٣٠)

واذا لم يكن هناك بين الخلق جميعا شيئا مشتركا مفطورين
عليه ، فلن تجمعهم أخلاق ، ولن يصلح معهم عقيدة ، ولن يقنعهم
مذهب أو رأى ، ولن يفيد معهم وعظ أو ارشاد ، ولن يتفقوا على
أمر يجعلهم متوحيدين فكريا ، ولن ترضى نفوسهم بقانون أو

(١) أصول النظام الاجتماعى فى الاسلام - الشيخ محمد الطاهر عاشور .

تشريع ، فالانسان اذا لم يوجه الى ما فطر عليه ، فانه ينزع الى لذاته ، ويتغافل ويظلم ويتعدى حق الله . .

لقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل متباينة العادات، ومختلفة الطبائع متعددة التقاليد ، متفرقة الأخلاق ، الا أنه جعل فيهم فى الوقت نفسه ، فطرة جامعة هى التى تعين العاقل على اتباع ما استهدف الله من الدين ، فالفطرة حقيقة بديهية للمتأمل ، واضحة كل الوضوح لصاحب القلب السليم والنفس المستقيمة . .

ولحكمة الله البالغة لدفع الناس بعضهم ببعض ، أن تحجب بعض الامور المغيبة ، والاسرار الكونية عن المدركات الحسية ، كالسمع والبصر والتذوق واللمس وان يتعذر كشفها للنفس الغافلة ، وتخفى معرفتها لصاحب القلب المريض ، ويغمض على العقل المغرور تباينها . . فلا تتعرف على حقائقها ، ولا تشرق نفسه بعلومها ، ولا ينال أنوارها من ظلم نفسه، وأسرف فى امره ، وأتبع الشهوات وابتعد عن الطاعة ، ووافق سلطان هواه ، وساير العادات المرذولة ، والطبائع الدميمة ، واستسلم للاخطاء النظرية الشائعة . .

ويأتى أمر الله الصادر اليينا لينبهننا ويرشدنا ويوجهنا الى خطورة هذا الميل المخالف للفطرة السليمة :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »
(الكهف : ٢٨)

وليس معنى ذلك أن العقلاء من الناس يعرفون الفطرة كل

الفطرة ، اذ أنه لا يسلم وقوع العقلاء فى الأخطاء ، فالعصمة لله وحده ، ومن اصطفاهم من الأنبياء والرسل لتبليغ رسالتهم للعالمين :

« ولقد اخترناهم على علم على العالمين »

(الدخان : ٣٣)

لقد أوحى الى النبيين، وألهم العلماء الراسخين (الحكمة) (١)، وبها أدركوا ببصائرهم النافذة ، واسلام وجوههم لله ، واسترسالهم دوما معه تعالى ، أدركوا الفطرة السليمة ، بقدر تمكنهم من العلم الالهى ، وانقداح قرائحهم بالمعارف الربانية منه من الله وفضلا ، فسلخوا طريق الله عملا ونظرا ، ظاهرا وباطنا شريعة وحقيقة ، وهم يتفاوتون مع ذلك فى معارفهم ومقاماتهم ومنازلهم العلوية ، ويختلفون فى اجتهاداتهم فى الفروع ، وذلك من رحمة الله وحكمته ، اذ أنها منافسة شريفة ودفع محمود بين الطالبين . . .

ان الشريعة هى الاصل الذى يرجع اليه العلماء جميعا ، باعتبارها مقتضى الفطرة ، وعمل بالحكمة صادرة عن رب العزة . . .

والسالكون لطريق الله ، يتجنبون الانحراف عن الفطرة ، ويخشون الوقوع فى مهاوى الضلال وظلمة الشهوات ، والميل الى الأهواء والبعد عن الحق الواجب الاتباع ، وذلك من فضل الله ورحمته على المؤمنين . . .

(١) المزيد من الاطلاع الرجوع الى كتاب «الشريعة والحقيقة» و « نحو منهج علمى اسلامى » للمؤلف .

ان أهمية العمل بالشريعة الاسلامية ، وتنفيذ أحكامها ،
انما هو بمثابة الامساك بعجلة القيادة فى طريق وعرة المسالك ، أو
فى بحر متلاطم الأمواج ، للسير فى الطريق الموصل للفلاح
والأمن والهدى ...

ان الاتجاه الى معرفة أصول الدين الحنيف ، ينير للمتأمل
الطريق الموصل لحكمة الله البالغة ، واهتدائه الى حظيرة الايمان ،
اذ به يشهد المؤمن على أحديته تعالى ويثبت القلب الى القول
الثابت ، ويوضح للعقول ما استغلق عليها فهمه وادراكه ...

ان بعض العلماء يعتقدون مثلاً أن جريمة الزنا عمل
لا أخلاقى ، لكنهم لا يوضحون للناس انها تخالف الفطرة السليمة
وتنافى الصلاح والاصلاح فى الأرض ، اذ أنه مما لا شك فيه أن
الزنا نوع من الافساد ، وابتعاد عن العدل بما ينطوى عليه من
الفوضى فى العلاقات والأنساب ، واشاعة للفرقة والعداوة ،
بالاضافة الى ما يستجلب من المهانة والنزوع الى التبطل والسلبية ،
حيث يستسهل الزانى الحصول على شهواته بدون الطريق الشرعى
الذى يحمله مسئولية كفالة الأسرة والانفاق عليها ، وعلى هذا يعد
الزنا مناقضا للفطرة السليمة، ولذلك اعتبره تعالى من الفواحش،
وحرمه على عباده وأمر باقامة الحد على مقترفيه *

والأمر كذلك بالنسبة لمعاقرة الخمر ، فالعلماء ينظرون الى أن
الشريعة تحرم الخمر حيث أنها تذهب بالعقل ، فاذا أريد قياس
أسباب التحريم على قواعد الفطرة السليمة ، تبين للتأمل ان ذلك
راجع الى أن مداومة شرب الخمر يفسد الجسم والعقل ، كما أنه

يفقد الناس غيرتهم على أنفسهم وعلى عرضهم جميعاً .. وان فى ادمان المسكرات فوضى عقلية وجسمية واعتداء صارخ على الغير ومصلحة المجتمع ، لذلك نزل التحريم ، واقامة الحد على متناولها ...

وان فى تناول لحم الخنزير افساد للجسم ، كما ثبت ذلك علميا ، وكل افساد وفساد تحرمه الشريعة لأنه ضد الفطرة السليمة ...

ولما كانت المجتمعات الحديثة قد تداخلت ، وتعقدت مشاكلها الأخلاقية ، بحيث اذا استفتى العلماء اختلفت مذاهبهم ، وتشعبت آراؤهم ، ورجع كل منهم محاكيا ومقلدا وناقلا لرأى من آراء المجتهدين السابقين ؛ ولم يصب أحدهم كبد الحقيقة ، وبعثوا عن الفطرة السليمة ، ولم يسلم أحدهم من المظنة ، والاستخفاف بما يقول .. اذ أنهم جميعا لم يشفوا غليل الظامى الى اليقين ..

ولما كان كثير من علمائنا من السلف الصالح ، يعرضون ويبنون الأحكام وعللها ، والنواهي ومسبباتها ، بحسب ما يعرض عليهم من وقائع ، وما يستفتوا فيه من موضوعات ، وما يحتاج المسلمون الى معرفته من أحكام وحدود فى أحداث لم ينص عليها القرآن ، وكان ذلك بطبيعة الحال نتيجة اهتمام الناس بشئون دينهم ودنياهم ، رائداهم التعرف على الحلال والحرام، وقد خلصت نفوسهم الى العمل فى الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. والأمر بخلاف ذلك الآن ، اذ لم يكن هناك فى الصدر الأول للاسلام من حاجة أن يستخرج المجتهدون المنهج الاسلامى فى معالجة شئون

الحياة ، وسياسة الأمة كما يدعو الأمر الآن فى هذا العصر الذى يتهمه خصومه واعداءه كيذا وجهلا وحقدا بمفتريات كاذبة ، ومزاعم متهاففة • كأن يطعن الاسلام بالجمود والرجعية ، وبالغموض فى تشريعاته وعدم انطباق أحكامه على الجزئيات ، وقصورها على الامتداد لتشمل الناس جميعا •••

وهذه الادعاءات تلزم - بطبيعة الحال - العلماء المسلمين أن يشمروا عن سواعدهم ، ويظهروا للناس حكمة الله البالغة من الدين ، وان يبينوا للطالبيين المنهج الاسلامى ، وأن يبروزا أهم معالمه ، وقدراته على مواكبة متطلبات العصر ، ومرونته وقابليته للامتداد فى الزمان والمكان ، وقبول قواعده للانتشار فى جميع المجتمعات ليكون التشريع الملائم الأكثر صلاحية لخدمة الانسان المعاصر •••

وأهم ما يظفر به المتأمل فى التشريع الاسلامى ، انه يستهدف الاصلاح والصالح ، وان غايته التيسير والرحمة والهدى ، وليس التعقيد والغموض والظلم حتى ينصلح البناء النفسى والاجتماعى ، وحتى لا تنتشر الفوضى بين الناس ، كيلا تفسد الارض ••

وعندما يدعو الاسلام الى الصلاح والاصلاح ، انما يدعو الى الحق والعدل والخير والحكمة ، وكلها مقتضيات الفطرة السليمة :
« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

(النحل : ١٢٥)

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ••

(البقرة : ٢٦٩)

فاذا اتهم الحاقدون والجاهلون والذين فى قلوبهم مرض ،
الاسلام زاعمين أن بعض قوانينه جائزة تتنافى مع كرامة الانسان
اذ تهدر انسانيته بطريقة وحشية ، عندما يقرر رجم الزانى ،
وقطع يد السارق . . .

عندما يعهم هؤلاء الاسلام بهذه الدعاوى ، فان على المتفقهين
المسلمين ، ألا يقفوا مكتوفى الأيدى ، وكأنهم قد فقدوا الأسانيد
المقنعة ، والأدلة القاطعة للخوض عن غمار دين الله ، وتبيان
حججه البالغة فى الأحكام والمعاملات والحدود .

ان ترديد النصوص القرآنية والأحاديث النبوية دون تفحص
غايتها ، وسبرغور أهدافها ، وتطبيقها فى مجالات الحياة المختلفة ،
انما هو اهتمام بدراسة فرع واحد من الشريعة ، دون الامام
بالدراسة الشاملة الجامعة لأهداف الدين . . .

اننا لا نختلف مع هؤلاء المتفقهين ونحمد لهم سعيهم ،
ولا نلومهم على استخدامهم أسلوب المواعظ والخطب فى تعليم
الناس أحكام الدين ، واستخدامهم طريق التلقين والمحاكاة فى
التحصيل لعلوم الدين ، فهذا ما سبق أن تعلموه ودرسوه، ولا يمكن
أن نطالبهم بتغيير مناهجهم فى التربية والتعليم دفعة واحدة ، اذ
أن ذلك يتطلب منهم جهدا فوق طاقتهم من الصعوبة بمكان أن
يتحملوه . . .

ولاشك أن مطالبتنا بتغيير مناهج المتفقهين فى الدين ،
وتحويلهم عن النظرة التى نظروا بها الى الشريعة الفراء يتطلب
وقتا وجهدا وعملا دائما . .

ونحن لا نختلف مع هؤلاء العلماء ، فإن ما قاموا به من جهد في تعليم الأجيال هو الذى حفظ للدين وجوده ، وأبقى للشريعة الإسلامية عصمتها كمنار يضيء للناس طريق الله ، نحن لا نختلف معهم ، ولكننا فى عصر غلبت الماديات فيه على كل شىء، لذلك فإن من واجبنا أن نبين حكمة الله البالغة من الدين ، باعتباره ضرورة حتمية ، وذلك بتعميق المفاهيم ، والارشاد الى الفطرة السليمة فى الانسان ، والتي هى موجودة فى خلقه وكيانه . . اذ هى تعبير صادق عن الانسانية . . .

ونظرة الاسلام للعلم على انه مواكب للفطرة ، تعد نظرة أكثر شمولية ، وأعمق وجودا ، وأرشد فى تبيان السلوك الواجب الاتباع من كثير من النظم والشرائع المستحدثة ، اذ الفطرة أصل جامع ، وأساس متين يصلح للباحث عن النظام الاجتماعى الاسلامى عدة وعتادا، للتزود بالحقائق الكونية والأسرار العلمية .

ولنضرب لذلك مثلا يبين لنا الحكمة من التشريع الالهى ، فى حالة تعارض فعلين أو خاطرين ، فإن العاقل عليه أن يختار بفطرته السليمة الأصلح والأدوم والمعروف بين الناس والذى اذا نفذه اعتدل أمره أكثر مما يعتدل اذا تركه ، سواء كان ذلك بالنسبة للفرد أو المجتمع ، ولاشك أن هذا الاختيار قد تم نتيجة للاستقامة والعدل المواكب لحقيقة الدين .

كما ان العاقل يمكن أن يختار الفعل الآجر أو الخاطر الآخر، عندما تتغير الظروف أو الملابس أو الزمان أو المكان ، أو التحضر ، وفى كلا الحالين ، فإن هذا العاقل لم يخرج عن الفطرة

السليمة التي فطر الله الناس عليها ، فإذا كانت معاقرة الخمر —
 كما أمرت الشريعة — يعد حراما وهذا مقتضى الفطرة ، لأن دوام
 معاقرتها افساد للجسم والعقل ، فان تناول الخمر عند عدم وجود
 ماء يقصد عدم الموت عطشا، يعد أيضا من الفطرة السليمة ، اذ أن
 مما لا شك فيه أن عدم الارتواء في هذا الظرف الطارى يؤدى
 الى تعريض الانسان الى ضرر أكثر من الضرر الذى ينتج عنه
 تناولها ، ففي هذا الموقف ضررين يجب تغليب أحدهما على الآخر،
 الأول يعرض عند مداومة تناوله الى افساد الجسم . والاخر يؤدى
 عدم تناوله الى الموت عطشا . . .

فإذا حمكنا بمقتضى الفطرة السليمة، فإننا نختار الفعل الأول،
 ونفضله على الفعل الثانى ، الا أننا من ناحية أخرى علينا أن
 نسبتغنى عن الفعل الأول عند تغيير الظروف أو بانقضاء السبب،
 أي بوجود الماء المباح ، ومن ثم تعد مداومة معاقرة الخمر بعد
 تغيير الظروف مخالفة للفطرة السليمة ، اذ هى هوى فى النفس
 ويبعد عن الاستقامة . .

وبالمثل فيما يتعلق بالربا ، فالأصل فى الفطرة السليمة
 تحريم الربا (١) ، كما نص بذلك التشريع الالهى :
 « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفه » . .
 (آل عمران : ١٣٠)

« يحق الله الربا ويربى الصدقات »
 (البقرة : ٢٧٦)

(١) راجع « نظرية الاسلام السياسية » أبو الأعلى المودودى .

فاذا كانت الجماعة الاسلامية فى مجاعة ، ولا يستطيع الفرد أن ييسر لنفسه وأهله احتياجات المعيشة الضرورية الا بالاستعانة بشكل من اشكال الربا، فلا جرم عليه أن يلجأ اليه عند الاضطراب فى هذه الظروف العسيرة ، وهذا مقتضى الفطرة السليمة ، فاذا انحلت الأزمة ، وابتعد العسر ، فانه يستوجب عليه أن يلتزم بأمر الشرع ويستغنى تماما عن التعامل بالربا ، فاذا لم يفعل • فان ذلك يعد خروجا عن الفطرة السليمة ، وشريعة الله وحكمته بالافسة •••

وبالنسبة لاقامة الحدود الشرعية فأمر الله نافذ على السارق • وذلك باقامة حد قطع اليد عليه •• وهذا مقتضى السليمة ، أما اذا تغيرت ظروف المجتمع، وتعذر اعطاء الحقوق لمستحقيها، وتجمدت القواعد الشرعية ، فلم تمتد الى الأغنياء لتأخذ منهم حق الفقراء ، وأفلس بيت المال ، فلم يعد قادرا على الوفاء بالتزاماته قبل المحتاجين والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فإنه لا يمكن أن يقام الحد على سارق بقطع يده ما دام لم يوف له المجتمع حقه الشرعى، ولم يعط ما أمر الله به أن يعطى له ، ليتسنى له أن يحيا حياة كريمة ، ويجب ان يرجع القاضى الى ان السارق ما اقترف هذا الجرم الا لوجود قصور من قبل الجماعة فى تطبيق شريعة الله لتشمل الناس جميعا •••

وفى هذه الحالة لا يقع الجرم على السارق الذى له عذره — فيما ارتكب من جرم ، بقدر ما يقع على الجماعة الاسلامية •• فاذا عوقب فان ذلك يتنافى مع الدين الخالص والفطرة السليمة والعقل الراجح السديد •••

الربوبية والعبودية

● النظام الذى وضعه البشر فاشل • وعلى الانسان ان أراد السعادة العودة الى شريعة الله •

الاسلام : اسلام الوجه لله والاسترسال معه تعالى ، وظاهره السلام وباطنه الاستسلام لله •• والمسلم المؤمن : حياته التوحيد، والتوحيد رؤيا بصرية وقلبية ، وبالنفس والروح جميعا ••

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »
(آل عمران : ١٨)

وشهود أن لا اله الا الله قمة التوحيد ، وثماره اليقين ، وباليقين فى الله تزداد فى قلب المؤمن السكينة ، وتعمره قوى الخير ، وترعرع فى نفسه معانى الطاعة ، ويشرق صدره بنور الاخلاص •• فيحصد عمله فضلا وعلما ••

« لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »
(يونس : ٦٤)

ان لا اله الا الله هى الدرة الفريدة ، والجوهرة الوحيدة والمفتاح الذهبى لدخول المؤمن الى النعيم المقيم ، والتمتع بالأمن والسلام ، والاقامة فى دار السكينة والخلد :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم »
(الفتح : ٤)

ان الايمان بأنه لا اله الا الله ، فتح للأبواب المستغفلة ، وحل

لكل المشاكل الحياتية المعقدة ، وفض لكل العوائق والسدود المحصنة ، فباسمه تعالى يعرف الانسان نفسه ، وبذكره يهديه الى حقيقته ، وبدعائه يستجيب الى رجائه ..

فكيف يزعم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ان بعض الأشقياء من المشركين والضالين يصدقون فى القول ، ويتفانون فى العمل ، ويأتون افعال الخير ويساعدون المحتاج والفقير ، ويصلون الرحم ، ولا يضررون احدا من الخلق ..

وزعم ذلك فانهم يحكمون على المسلمين مسبقا بدخول النار .. ويصورونهم للناس على أنهم وحوش ضارية ، ونفوس أمارة ، وقلوب قاسية ، وعقول جاهلة ، بل يسلبونهم كل معنى جميل ، ويتهمونهم بكل صفة خسيصة ودنيئة ، ورأى عقيم .. ويتشكك هؤلاء المنافقون فى كلمات الله البينات ، ويظنون أن عقولهم قادرة على اصدار الأحكام .. ويعمدون الى اظهار رفضهم لحكم الله ، ويشيرون جدلا حول منهجه تعالى ، ومجمل زعمهم يصيغونه فى دعاوى خبيثة ، وارهاسات كاذبة على النحو التالى :

لماذا يدخل المؤمن الجنة ؟ ولماذا يخلد الكافر فى النار ؟

ولا يترك هؤلاء فرصة للمؤمنين للاجابة على اعتراضهم .. وانما يواصلون ترديد آرائهم المنحرفة فيدعون أن من يهتمون بالشرك والعصيان، انا يشهد الواقع أنهم أكثر من المؤمنين بحضراء، وأنهم أعظم تفوقا من الناحيتين المادية والتكنولوجية .. وبرغم انفكاكهم عن عرى الدين ، وعبادتهم للعقل كبديل لله .. فانهم

يسلكون سلوكا طيبا فى حياتهم ونحو زملائهم ، ويحافظون على النظام العام والآداب فى مجتمعاتهم ..

وهؤلاء المنافقون يواصلون هجومهم على الدين القيم ، والشريعة الغراء ، ويدعمون هجومهم بحال المسلمين السيئ فى هذا العصر الخرب ، من تناحرهم وتصارعهم وتبطلهم واندحارهم وتفككهم وظلم بعضهم لبعض .. وينتهون آخر الأمر الى تساؤل خبيث :

هل يمكن أن يقال الآن ان المسلمين سيدخلون الجنة ، وان الكفار سيخلدون فى النار ؟ ..

اننا اذا قسنا الامور بمقاييسنا المادية ، وقيمنا الواقع بمدركاتنا الحسية ، وحكمنا على الأحداث بفكرنا العقلانى، وقعنا فى الريبة والشك والقنوط واليأس .. وربما عذرناهم فيما يزعمون .. أما اذا أطعنا الله ورسوله * وعملنا بما علمنا ، وصدقنا وأخلصنا فتحت لنا السبل ، والهمنا بالحقائق ، وتوصلنا الى اليقين .. وخلصنا بأن قضية الخلق انما تتحدد فى الفكر والايمان ، فى لا اله ، وفى « لا اله الا الله » ويدور حول هذه القضية كل شيء ، وبها يتقرر مصير كل انسان على هذه الأرض سواء الى جنة النعيم أو الى العذاب المقيم .

ولا يهमे تعالى مفهومنا المادى عن التحضر ، ولا يحكم تعالى على صلاحنا بتفوقنا التكنولوجى أو العسكرى ، ولا يميز فئة دون أخرى لمجرد احترامها القانون الوضعى الظاهرى ، والنظام الاجتماعى الذى شرعه البشر من دون الله ..

ان سعى الاوروبى أو الغربى الدائب للتفوق الاقتصادى والحضارى والثقافى ليس مسوغا لدخوله جنة الله ، وليس دليلا على صدقه واخلاصه فى تعمير الأرض التى حض الله على تعميرها وليست ورقة عمل فى الدنيا تكفل له السعادة فى الآخرة .

ان محافظة الغربى « الملحد » على النظام ، واحترامه للقواعد القانونية المتفق عليها ، واتفانه للعمل الموكل اليه، وبذله للجهد من أجل حياة أفضل وايسر . . . شىء غير منكور . . اذا كان يهدف به وجه الله . . لأنه تعمير فى الأرض وسعى من أجل الرزق . . وعبادته . . أيسمى من أجل تحقيق لا اله الا الله . . أم من أجل تحقيق ذاته ، وابرار تفوقه ، ومشاركته لله فى ملكه . . وادعاء الخلق . . والسجود للعقل .

ان قضية ادعاء الربوبية والغرور والعجب بالنفس قضية قديمة وحديثة فى آن واحد . . فلقد تناول فرعون على الله وادعى الالهية ، وظن أنه مخلص فى الأرض، وقال لقومه انا ربكم الأعلى . . كما ورد فى القرآن قول عز من قائل :

« وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب . .
الاسباب السموات »
(غافر : ٣٦ - ٣٧)

لقد أراد فرعون أن يستظهر قوته ، وأن يؤكد على جبروته وسطوته وقد جمع الله له - لحكمة - كل أسباب السلطة فى عصره ، وفتنه بالعدة والأدوات التى يصنع منها ما يريد . . وأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا يتعالى فى السماء ، لكن هذا البناء

لم يكن لعبادة الله، ولم يكن ذلك التعمير من أجل لا اله الا الله ..
وانما كان تحديا للربوبية .. وتعديا على خالقه وموجده ..

ان تحدى الكافر واعتراضه على الله .. مشكلة انسانية تظهر
فى كل وقت وحين .. وامهال الله للكافرين ، وتمكينهم فى
الأرض ، واظهارهم بمظهر القوة والحكم ليس الا فتنة لهم ..
وتيسير الأدوات والمستحدثات والمستكشفات لهم، ليس يعنى صلاح
أمرهم وتقدمهم فى السلوك الاخلاقى السليم وسيرهم فى الطريق
المستقيم ..

لقد هدم صرح فرعون بأمر الهى ، وازيلت من الوجود أمم
ذات حضارات عظيمة ، ومحيت مدن يحكى لنا التاريخ روعة
عمارتها ، وتقدم حضارتها وتفوقها على غيرها فى الفنون
والصناعات والعلوم .. فلماذا يأمر تعالى بازالتها من الوجود ؟ ..

تتوالى الآيات البيّنات فى الرد على هذا التساؤل .. ويفيض
القصص القرآنى بذكر هذه الأمم ، وما انتهت اليه من نهايات
شقية تعمسة كقوم نوح ولوط وعاد ، فقد مكنها الله فى الأرض
لكنها عصت أمر أمر ربها ، وكفرت بأنبيائه ورسله .. وزعمت
كذبا وظلما بأن لا الله، الا ما كان يعبدونه من دون الله .. فحققت
عليهم كلمة المذاب فى الدنيا وفى الآخرة .

وما هى الحضارة الغربية الحديثة ترفع شعار التحدى ..
وتعترض على كلمة الله ، وتسخر من ايمان المؤمن ، وتظن كما
ظنت الأمم الغابرة أنها مغلدة فى الأرض ، وأن ما اصطنعوه من

أسباب التقدم العمرانى والتفوق التكنولوجى لن يبيد أبداً ..
وكان قصة صاحب الجنة تتكرر فى العصر الحديث :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن أن تبديد هذه أبداً »
(الكهف : ٣٥)

ثم يقول له صاحبه المؤمن وهو يعظه :

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله »
(الكهف : ٣٩)

« لكنه لم يفعل لغروره بالدنيا وطول أمله فيها ، وتحديه لله
فكان انتقامه تعالى شديداً :

« واحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى
خاوية على عروشها ، ، ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احداً »
(الكهف : ٤٢)

ان لا اله الا الله غاية كل شىء ، وهى هدف الحياة فى كل
شىء ، وبدونها يفسد كل شىء .. انها كلمة التوحيد التى من
أجلها خلق كل شىء ..

ان تقدم الملحد الغربى الحديث من الناحية العمرانية
والتكنولوجية ، ليس دليلاً عن تفرقه على المسلم المؤمن .. اذ
التفرق المادى ليس بالضرورة العذمة المميزة للمصالح والاصلاح ،
بل ربما يكون دالة على الفساد والافساد ، وطريقاً يقود الى الدمار
والخراب والتعاسة الأبدية ..

ان الاوروبى الملحد يعلن فى تبجح :

« لا اله والكون مادة » ..

ان الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ولا أثر للخالق » ..

فهل هذا الا قول الغابرين فى الأمم السابقة والتي دمرها
تعالى تدميرا .. فاذا امهلهم تعالى لحين، فلن يهملهم فى كل حين ،
واذا أعطاهم الدنيا فلا نصيب لهم فى الآخرة :

« ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها؛ وماله فى الآخرة من
نصيب » (الشورى : ٢٠)

الموضوع هنا ليس موضوع حضارة مادية تقاس بالمظاهر
والأشكال والزخارف ، وليس الرقى رقىا فى الملبس والسكن
والمأكل .. وانما الرقى فى النفس المتطهرة . الرقى يحسب
بحسابات القربى من الله ، والخوف من وعيده ، والرجاء فى
وعده ، ونصرة كلمة التوحيد .. والحضارة حضارة القلب
السليم ، وثقافة العقل الرشيد ، وتقدم الانسان المؤمن فى معرفة
الله ، والعمل بما يأمر والنهى عما حرم ..

الحضارة الحقيقية للانسان أن يسخر العلم من أجل عبادة
الله فى الأرض ، والسعى من أجل تحقيق كلمة لا اله الا الله ..

لقد اغترت ملكة سبأ بملكها ، وافتتنت بحضارة أمتها ، فقد
أوتيت من كل شيء فى الدنيا فنسيت أمر ربها ، وعبدت وشيعها
الشمس كما ورد عن الهدهد فى قول عز من قائل :

« انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم .. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »
(النمل : ٢٣ - ٢٤)

ويبين تعالى لقوم سبأ ان كثرة المال والمدة والعتاد لا أهمية لها ، وأنه يمكن ان يبديد ذلك كله فى لمح البصر .. وأظهر تعالى عى يد نبيه سليمان عليه السلام بعضا من علمه ، فطلب سليمان عرشها فأتى به مؤمن قبل ان يتحرك جفن عينيه .

هناك بون شاسع بين صاحب حضارة مادية ، مهما كانت ، وبين صاخب كلمة التوحيد المؤمن بكتاب الله وعلم الله .. فهذا المؤمن لا تبهره الحضارة المادية لأن ما عنده أكثر ، ولا تفتنه المستحدثات والمستكشفات ، فقد أنعم الله عليه بأعظم من ذلك كله .. لقد أفاض عليه بنعم وعطايا ومنن مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. فكيف تهزه الدنيا بما فيها وما عليها .. وقد فتح الله له أسباب السعادة الأبدية فى كلمة التوحيد .

ان المسألة اذن ليست فى نجاح أمة نجاحا دنيويا ، وتفوقها عمرانيا وتكنولوجيا .. بقدر ما هى مسألة نجاح فى تجاوز ظلمة الجهل الى نور العلم ، وتفوق النفس على الشرك بالايمان ، وتقديم الانسان فى طريق لا اله الا الله .

فاذا ظن الملحدون أنهم ناعمون ، وفى حضارتهم خالدون ..

وقد يسرت لهم سبل العيش الطيب ، وجلبت لهم وسائل الرفاهية
حتى أملوا فى الدنيا ، واعتقدوا أن ذلك لن يبيد أبداً •

إذا ظنوا ذلك فقد سلط الله عليهم الشياطين يلقون فى قلوبهم
الرعب ، فظاهرهم النعيم ، وباطنهم المقيم :

« وقذف فى قلوبهم الرعب » (الاحزاب : ٢٦)

« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية،حمية الجاهلية »
(الفتح : ٢٦)

« وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه،وفى آذانهم وقرا »
(الأنعام : ٢٥)

انه بدون لا اله الا الله يفسد كل شىء ، مهما ظهرت لنا
صور من الصلاح الظاهرى ، وبدون لا اله الا الله نخسر كل شىء
مهما تمتعنا متاعا زائلا اذ لا طعم ولا معنى • وبدون لا اله الا
الله نعيش حياة الخوف والفرع والرعب واليأس والقنوط مهما
ظهر للعيان من تفوق حضارى ، وتقدم تكنولوجيا ، ونجاح مادية •
لكننا نتساءل : هل يتساوى الناس فى معرفة لا اله الا الله ؟

يختلف الناس فى تفهم « لا اله الا الله » فمنهم من يرددها بطريق
المحاكاة والتقليد ، مقتديا بوالديه أو بمعلميه دون أن يتعمق
معناها ويتعرف على مغزاها ، ويسلك فى اتباعها طريقه تعالى ،
وانما يدفعه قولها حسن الظن بمعلميه ، وما اكتسبه من العادات
التي نشأ عليها وتربى فى ظلها •

أما اذا تأمل معنى « لا اله الا الله » وعلم انه لا خالق سواه ،
فقد تقدم خطوة فى طريق الله — سبحانه وتعالى ، واقتنع قولا
وفعلا أن لا اله الا الله ، وارتفع درجات فى باب المعرفة عن طريق
التأمل وطول النظر •

ثم أنه اذا قال « لا اله الا الله » واقتنع بأن لا اله الا الله ،
وصدق فى قوله وقناعته بأن لا اله الا الله ، واخلص فى ذلك ،
توصل — يأمر الله — الى درجة أعلى ، وعلم أوفى ومعرفة أتم • •
وامسى اعتقاده هذا من الصعوبة بمكان الاقتناع بغيره ، فهو
يأنس به ، ويدافع عنه ، وربما يستشهد فى سبيله •

فاذا هداه الله لقول « لا اله الا الله » والاقتناع بأن لا اله الا
الله ، والاعتقاد فى ان لا اله الا الله ، فاذا هداه الله الى ذلك ،
توصل بمئة من الله وفضل الى الايمان بأن لا اله الا الله وهنا
يحظى المؤمن بالسكينة •

« هو الذى أنزل السيكنة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا
مع ايمانهم » (الفتح : ٤٠)

وفى هذا المقام ينعم عليه بالمبشرات وهى رؤى يراها المؤمن
فتتحقق له ، ويفيض الله عليه بالنعيم والمنن والعطايا والهبات ،
حتى يصل الى ذروة الايمان ، ويقترب الوريد من الوريد ، فيعرف
قولا وفعلا ، واقتناعا واعتقادا ، ايمانا وشهودا : ان لا اله الا
الله •

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما
بالقسط » (آل عمران : ١٨)

- ٧٩ -

وفى الشهود وهو قمة التوحيد ، وذروة الاصطفاء ، تسرى
فى قلبه وجسمه ونفسه جميعا أنوار الربوبية ، ويلهم ببعض
المعارف الرحمانية وينال المنازل الرفيعة ، ويرى مالا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فاذا انتقل نزل فى جنة النعيم ليلقى ربه راضيا مرضيا ،
وقد أعد له فى مقام صدق مما أعد للمقربين ، كما وعد رب
العالمين :

« على سرر موضوعة متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم
ولدان مخلصون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين . ولا يصدعون
عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون .
وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون .
لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . الا قила سلاما سلاما » .
« الواقعة : ١٥ - ٢٦ »

- ٨١ -

الباب الثاني

(غاية التربية الاسلامية)

الفصل الاول :

- ١ - عدم الشرك •
- ٢ - اقامة الصلاة •
- ٣ - الأمر بالمعروف •
- ٤ - النهى عن المنكر •

الفصل الثاني :

- ١ - الثقة بالله •
- ٢ - الصبر •
- ٣ - التواضع •
- ٤ - اليقين •
- ٥ - الاعتدال •
- ٦ - الايثار •

الفصل الثالث :

- ١ - الاحسان •
- ٢ - الوفاء •
- ٣ - التزهد •
- ٤ - الطاعة والقنوت •

مقدمة :

يتبين للمتأمل في آيات الله البينات ، انفراد المنهج الرباني بمفاهيم تربوية لا نجد لها مثيلا في المناهج والنظم والفلسفات التربوية البشرية ، وهذه المفاهيم الربانية تستهدف خير الانسان ، لا في الدنيا فحسب ، انما في الدنيا والآخرة جميعا . . . ويؤسس المنهج الرباني على قيم كبرى تتضافر للوصول بالانسان الى الصلاح والاصلاح ، وشجب كل صور الفساد والافساد في النفس والسلوك والمجتمع . .

ويبدأ المنهج الرباني في تبيان أهدافه وغاياته ، حتى يتبعه المسلم وهو مؤمن بمقاصده العظيمة ، عارف بفوائده الجليلة ، مصداقا لما أوحاه الله تعالى الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

ويركز منهج التربية الاسلامي على قيم العدل ، والاحسان ، والاخاء ، والمساواة ، والعفو والرحمة والمعروف والاستقامة والصبر وكظم الغيظ ، الى غير ذلك من أفعال الخير وصالحات الأعمال .

وتبدأ مسئولية الأم في واجباتها التربوية منذ مرحلة الرضاعة ، بل قبل ذلك مع بداية شهور الحمل للجنين ، وفي هذه المرحلة تضحى الأم براحتها ، وتتحمل في جلد وصبر هذا الحمل الذي يزيد وزنه يوما بعد يوم ، ويتحرك في أحشائها مسببا لها الوهن والضعف والآلم ، لذلك يذكر تعالى الانسان برسالة الأم ، ويوصيه خيرا بها في آيات بليغة معجزة :

« حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا »
(الأحقاف : ١٥)

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن »
(لقمان : ١٤)

وعندما تضع الأم وليدها ، تبدأ مسؤولية الأبوين فى الرعاية والانفاق والتربية ، حتى يبلغ رشده ، وفى هذه الرحلة الطويلة يكتسب الطفل عاداته وأخلاقياته وقيمه ومفاهيمه وعقيدته ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« يولد المولود على الفطرة وأبواه يمجسانه ويهودانه أو ينصرانه ... »

ومن هنا كانت مهمة الأبوين فى التربية جد خطيرة ، فالطفل يحاكي أبويه فى سلوكهما ، ومعتقداتهما وأخلاقهما لحسن الظن بهما ، ولعلمه أن ما يفعلانه أو يقولانه هو ما فيه الخير له ، فيقلدهما ، ويسعى للتوحد بهما وتقمص شخصياتهما ...

وإذا كان الأبوان متفاهمين مؤمنين ، ربطت المودة والرحمة بينهما وقويت عرى الزوجية ، ونشأ الطفل فى جو آمن مستقر ، تربى على الايثار والمحبة والاخلاص ... أما إذا كانا مختلفان متشاحنان أبداً ... نشأ الطفل متذبذب الفكر ، فاقد الطريق مهلهل الشخصية ، عنيفاً أو عدوانياً ، شقياً أو تعيساً ، إلا مارحم ربه وتولاه من يحسن تربيته غيرهما ، ويقيم عودة على منهج التربية الاسلامية ... ولقد تولى تعالى موسى عليه السلام برحمته بعد أن تربى فى بيت فرعون الكافر ، وأوحى اليه واجتباؤه وعلمه ما لم يحظ به فى طفولته ومالم يرشد اليه فى صباه :

« قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين »
(الشعراء : ١٨)

أبى موسى عليه السلام أن تكون تربيته في بيت فرعون نعمة ،
ذلك أن فرعون كان جباراً ظالماً ، يفرض على بنى إسرائيل أن
يعبدوه من دون الله ، وأنه كان سفاحاً يقتل أبناءهم ، حتى
أن أم موسى ألقته في اليم لينجو من القتل فأل الى بيته ولولا ذلك
لرباه والداه ..

« وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل »
(الشعراء : ٢٢)

ان التربية الحقّة انما تكون في تلقين الطفل أعمال الخير ،
وارشاده الى الصراط المستقيم ، وتعليمه الأخلاق الطيبة ، وذلك
كله لا يمكن أن يتحقق الا بالايمان بالله وعدم الشرك به تعالى ،
وهذا وارد في وصية لقمان لابنه في قوله تعالى :

« واذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان
الشرك لظلم عظيم »
(لقمان : ١٣)

ثم يتابع لقمان عظته لابنة فيقول له :

« يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، وأصبر
على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصغر خدك للناس
ولا تمش في الأرض مرحاً ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ،
وأقصد في مشيك ، وأغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت
الحمير ... »
(لقمان : ١٧ ، ١٨ ، ١٩)

- ٨٦ -

يتبين للمتأمل في الآيات القرآنية أن أساس التربية يكمن في عدم الشرك بالله ، وقد ظهر لنا من الأمثلة التي سقناها عن موسى عليه السلام وعن لقمان في وعظه لابنه •

ويمكن أن يندرج تحت عدم الشرك بالله القيم والمفاهيم التربوية الاخرى ، وذلك من واقع الآيات القرآنية ونمثل لها ببعض الفضائل الاخلاقية والسلوكية كما وردت في كلام الله كأسلوب تربوى صالح فى الحياة الدنيا والآخرة :

- ١ - عدم الشرك •
- ٢ - إقامة الصلاة •
- ٣ - الأمر بالمعروف •
- ٤ - النهى عن المنكر •
- ٥ - الصبر فى الشدائد •
- ٦ - التواضع وعدم التكبر والعجب والاعتزاز •
- ٧ - الاعتدال والتوسط فى المشى والكلام والطعام والنفقة •
- ٨ - الايثار •
- ٩ - الاحسان •
- ١٠ - الوفاء •
- ١١ - التزهد وصلاح النفس •
- ١٢ - الطاعة •

عدم الشرك

أولادنا ٠٠ فلذات أكبادنا ، وزينة حياتنا ، وأمل دنيانا ٠٠
بهم تعظم الأمانى ، ولهم نشد الرجال ، ونصارع الأمواج ، ونجهد
أنفسنا بالكفاح والعمل ٠٠٠ لا نبخل بشيء يسعدهم ولو كان
عزيزا ، ولا نحرهم من الحياة الرغدة اليسيرة ولو كنا نقاسي
شظف العيش والفقر فى المال ٠٠

تهاجر الى البلاد البعيدة ، ونعبر وديانا ونمخر بحارا، ونطير
سما ٠٠ ونسعى من أجل لقمة العيش لنقدمها بعد جهد وتعب
الى أولادنا ، سائفة ميسرة ، ونحن سعداء بذلك ، وعرق أهداننا
لم يجف بعد ٠٠٠

هذه قصة تتكرر فى كل زمان ومكان ، ورسالة يحملها الأبناء
عن الاجداد ، لتقدم بشكل أو بآخر قيم الانسان من ايثار وتضحية
وبذل وعطاء ٠٠٠٠

وتمضى الحياة بحلوها ومرها ، يسعدها وشققائها ٠٠٠
لتسلم الرسالة الى الجيل الجديد وتعطى الأمانة الى الشباب الصاعد
فى رحلة العمر المتجددة ، ويوصى الآباء الأبناء ، كما أوصى
الأجداد من قبل الآباء ، ويستقيم الأمر أحيانا ويمتدل ، ويعوج
أحيانا ويظلم ويجور ٠٠٠ وتتبدل الظروف وتغير الأحداث الآمال
والأمانى والظنون ٠٠ فيتحمل الابناء ثمرات أعمالهم خيرا بخير
وشرا بشر ، لكن العظة واجبة ، والدين النصيحة ومن لم يتعظ من
والديه يلقى من أمره شططا ٠٠٠٠

وان أول ما يتوجب على الآباء تلقين أبنائهم به ، هو التركيز على رسالتهم فى الحياة الدنيا ، وافهامهم أنها مع زينتها وحفظها ومفاتها دار غرور لا دار بقاء وسرور، وأن أهم ما فيها لا يساوى الى عند الله جناح بعوضة ، لذلك فإنه يلزم أن يتفهم الابناء أن رحلة الحياة قصيرة مهما طالّت وان لله الرجعى . . .

يجب ان تكون عظة لقمان لابنه نبراسا يستضىء به الآباء فى توجيه أبنائهم ، وسراجا يقودهم من الظلمات الى النور . . . وأعظم ما تقدمه العظة الصريحة الواضحة قول لقمان كما ورد عن عز من قائل :

« يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم »
(لقمان : ١٣)

لو وعى الأبناء هذه النصيحة، ما وقعوا فى الاثم وما تراكت عليهم البلايا والأخطار ، ولما شوا فى أمن نفسى وطمأنينة قلبية وقد ابتعدوا عن القلق والكآبة وظلم النفس واليأس والقنوط . . .

ان قضية هذا العصر وقضية كل عصر ، هى وجود الظلم ، وأفدح أنواع الظلم الذى يبدأ بالشرك أو ينتهى اليه ، والنفس الظالمة غرور مغرورة ، قانطة يائسه . . . تعبت بها شياطين الانس والجن ، وتقودها الى الفواية وترمى بها آخر الأمر الى الضياع والشقاء الابدى

والنفس الانسانية تحتاج الى التربية المستمرة والتذكرة المستديمة ، والوعظ الصادق الأمين ، حتى لا يعترىها الصدا ،

ولتأمن من رياح الشرك العابثة ، وتبتعد عن الأمواج العاتية حيث
شط الأمن والامان . . .

ان التمسك بلا اله الا الله . . . تقوية للعزائم وشحن للهمم ،
وقيادة الى طريق الهداية ، وايصال بالعمل المخلص البناء . . .

وباسمه تعالى تصبح النفس مطمئنة في طريقها ، مجاهدة في
سعيها ، صادقة في وعدها ، أمينة في أخلاقها . . وبذكره تعالى
تطهر السبل من العوائق ، وتصفو النفس من الهواجس وتبتعد
عن الوسوس ، فلا يقترب الرجيم من صاحبها ، ويخاف الشيطان
من نار الحريق عندما يجاورها ، وهذه النفس رحيمة على المؤمنين
شديدة البأس على المشركين . . .

وهكذا ينشأ الأبناء أقوياء مع الله ، شرفاء مع الحق ، لا تغرهم
زينات الدنيا ، ولا تبهرهم حضارتها المادية وبذلك
يحملون الامانة الى الجيل الصاعد ويسلموا لمن بعدهم ما سلمناهم
من الرسالة

فما أعظم الفرق بين منهج الاسلام التربوي وبين المنهاج
البشرية في الساسيات التربوية ، فالاسلام يتفوق على تلك المنهاج
بمفاتيح ذهبية لا يغشاها الصدا ، تفتح بها أبواب النفس دون
عنت أو اكراه أو تزييف . . فتشرق بالنور بعد الظلمة وبالعلم
بعد الجهل وبالأمن بعد الخوف وبالأمل بعد اليأس والقنوط .

وأساس هذا التفوق يقوم على الوسط العدل وليس هذا

- ٩٠ -

الوسط وسطا حسابيا أو تقريريا أو تجريبييا (١) كما نجده عند المتفلسفين، وانما هو وسط رباني لا يعتمد على ارهاصات فكرية، ولا تخیلات بشرية ولا ظنون حسية أو حدسية أو عقلية ، انه ذلك ذلك الوسط الذي يهديه الله تعالى الى عباده ، فهو صراط مستقيم وهو الاستقامة والقوامة والقصد والقسط والاقتصاد والاقتصاد ، انه ذلك الينبوع الذي لا ينضب من العدل الالهي ، يشرب منه عباده على الاستمرار ، ويروى منه العلماء على الدوام . فتسكن قلوبهم وتهنأ نفوسهم وتنشرح صدورهم فيمتلأون فهما وادراكا وعلما ، ويخرجون ثمرات يانعة من المعارف والحكمة :

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا)

« البقرة : ٢٩ »

لقد ظهرت شخصية المسلم المؤمن عبر التاريخ وكأنها قوة لا تقهر ، وطود شامخ يعجز العدو عن مواجهته كان من كان من القوة والعدة والعتاد . . فالمؤمن يخافه الأعداء ويأمنه الأصدقاء . . . وهذه الشخصية المزدوجة المظهر ، متوحدة الباطني ومتوازنة ومعتدلة ومستقيمة لا انفصام فيها ولا تفكك ولا انحلال ، وانما يأتي الانطباع من الرائي أو المتفاعل معها بحسب صدقه وكذبه ، فاذا كان عديم الايمان بالله، شعر في مواجهة الشخصية المؤمنة بالخوف الشديد ، واذا كان قوى الايمان شعر بالأمن والأمان والراحة والتعاطف الشديد :

(أشداء على الكفار رحماء بينهم) « الفتح : ٤٨ »

فمن أين جاءت اذن هذه القوة التى يمتاز بها المسلم المؤمن؟ •
لا شك أن هذه الشخصية تكونت فى ظل التربية الاسلامية
السمحاء ، ومن خلال سياسة نفسية انصهرت داخل بثوثقة
الايمان •

لم تتكون شخصية المسلم عفوا أو صدفة ، وانما تكونت بعد
محاكاة وتكلف للقدوة الحسنة ، وهى شخصية الرسول صلى الله
عليه وسلم ، ثم تطبع بها وتحلى بسلوكها وأخلاقها وأقوالها
وأفعالها •

فالمسلم المؤمن يستضيء بنور القرآن العظيم ، ويسلك سلوك
الرسول الكريم ، وبذلك يحظى ببعض معالم الشخصية المحمدية
التي استن بسنتها وتطبع بها فكرا وعملا •

والاسلام يربى الانسان على اخلاص العبودية لله وحده ،
فلا يخاف الا الله ولا يرجو أو يتوسل غيره من الانس أو الجن • •
ولا يبث حزنه أو شكواه الا اليه تعالى • • ومن هنا كان المسلم
المؤمن ذا شخصية قوية منذ نعومة أظافره • فانطلق الصغير ربما
يقول كلمات حكيمة يعجز الكبير غير المؤمن عن فهمها أو الاهتداء
الى مثلها •

مر سيدنا عمر بن الخطاب (١) رضى الله عنه ، على صبية يلعبون
وكان بينهم زيد فهرب الاطفال الا زيدا • فقال له الفاروق عمر :
لم لم تهرب ؟ • فقال زيد : لم يكن الطريق ضيقا لأوسع لك • •
ولم أكن أخافك لأهرب منك •

(١) ابو الحسن البصرى • ادب الدنيا والدين

من أين جاءت هذه الفطنة وتلك الكياسة فى السلوك ،
والجراءة فى الحق ، لطفل لم يشب بعد عن الطوق ، ولم تكتمل
رجولته بعد . . ثم انه يكلم من . . انه يكلم الفاروق عمر الذى
كان يخافه الشيطان ، ويرتعد منه كل جبار عنيد .

ان رد ذلك الطفل انما هو ثمرة يانعة لسياسة التربية النفسية
الاسلامية ، التى لا تعرف الخنوع والاذلال ولا الخوف والفرع . .
سياسة تقوم على تقوية الثقة بالله والاسترسال معه على الدوام . .
فكيف ينشغل العبد بالله، ولا يلهمه تعالى بالقول الثابت والرأى
الصائب والحكمة الخالدة .

يسأل الأصمعى فتى مسلم صادق ، أتحب أن يكون لك مائة
ألف دينار وأنت أحمق . . ؟ يرد الفتى فى سرعة ليقول له : لا . .
فيمتحن الأصمعى الفتى فيسأله : ولم لا ؟ فيرد الفتى فى حكمة
الحكيم قائلاً : «أخاف أن تجنى على حماقتى جناية فتذهب بمالى» .
ويبقى لى حمقى » .

عجبا من هذا الرد الذكى اللبق . . والذى يدل على قوة المنطق
ورجاحة العقل وسلامة القلب وطهارة النفس من شوائب المادة
وأدران الشهوات .

ولا شك أن ذلك كله نتيجة لازمة للتطبع بالآداب الاسلامية
والاخلاق القرآنية والتربية الربانية ، انها نتيجة العمل بأحكام
الدين القيم وبشريعته السمحاء .

وتبدأ التربية النفسية من قول عز من قائل على لسان عبده
المجتبى لقمان عليه السلام فى وعظه لابنه :

(يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم)

« لقمان : ١٣ »

تبدأ التربية الاسلامية من نزع الشرك الظاهر والخبى من
النفوس فتتخلى بذلك من الظلم والرياء والفسوق والعصيان •

ثم تستعد النفس بعد سلب كل شرك عن النفس بملء جرة
القلب بدين التوحيد الخالص •• والتوحيد سلب وايجاب ، سلب
كل ما عدا الله وايجاب للالهية المنزهة عن كل شرك ، وتظهر
هذه القمة التوحيدية فى لا اله الا الله •• نعم لا اله الا الله حقا
وقولا •• وتحتها يندرج كل شىء وبعدها يتحدد كل شىء •• ومنها
تنعقد السياسة التربوية الاسلامية .

لا اله الا الله •• هى معلم الصبى والفتى والشيخ الكبير ••
فيها يعرف العبد موقعه من هذا العالم ، فيحمل هذه الرؤية طيلة
حياته لا ينكسها أبدا •• وبها يستقيم حال المسلم فيقوى مع الله
وبالله وفى سبيله تعالى •

وتندرج تحت لا اله الا الله كل شىء •• فاذا آمن المرء بأن
لا اله الا الله فانه لا يتقاعس عن تأدية حقوق الله عليه من صلاة
وزكاة وصيام •• وما دام يعرف حقوق العبودية ، فأنه سيأمر
بالمعروف كما أمره الله وسينهى عن المنكر كما أوصاه تعالى •

ومن هنا تمضى سياسة التربية النفسية معتدلة مستقيمة

مسترشده بكلام الله مهتديه بمنهاجه تعالى . . فتخلص النفس من الضعف وذل الشهوات والتكالب على اللذات الدنيوية . . وتهناً بمجاورة كلام الله وعلم الله ، وتتنعّم بالعيش الرغد فى ظل الطاعات والأعمال الصالحات .

ان نفسية المؤمن الصغيرة أو الكبير، لها خصائص فريدة وسمات وميزات عظيمة . . كلها نابعة من لا اله الا الله . . من التوحيد الخالص . . وهذا ما يظهر فى وصية لقمان لابنه . . فبعد سلب الشرك الظاهر والخفى . . الصلاة ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . وعند ذلك أو عندما تتشرب النفس بتلك الخصائص الفريدة من الناحية الوجدانية . . يأتى دور تكوين الشخصية الاسلامية التى تمتاز بالتواضع والسخاء والاحسان والصدق والوفاء والرحمة والايتار والثقة بالله . يقول لقمان لابنه كما ورد عن عز من قائل :

(ولا تصغر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا)
« لقمان : ١٧ »

وهكذا ينشأ الفتى المسلم على عادات طيبة وأخلاقيات مثاليه ثابتة ، ومفاهيم رائعة وقيم صالحة لكل زمان ومكان . . تبدو لكل مفتقر اليها نموذجا يود أن يحاكيه ، وهذا ما نجده عند كثير من الغربيين الذين يختلطون ببعض المؤمنين، فيحسدوهم على ثقّتهم بالله ، وبأنفسهم مهما لاقوا من الشدائد والعوائق والصعوبات ، ويحسدونهم على تواضعهم وبساطة حياتهم وعدم تكلفهم فى الغذاء واللباس ، ثم يحسدونهم أيضا على قدراتهم الفائقة فى

ضبط النفس وعدم موافقة الأهواء والحظوظ من سكر وعريضة
وحب للهو والعبث الرخيص .

ويتملك المشرک والملحد الفيظ من حياة المؤمن الهائلة ونفسه
الآمنة وقلبه المطمئن . . ويكاد يموت غيظا وكمدا . . لأنه مع
توافر المشتبهات، وانكبابه على الشهوات، واشباعه غرائزه النهمة
الا أنه شقى تعيس . . يشعر بالغربة والقلق والوحشة لأنه بعيد
عن الله ، والبعيد عن الله بعيد عن الحق والصواب .

ومهما تمنى من الأمانى أن يحظى مثلما يحظى المؤمن، بسويغات
من الأمن النفسى ، فانه لن يتحقق له ذلك ، اذ المشغول بحظوظ
الدنيا وشهواتها ومحجوب عن الحق تعالى .

واذا أراد أن يصل الى الأمن ، ويتحقق له الاستقرار والراحة
النفسية، فعليه أولا وقبل كل شىء أن يقتنع ويعتقد بأن لا اله الا
الله . . وبمدها يحظى - منة من الله وفضلا . بالطمأنينة التى
يفتقر اليها وعليه أن يتأكد من : (أن الدين عند الله الاسلام) .

٢ - إقامة الصلاة

يؤكد القرآن الكريم على المحافظة على الصلاة ، وتأديتها فى
مواعيدها المقررة ، ويبين للمسلم الثمار التى يحظى بها عند
مداومته عليها ، وعدم التكاثر فى تأديتها ، ويتوعد الله
المقصرين والمهملين والساہين عنها . . وذلك فى آيات بينات
معجزات منها قوله تعالى : -

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة »

(ابراهيم : ٢١)

« وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقامة الصلاة »
(الانبياء : ٧٣)

« أتلى ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة »
(العنكبوت : ٤٥)

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »
(العنكبوت : ٤٥)

« قد أقبلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون »
(المؤمنون : ٢)

« والذين هم على صلاتهم يحافظون »
(المعارج : ٣٤)

« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون »
(الماعون : ٥)

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة »
(البقرة : ١٥٣)

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »
(النساء : ١٠٣)

فالصلاة تعاون على الاستقامة ، تريح النفس من مغالبية الشهوات ، وتنزل الى القلب الأمن والسكينة ، وتطهر الانسان وتزكية بصالحات الأعمال ، ثم انها تعطى للانسان الأمل فى الحياة الدنيا والآخرة ، بما وعد الله به المؤمنين من الفلاح

والصلاح .. والصلاة تعلم الانسان كظم الغيظ ، وتربى في نفسه الصبر على الشدائد ، وتعوده على التسامع والتواضع ، وتدفعه الى الايثار والعفو والاحسان ، وتغرس في وجدانه الصدق والاخوة والمساواة والاخلاص

ان الشاب الذى يحافظ على صلاته ، انما يحافظ على نفسه ضد الفحشاء والمنكر والبغى ، ويربها في طريق الاستقامة والحق ، ويبعدها عن الريب والشك والغفلة ، ويزكيها بالخير ويجنبها الشر وبذلك ينصلح أمره في الدنيا والآخرة

التعود على الصلاة :

يجد بعض المبتدئين - صعوبة كبيرة - فى تأدية الصلاة ، وفى مغالبة أنفسهم التى تهوى الراحة والتبطل، وتجد فى أداء التكاليف المفروضة عبئا ثقيلا ، وأحيانا يترك بعضها كسلا أو بدعوى الانشغال بأمور المعيشة والحياة والتمارض ... وربما يؤديها وهو غافل عنها ، فاذا استيقظ واعظ من داخله، سعى اليها نادما ليهوى كل كل الفرائض المتروكة قضاء ، ويتكرر هذا الموقف منه ... وأحيانا يمر يوما أو يومين دون أن يركع ركعة واحدة ، وانما يصلى عندما يجد نفسه فى جماعة حيث يخاف أن يتهم بترك الصلاة

ومن الطرائف أن رجلا جاء الى رسول الله يشكو عدم مقدرته على الصلاة بدعوى انه يسعى كل يوم الى البادية للتعطيب ، وأن عمله يستغرق اليوم كله ، الأمر الذى لا يمكنه للحضور لصلاة الجماعة فى المسجد .. اذ يجد مشقة فى الحضور اليه

يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم : كم تكسب من عملك؟
 فيبين ذلك للرسول - فيقول له الرسول صلى الله عليه وسلم :
 يصرف لك كل يوم ما تكسبه لأربعين يوما .. على أن تصلى صلاة
 الجماعة

وينطلق الرجل ليأتى المسجد مؤديا الصلوات بتمامها ..
 حتى إذا ما أنتهى الأجل .. توقف الرسول صلى الله عليه وسلم عن
 اعانته ... الا أن الرجل يستمر فى الحضور فيسأله الرسول
 صلى الله عليه وسلم عن سبب هذا التغير رغم انقطاع اعانته ..
 فيقول الرجل صادقا : « لقد دخل الايمان قلبي يا رسول الله ..
 فما عدت أطيق أن أفارق صلاة الجماعة .. لقد تعودت عليها ،
 وأصبحت فى كيانى ونفسى وقلبى جميعا »

وهكذا فان العادات الطيبة والمحمودة تدفع بعيدا وتطرده
 العادات السيئة والمذمومة ...

٣ - الأمر بالمعروف

لقد أفسدت النظريات الحديثة والمذاهب الغربية المعاصرة
 اخلاقيات الشباب بما تدعو اليه من الفسوق، وبما تنادى به من
 العصيان وما تأمر به الناس من الانفكاك عن عرى الدين والتحلل
 من الاخلاق ... وينشر السوق الاوروبية كل يوم دعاوى جديدة
 ومزاعم مغرضة تجعل من كل خير شرا ، ومن كل ما شر خيرا ،
 وتستهدف من ذلك خلق الشاب المستهتر اللامبالى الملحد الكافر
 المتمرد على كل فضيلة ..

— ٩٩ —

وتتصدر هذه المذاهب الباطلة، والنظريات المنحرفة، شعارات كاذبة تستهوى ضعاف الايمان ، ومن فى قلوبهم مرض ، فيروجون لافكارها الفاسدة وينشرون كلماتها وتعبيراتها السامة، لتنتفث فى الناس فسادا وامراضا ثقالا ..

تزعم مدرسة التحليل النفسى التى يقود مزاعهما اليهودى سيجموند فرويد .. تزعم أن اصحاب مكارم الأخلاق مرضى نفسيون .. وتدعو الى العدوان والاعتداء عندما تحفز الناس الى الكراهية والحقد فتقول فى مزاعهما المفتراه على الحقيقة :

« اذا لم تعتد يعتدى عليك »

« واذا لم تتذنب أكلت الذناب »

لقد هبط اصحاب مدرسة التحليل النفسى بالانسان فجعلوه حيوانا أعجميا ، تتحكم فيه الغرائز الحيوانية ويحكمه قانون الغاب .. وبدل ان يرفعوه كما رفعه الله وخلقه فى أحسن تقويم، هبطوا به ووضعوه فى أسفل سافلين ...

فكيف يمكن أن يربى تربية سوية ويخلق منه انسانا صالحا فى نفسه ولمجتمعة ... اذا كانت قواعد التربية تقوم على مصالحة العدوان .. ، وموافقة الاهواء ... ، واشباع الغرائز المحمومة ... والدوافع الشهوية الشيطانية ...

كيف يتسنى للمربين أن يخرجوا الى الحياة شبابا صالحا .. ما دامت مناهج التربية تعرض الفتيان والفتيات على التمرد والعصيان ، وتأمروهم بالتعري والتبرج واللاأخلاق .. وتعاونهم

على التخلي عن كل فضيلة واتيان كل فاحشة ورذيلة ...

كيف يتكون مجتمعا نظيفا متألفا متعاوننا .. ما دام الشرك بالله شعارا لافراده ، والانانية والاثرة غايتهم القريبة والبعيدة ، والاغترار والتكبر والتجبر سلوكهم فى الحياة والمجتمع ..
أناس ظلموا انفسهم ، وحضارة تبتغى غير دين الله دينا ، ومزاعم فاسدة تنهى عن المعروف وتأمّر بالمنكر

أين ذلك كله من تربية القرآن الكريم، الذى يحض الناس كل الناس كبيرهم وصغيرهم على المؤاخاة والمساواة والمحبة والتسامح والصفح الجميل :

« وقولوا للناس حسنا » (البقرة : ٨٣)

« ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (البقرة : ١٩٠)

« فاصفح الصفح الجميل » (العنكبوت : ٨٥)

ان المعروف قولا وفعلا هو الطريق الحق لتربية النفس ، كما انه الوسيلة المثلى للتعامل بين الناس ، لانه يعطى الثمار الطيبة للتآخي والتعارف والتعاون بين أفراد الاسرة والمجتمع والأمة ...
فاذا ذهب المعروف بينهم ، ذهبت معه القيم والاخلاق والفضائل جميعا ...

« قول معروف ومغفرة خير من صدقه يتبعها أذى »
(البقرة : ٢٦٣)

- ١٠١ -

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »
(آل عمران : ١١٠)

انها التربية المثلى تربية القرآن الكريم . . . ذلك لأنها مواكبة لطبيعة الانسان . . . لأن سبحانه وتعالى واطع اصولها وبنودها . . . وكلها قائمة على المعروف والنهي عن المنكر . . . في جميع العلاقات بين الأب وابنه وبين الابن وابيه وبين الزوج وزوجه، وبين الارحام وفي الاسرة وفي المجتمع وفي كل منحنى من مناحى الحياة تجد القرآن الكريم يربطها رباطا محكما بالمعروف :

« الأمرون بالمعروف وانهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين »
(التوبة : ١٢٢)

« وعاشروهن بالمعروف » (النساء : ١٩)

« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف »
(البقرة : ٢٣٣)

ان التربية الاسلامية تشجب كل فساد أو افساد في الجسم والنفس والمجتمع ، وتربط العلاقات الاسرية والاجتماعية بوشائج من الخير والمعروف ، فتقوى بذلك الاخوة في الله ، ويتزرع الشباب في ظل مجتمع آمن ، واسرة متماسكة متألفة متحابّة في الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

٤ - النهى عن المنكر

من فضائل التشريع الاسلامى ، انه يصلح فى التطبيق فى كل زمان ومكان ، فقواعده مرنة بحيث انها تستطيع أن تشمل كل شىء فى هذه الدنيا ، فى مشرقها ومغربها ، وان الأحكام الالهية ثابتة وصالحة فى السلوك العملى ، دون أن يمسها أى تغير أو تبديل مهما طال الزمن ، وهذا بخلاف التشريعات الوضعية والقوانين البشرية ، التى تتغير بتغير المجتمعات والبيئات ، فما كان بالأمس محظورا ، أصبح اليوم مباحا ، وما كان حلالا يصبح اليوم حراما ، ذلك لأن الانسان عاجز فى البداية والنهاية أن يضع الأوامر والنواهى التى يمكن ان يقتدى بها الناس والعباد ، اذ تحرك العقل البشرى العاجز مؤثرات خارجية ، تلعب دورا فى تغيير سياسة النفس ، ومن ثم سياسة المجتمع ، وهذا ما يلاحظ فى تقنين القواعد القانونية التى تنهى عن اشياء وتبيح اشياء ، فما زالت الانسانية ترضخ تحت نزوات البشر ، واشباكات الحس ومطالب النفس التى لا تتوقف عند حد ، ومهما ثبت للناس أن بعض الافعال تعد من المنكرات ، مثل احتساء الخمر أو الزنا أو اللواط ، أو غير ذلك من المعاملات الربوية والعلاقات الغير مشروعة *

نقول أنه مهما ثبت للناس بالتجربة ان ذلك افساد وفساد وضلال واضلال ، فان الأهواء البشرية والنزعات الانسانية تغلب جانب الاباحة على جانب التحريم ، ولا يستطيع أن تسن

قواعد أو قوانين لها صفة الاحترام لتمنع هذا الفساد الذى ينتشر
يوما بعد يوم .

فالاسراف أصبح طابعا للمجتمعات التى تسمى نفسها
متقدمة ، والاسراف فى الملبس والمأكل والمشرب أمسى غايصة
العضارة المادية الحديثة ، والغلو فى قدرات العقل البشرى
أصبحت انكارا للالهية ، وتجبرا وتكبيرا فى الارض ، فساد
المنكر ، واستبيحت الحرمات نتيجة لغفلة الانسان عن فطرته
السليمة ، وابتعاده عن حظيرة الايمان .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »
(المائدة : ٧٩)

« انكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديتكم
المنكر » (العنكبوت : ٢٢)

لذلك فانه لا يمكن والحال هذه ، أن يتراجع أصحاب
الشهوات والأهواء ، الا اذا رجعوا الى فاطرهم وموجدهم الذى
شرع لهم من الدين ما هو خير لهم فى الدنيا وفى الآخرة ، وحدد
لهم أفعال الخير وأعمال البر والأمر بالمعروف ، والنهى يكفل لهم
الأمن والسكينة فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أنه تعالى بصرهم بما
يضرهم ولا ينفعهم ، وهو اتيان المنكر وفعل الفواحش ما ظهر
منها وما بطن ، وبين تعالى أن الكافرين والجاحدين والفساقين
الذين ابتعدوا عن طريق الله ، وأشركوا ، لا يمكن أن يتعرفوا

— ١٠٤ —

على طريق المعروف ، أو يسلكوا طريق الجلال ، وهذا مؤيد
فى قول عز من قائل :

« تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر »

(الحج : ٧٢)

ومن هذا يتضح ، أنه لا حل فى مجال تربية الانسان الا
الرجوع الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما تحدد فى
شريعة الله وسنته المباركة ، فالحق أحق ان يتبع .

ان فى التربية الاسلامية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
لحقيق أن يجعل الانسان متوازنا مستقيما ، يعرف حقوقه
وواجباته نحو نفسه ومجتمعه وربه جميعا .

الفصل الثاني

١ - الثقة بالله

يبتلى المؤمن أحيانا ، ويعظم امتحانه بشتى أنواع العسر والشدة ونقص المال وفقدان الصحة والأولاد وتضييق الدنيا من حوله ، فيفقد الصديق الوفي والصاحب الأمين ويحيا حياته فى عزلة نفسية ، وان اجتمع مع الخلق وجلس بينهم

والمؤمن فى هذه التجربة لا تفتر همته ، ولا يتقلص عزمه ، بل على العكس تزيده المحن ايمانا ، والشدة ثباتا ، والعسر زهدا وورعا ، ولا يلجأ فى تلك الظروف القاسية يشكو للناس مصائبه ، ولا يتدلل لأحد من الخلق

وهكذا يمضى فى هذه التجربة ثابت الجأش ، راضى النفس ، مرتاح الضمير موقنا أن الله تعالى بجانبه ، وأنه عندما ابتلاه تلتطف به ، وأن ما يحدث له الآن هو أيسر ما يمكن أن يحدث ، وأنه لو اختار غير ذلك لكان قانطا من رحمة الله ، يتوسا من عطفه ومنته ، لذلك فهو أبدا يذكر قول عز من قائل :

« عسى أن تکرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم »
(البقرة : ٢١٦)

وتضييق الحلقة على المؤمن،حتى يحرم غيره أنه هالك لا محالة، وبدون مقدمات نعمة ، والعسر يسرا ، والضيق فرجا ..

وحياة المؤمن غير حياة غير المؤمن ، ان لها لذاتها وحلاوتها سواء كان ذلك عند الكرب الشديد أو النعم اللطيفة ... فهو يتقلب بين خوف ورجاء ، بين توكل وعمل ، بين الرضا ومحاسبة النفس ... انه دائما واع ... يعرف هوى النفس فيفلظ لها القول ، ويطالبها بالطاعة لله ... انه دائما فى توبة وندم على ما قد يظن أنه يخالف كمال العبودية لله ...

ان ثقة المؤمن بالله عظيمة ، واخلاصه تام ، وعلمه مقرون بالعمل ... لا يعرف قلبه الا الطمأنينة ولا يستشعر الا الأمن والسكينة تصديقا لقوله تعالى :

« هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا »
(الفتح : ٤)

وأن بين المؤمن وبين الله رباط مكين ، وعروة وثقى لاحد لها ، وحب لا نهاية له ورضا لا رضا بعده :

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١٩٩)

ومن كمال الثقة فى الله ، الاحسان ، لذلك يسعى المؤمن جاهدا الى خدمة الضعيف والمظلوم ، وزيارة المريض ، ومواساة المكلول ، ومساعدة الفقير ، والعمل على اصلاح الفساد ، ومصالحة الخصوم ، ودفع الضر عن المحتاج ، وسداد الدين عن المعسرين ، ومساندة اليتامى والانفاق على الأراامل والمعوذين ... وكل ذلك يفعله بلا تكلف ورياء ... اذ هو طبع قد رسخ فى نفسه ، وأخلاق

نقية طاهرة تحلى بها ، وصارت جزءاً لا يتجزأ من شخصيته
الكريمة ..

ان الثقة فى الله تجعل من المحال ممكناً ، ومن الصعب سهلاً ،
ومن العوائق طريقاً للسعى والخير والجهاد فى سبيل الله ..
وأعظم شخصية وجدت على هذه الارض ، شخصية الرسول
محمد صلى الله عليه وسلم وهى القدوة الحسنة لنا فى طريق الله ،
وقد امتازت بالثقة التى ليس بعدها فى الله تعالى ثقة ، وها هو
صاحبه فى ابتلاء عظيم ، وقد اجتمع الكفار حول الكهف الذى
ياويان اليه ، وكشروا عن أنيابهم يريدون بالرسول صلى الله
عليه وسلم وصاحبه رضى الله عنه شراً ، ولا يبعد عن موقفهم
أمتار ، ويصبر الرسول لأمر الله ، ويسكن قلبه ، وتهداً نفسه ،
ولا يزداد الا ثباتاً وأمناً ، وفى هذه اللحظات الرهيبة يعترى قلب
الصديق رضى الله عنه الخوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وهنا تبدو الثقة العظيمة فى الله ، ويظهر ذلك فى كلمات طيبات
تدخل على قلب الصديق فتملأه سلاماً وسكينة ، يقول له الرسول
صلى الله عليه وسلم فى قول عز من قائل :

« لا تعزن ان الله معنا » (التوبة : ٤٠)

وتتحقق هذه الثقة ، ويقف تعالى بجانب رسوله ، فيدفع عنه
كيد المشركين ، ويعمى أبصارهم ، ويشككهم فى أنفسهم ، ويمحو
عقولهم ، وينصر رسوله على الكفار نصراً مؤزراً ...
ان الثقة بالله تسير جنباً الى جنب مع الصبر ، فالواثقون
بالله صابرون دائماً ، فاذا نفذ صبرهم ضعف ثقتهم ، وبالتالي
ضعف ايمانهم ...

والواثقون بالله لا يخافون شيئاً ، ولا يخشون شيئاً ، فهم
أبداً مع الله يجاهدون فى سبيله ، ويخوضون أبداً عن رؤية لا اله
الا الله ، وبذلك يكونون هم الفئة الناجية من النار ...

٢ - الصبر

لا يتم الصبر فى النظرة الاسلامية الا بمعرفة سابقة ، فالصبر هو نتاج العلم والمعرفة ، وهو غاية من غايات أهل الحق والصدق (١) ، وتتركز فى الصبر الآداب الرفيعة والاخلاق القويمة ، والصبر صفة من صفات الانسان المؤمن ، وسمة من سمات المبشرين، لذلك فان الصابر يصبر عند الابتلاء، ويشكر على حال النعمة ، لكن البلاء فى الصبر أشق على النفس ، لانه انتظار للفرج ، ولن يتأتى هذا الفرج الا من الله تعالى .

فالصابر فى موقف واع ، وهو طريق اختيارى يفضل فيه الصابر تحمل المكابدة على مقارفة الهوى .

والتربية الاسلامية تأمر بالصبر لانه من فضائل العقل واذا قورن بالهوى ظهر لنا خساسة الهوى والشهوات التى تنهى الانسان عن الصبر ، والصبر هو عدم الاعتراض على ضياع ما يتلذذ منه الانسان، وما يحبه ويشتهي، كما أنه صبر على ما يعانى به الانسان من آلام ، وتحمل للمحن والفاجعات ، فضلا عن الصبر على المكروه ، من كظم للغیظ الى العفو والاحسان ، فتعويد الانسان على الصبر انما هو فى نفس الوقت تعويد على طاعة الله ، لتكون ارادة الطالب متوجهة بالكلية اليه تعالى ، وبذلك يتجنب المعاصى فى سبيل تحقيق غاية نبيلة تصديقا لقوله تعالى :

« ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (النحل : ١٢٦)

(١) راجع للمزيد «نحو علم نفس اسلامى» للمؤلف

والصبر اعتدال واستقامة وعزيمة وقصد ، فهو من سمات
الانسان المؤمن النقى التقى .

«ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور»
(الشورى : ٤٣)

والصبر غير كبت الدوافع والرغبات ، فالصابر آمن لأنه
ليس خائفا على ضياع شهوة، أو فقد لذة ، وانما هو يفضل الصبر
وهو واع لما يفعل ، عارف بثمرات صبره :

«انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب»
(ص : ٤٤)

ويختلف الصبر عن الكبت فى أن الذى يكبت رغباته ، يصبح
مشدودا خائفا ، مترددا قلقا مهموما مغموما متشائما مرتابا .
إذا تعود الانسان على الصبر ، فانه يتقوى بالله ومن الله
ولله . فهو موقف علم، فالجاهل لا يتحمل شيئا انما يختار الاسهل
ويهرب الى الراحة والخمول، وهو امتحان فيه ينجح الانسان أو
يفشل :

«وانبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»
(محمد : ٣١)

ومن ثمرات الصبر ، أن الله سبحانه وتعالى يرزق العبد

الصابر نعماً عديدة ، ويبشره بمبشرات تجعله راضياً أبداً ، شاكراً
على منن الله وعطاياه ، قبعد الشدة يسراً ، وبعد الفسر والمجاهدة
فرجاً ورحمة ، خاصة اذ رضى العبد بقضاء الله •

وبذلك يكون الصبر من الوسائل التربوية الناجحة ، التي
تعود الانسان على التخلية من النقائص والعيوب ، وتحلية نفسه
بالفضائل واتباع طريق الاستقامة والعدل ، فهو تجنب للعدوان ،
ومخالفة للنزعات الشهوية والأهواء ، وممارسة للصفح الجميل
والعفو والاحسان ، وبذلك تتحقق في المجال التربوي الصحة
النفسية ، لكل من جعل الصبر مرشداً له وهادياً •

٣ - التواضع

التواضع سمة من سمات المؤمن ، والله سبحانه وتعالى قد
بين في كتابه العزيز ، أنه ييبض المتجبرين والمتكبرين ، لأنهم
يدبرون مع الله ، فالتكبر رغم ضعفه وقلة حيلته ، الا أنه يغتر
بنفسه ويتكبر على غيره ويتجبر في الارض ، ويعتقد افكا وظلماً
وعدواناً ، انه يملك الوسائل والادوات لتدبير أمره دون معاونة
من أحد ، ودون امداد الهى وتفضل ربانى ، الأمر الذى يجعله
يفسد في الأرض بعد اصلاحها ، ويشرك بالله ويدعى الربوبية
وهو جاهل بنفسه وقلبه وربّه جميعاً ، فالتواضع هو سمة من
سمات معرفة النفس وحدودها وامكانياتها ، فلا يظلم المتواضع

أحدا ولا يفترى ويزعم لنفسه ملكا وسلطانا وجاها انما هو يعلم ان سعيه واجتهاده بمشيئة الله وتوفيقه، وهو يستسلم لحسن تدبير الله واختياره ، ويجد لذة فى تفويض أمره الى ربه ، وعدم التظاهر بالعلم والمعرفة ، وانما يستمد علمه ومعرفته وعونه فى علمه وعمله من الله .

لذلك فهو يتواضع فى مشيه وكلامه وعلمه ، وهذا علامة الذوق السليم وطهارة القلب ونقاء السريرة ، بل هو علامة على صحة الايمان وحلاوة العمل فى طريق الله، وفى الأثر : «أن الله سبحانه وتعالى يحب المتقين ، وحبه للشباب التقى أشد ، ويحب الاسخياء وحبه للفقير السخى أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد » .

ويروى عن الرسول صلى عليه وسلم قوله :

إذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين عليهم .

ويحكى عن عمر بن عبد العزيز أنه قد أتاه ضيف فأنطفا المصباح ، فقال الضيف : يا أمير المؤمنين أقوم فأصلحه . فقال عمر ، ليس من المروعة أن يستعمل المضيف ضيفه ، فقال يا أمير المؤمنين: أأدعو الغلام ؟ فقال عمر : لا ، انه نائم ، وقام عمر فملأ المصباح ، فقال الضيف : قمت بنفسك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ذهبت لأصلحه وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، وخير الناس عند الله من كان متواضعا

وقد رأت امرأة الرسول « صلى الله عليه وسلم » وهو
يجلس كما يجلس العبد ، فقالت : أنظروا اليه ، فقال : الرسول
« صلى الله عليه وسلم » : (عن أنس) انما أنا عبد أجلس كما يجلس
العبد وأكل كما يأكل العبد

وروى عن عمر بن الخطاب أنه لما سافر الى الشام ، تناوب
هو وغلामه ركوب الناقة ، فلما وصل الى مشارف الشام كان على
عمر رضى الله عنه أن ينزل ويركب الغلام ، فدخل الشام وهو
أمير المؤمنين يقود الناقة وعليها الغلام ، وهو يحمل نعله تحت
ابطله اليسرى ، فقال له ابو عبيدة وكان أميرا على الشام : ان عظماء
الشام يخرجون اليك فلا يجدر أن يروك على هذا الحال فقال
عمر :

(انما اعزنا الله بالاسلام فلا ابالي) *

والتواضع سمة من سمات الأنبياء والأولياء الكمل ، وهم
القدوة التى يجب أن تقتدى بها فى العملية التربوية لدى الصبى
والشباب والكهل جميعا .

ويقول الشيخ أبو طالب المكى (١) « وفى الخبر أن أفضل
العبادة التواضع » ، والتواضع يظهر بمعان خمس فى القول والفعل
والزى والأثاث والمنزل *

ويحصل المؤمن على بعض هذه المعانى ، فاذا كملت فى عبد
فهو المؤمن المتواضع حقا ، وأما ضد هذه المعانى الخمس فهو
الكبر . *

وبيتلى المؤمن ببعض من الكبر ويعافى من البعض الآخر . . . ،
فاذا اكتملت هذه المعانى الخمس فى انسان فهو المتكبر *

اليقين

حاول الانسان من قديم الزمان الاجابة على هذا التساؤل :
لماذا خلق الانسان ؟ وأضاع الفكر الانساني قرونا عديدة فى
جدل وسفسطة ولجاج فى ابداء رأيه فيما يظن أنه سبب خلق
الانسان *

الا أنه لم يستطع الفلاسفة والمفكرون أن يصلوا الى رأى أو
مذهب أو نظرية مقنعة عن طريق استخدام النظر أو التجربة لحل
هذه المشكلة التى تبدو أنها فوق حدود العقل الانسانى *

لقد اخترع هؤلاء وهؤلاء من عند أنفسهم أسبابا ومسببات
وعلا ومعلومات ظنوا أنها الحلول النهائية لتساؤلات الانسان
ثم فرضوها على شعوبهم أو شيعتهم أو أنصارهم *

ومن ذلك ما ادعاه بعض أصحاب الفلسفات الشرقية
القديمة من أن الاله الذى زعموا أنه جسم ضخم .. أراد
الانقسام أو التشتت فقطع جسمه أربا أربا وتشرها فى الكون
فتكونت من تلك الأجزاء السموات والشموس والكواكب
والمخلوقات التى منها الانسان .. وان هذا الاله يود أن يعود الى
وحدته والى تجاذب اجزائه بدلا من تنافرها .. ولكى يتحقق له
ذلك فان على الانسان أن يسعى الى الخيرات وان يبتعد عن
الشروع ، وان يخلد الى المحبة ، وان يتجنب العداوة والبغضاء ،
وذلك من اجل عودة الاله الى وحدته وتماسك اجزائه وترايط
أشلائه *

فرسالة الانسان فى زعمهم العمل من أجل عودة الاله الى
حالته الأولى ولن يتسنى لهم ذلك الا بالمحبة وفعل الخيرات *

ولا يخفى على عاقل تهافت هذه الأسطورة ، وعدم قدرتها
أن تحتل أى نقد نظرا لتفاهتها وسذاجة مزاعمها .. فكيف
تجعل الاله جسما كالأجسام ..

ولم يكن الفكر الغربى القديم أوفى حظا فى النضوج العقلى
عندما تعرض للإجابة عن أسباب خلق الانسان .. فقد زعم
الطبيعيون الأوائل أن العالم بما فيه من مخلوقات وجد هكذا ..
واختلفوا فيما بينهم فى أصله الاول فمن قائل أن أصله الاول
عنصر الماء ومن قائل أن أصله عنصر التراب ومن قال الهواء
ومن قال النار ومن قال العناصر الأربعة مجتمعة .

ولقد جعل اليونانيون القدماء لكل شىء الها .. فهناك اله
للخير واله للشر واله للنار واله للشمس واله للحب واله للحرب
حتى انهم اتخذوا الها يقدمون له القرابين عندما يريدون أن
تتحقق مصالحهم ويتوسلون بالكهنة الذين فرضوا انفسهم على
الناس فرضا على اعتبار انهم الوسائط للالهة المزعومة ..
والمعجب أن الكهنة أدخلوا فى روع الناس أن الالهة تقبل
الرشوة .

أما سبب الخلق فى زعم هؤلاء أن الالهة قام بينها تحاسد
وتباغض واحقاد . الأمر الذى انتهى الى حروب طويلة بينهم ..
ولكل اله حزبه ورجاله وأعوانه من المردة والشياطين .. وان
على الانسان استرضاء الآلهة جميعا ويتوهم انه بدون ذلك ستحل
به نقمتهم فيغرق عليهم الهبات والقرابين حتى تكتب له النجاة
والسعادة التى يعده الكهنة بها .

ولاشك أن هذه الخرافات تثير فى النفس الاشمئزاز وتنفر العقل السليم من تفاهة هذا التفكير الساذج *

وقد جاءت النصرانية بفكرة غريبة هى مزيج من تلكم الخرافات والأساطير ومن بعض معتقدات الديانة المسيحية فخلطت بين الحق والباطل ، ومزجت بين الفلسفات الالحادية وبين رسالة عيسى عليه السلام ، فزعم النصارى ان الانسان من تاريخ ميلاده الى وفاته مقرونا بالخطيئة وانه انما خلق لكى يكفر عن خطيئة آدم الأولى * * ومن ثم فعليه ان يكفر عن خطيئته الثانية وهى قتل الله فى الأرض * * وزعموا ان الله المقصود هو عيسى بن مريم *

وعبث النصارى بالديانة المسيحية فاخرجوها عن أصولها وحرفوا نصوصها فأمست خليطا من الاضغاث والخرافات الغامضة والارهاصات غير المقبولة عقلا ومنطقا ، فادعوا أن الواحد (ويقصدون به الله) فى ثلاثة والثلاثة فى واحد والثلاثة هم فى زعمهم الله والابن والروح القدس * * ولكى يجعلوا مما هو غير معقول مقبولا لعامة الناس دون مناقشة أو اعتراض عقدوا قضية الخلق بدرجة تحتاج معها لفهمها الى كثرة درس وتمحيص *

فقالوا ان الواحد وهو الله أفاض العقل وهو الكلمة والكلمة هنا مقصود بها عيسى بن مريم ثم أن العقل أو الكلمة فاضت النفس الكلية ، والنفس الكلية هى نفس العالم والمخلوقات جميعا والتى يسمونها الروح القدس *

اذن فالنصارى يزعمون ان الله فى ثلاثة والثلاثة فى واحد

أى أن الله فى أقانيم ثلاثة والأقانيم مجموعها اله واحد ، ثم أنهم يزعمون بعد ذلك أن الله أو ابن الله أو الكلمة .. أو العقل الكلى .. جاء الى الأرض فى صورة انسان وهو المسيح الا أنه قتل أى قتل الناس الله .. فهل هذا الباطل يمكن أن يقبله صاحب فطرة سليمة •

لكن هناك سؤال لا نجد له جوابا عند النصارى وهو من كان يحكم هذا العالم عندما قتل الههم المزعوم الذى مكثت جثته كما يفترضون بالأرض ثلاثة أيام .. فهل كان العالم يسير فى فوضى اثناء قتل هذا الاله خلال الأيام الثلاثة .. أم هناك اله عالم قادر حكيم هو فاطر السموات والأرض ليس بعيسى ولا بالعقل الكلى ولا بالابن الذى يزعمونه •

لقد انقض العلمانيون والعقليون والتجريبيون والحسيون والماديون والطبيعيون بل كل المفكرون الغربيون المحدثون على النصارى واتهموا أصحابها بالسذاجة والتفاهة والدوجماتيقية (الايمان الساذج) ، واخترعوا لأنفسهم مذاهب ودعاوى جديدة .. الا أن جميعها تتفق على الالحاد وتتجمع حول شعار زائف يقول « لا اله والكون مادة » •

وقد عمل اليهود من قرون عديدة على بث الفكر الالهادى فى الغرب والشرق واظهار المسيحية بزيها الخرافى وبمظهرها الضعيف المتهاوى الذى لا يقوى على الرد على جموح العقل ومنطق العلم الحديث ، ولذلك دفعوا بها الى شط الهاوية واسلمت الروح فى أوروبا والأمريكيتين وأصبحت النصرانية الآن شعارا بلا معنى

واسما بلا مضمون •• وطفت المذاهب الالحادية على عقول الناس والعباد وكلها مع اختلاف أفكارها تنتهى الى القول بأن الطبيعة خلقت نفسها ولا أثر لوجود الخالق •• اذن فما رسالة الانسان فى هذه الدنيا •• ولماذا خلق ! يرد الوجوديون المحدثون على هذا التساؤل بأن الانسان خلق هكذا ولم يستشر فى أمر خلقه •• رغم أنه الذى يعيش ويموت فلا يعيش ولا يموت أحدا بديلا عنه •• لذلك يجب أن يختار حياته دون أن يفرض عليه دين أو خلق أو أى قيم من أعلى ويقول كبيرهم « يجب أن يعيش الانسان حرا طليقا لأنه عندما يموت فانه ينتهى كل شيء •• فلا بعث ولا آخرة ولا حياة أخرى » •

وواضح من ذلك التسلسل فى الفكر الانسانى ان النتيجة التى وصلت اليها الوجودية الحديثة والتى يعبر عنها شباب أوروبا الآن تعبيرا نظريا وعمليا هى الالحاد • فنجد الفن والأدب والفكر الانسانى يعالج قضية الانسان من هذه الزاوية الوجودية ويختار الالحاد اعتقادا وسلوكا واخلاقا •• ويجاهر هؤلاء بالقول باللامبالاة والارادية والتحدى لكل المؤمنين والسخرية من الموحدين بالله •

وهكذا فسدت العقول وانحرفت النفوس البشرية عن الحق لتركب سلطان الهوى وتمخر به عباب البحر الذى لا شاطئ له •• وهاهى أوروبا تخوض تجربة الالحاد وقد غشاها عصر الظلمة الجديد وجاهلية القرن العشرين •• فقدت أعز ما يمكن أن يملك الانسان وهو الايمان بالله الواحد القهار ••

فضاع منها شرع الأمن والأمان .. وما يزال مركب الحضارة
المادية يهتز من تحتها والموج عال حتى يأتي الغد القريب
بنبأ ابتلاع البحر العاتى لمركبها التى تتباهى به ..
وهذا هو ما حدث للأمم السابقة والتى كان لها فى قديم
الزمان حضارات وشأن عظيم .. فقد اغتر أهلها وعصوا الله
وفسقوا فى الأرض وظلموا أنفسهم فاستحقوا الهلاك المبين .

ان الخطأ العظيم الذى يرتكبه أصحاب الهوى ومدعى
العلم والتعقل .. انهم يدعون جانباً رسالات الله ومنهاجه
ويزعمون أنه باستطاعتهم أن يعرفوا أسباب السموات والأرض وأن
يحلوا قضية الخلق ومشكلة الحياة والموت .. وأن يصلوا
الى شاطئ السعادة بعيداً عن حظيرة الايمان وهدى الدين .

ان انسان هذا العصر لفى وهم كبير وغفلة عن الحق وغرور
عظيم .. ذلك أن الله تعالى بين للانسان كل شىء وأوضح له
رسالته على الأرض تفصيلاً واجملاً وأرسل له الرسل مبشرين
ومنذرين .. فلماذا يطغى الانسان ويظلم نفسه ويجتر الأساطير
والخرافات والأفكار المنحرفة اجتراراً .. فما قاله الملحدون من
آلاف السنين يردده بلا وعى ولا دليل أو سند معقول أصحاب
النعرات التى تزعم أنها جديدة ومستحدثة .. فلم تخلق معدوماً
ولم تستحدث جديداً ولم تخترع شيئاً :

« ان الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا

له »

لقد هوى الانسان فى هذا العصر الى وادى الضياع
وأصبح هلاكه محققا لا محالة * * بافتراءه على الله كذبا
وبهتاناً * * وعبادته لغرور عقله وشهوات نفسه فافسد فى
الأرض بعد اصلاحها وهو يظنها البناء والعمران *

لم يخلق الله تعالى الانسان ليفسد فى الأرض فيزعم انه
خالق نفسه وأن الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ، ولم يخلق الله
الانسان ليتقول على الله بغير علم ولا هدى فينسب لميسى عليه
السلام البتوة لله ويكذب على الله تعالى ويفتن الناس زاعما أن
الله واحد فى ثلاثة وثلاثة فى واحد * * ولم يخلق الله تعالى
الانسان ليعبد نفسه الظالة الظلومة ويخترع المذاهب الضلالة
والنظريات المنحرفة والدعاوى الكاذبة ليجعلها عقيدته ومنهجه
فى الحياة *

لم يخلق الله الانسان لذلك * * وانما خلقه ليستخلفه فى
الأرض * * وليأتمر بأمره وينتهى عما نهى عنه *

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة »

(البقرة ٣٠) *

خلق الله الانسان لرسالة عليه أن يؤديها وعمل عظيم مكلف
به من قبله تعالى ، وقد اعترض ابليس اللعين وعصى أمر الله
واستكبر :

« قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى

من نار وخلقته من طين»

(الأعراف : ١٢)

ولقد استحق ابليس غضب الله عليه ونقمته الى يوم الدين
حيث يشهد عذابه الأليم :

« قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم
الدين »

(العنبر : ٣٤)

لم يأت خلق الانسان اذن اعتباطا أو صدفة كما يزعم
الملحدون أصحاب النظريات الطبيعية ولم يخلق الانسان للعذاب
فى الأرض والتكفير عن خطيئة لم يرتكبها ، انما خلق لغاية
عظيمة وهدف نبيل .

« وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون »
(الجاثية : ٤)

ان هذا الخلق لم يكن لعبا أو لهوا ، انما الله الخلاق العظيم
خلق الانسان فى أحسن صورة وأكمل تقويم ، وبث دوابا
مختلفة الصور والمنافع . ليتدبر ويتفكر ويوقن الانسان ان
هناك الها واحدا بديع الصنع قد خلقه ، ويؤمن بفطرته السليمة
انه تعالى يريد ان يتوجه اليه وان يطيع أمره ويخلص فى علمه
وعمله . وان يعلم انه سيجازيه .

- ١٢١ -

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم اليينا لا ترجعون »
(المؤمنون : ١١٥)

واذا ظن الانسان ان الله قد خلقه بغير حكمة ، فهو واهم جاهل غافل يرى النور فيقبع في الظلمة ، ويشهد الحق فيبغى الباطل ظلما لنفسه وعدوانا . ان سبب خلقه واضح تماما وتكوينه الذى خلق منه لا يحتاج لكثرة سفسطة ولا لطول لجاج وحجاج ، فقد بين تعالى ذلك فى آياته البينات فى أكثر من موضع فى القرآن العظيم ويمكن اجمالها على ما تيسر لنا تفهمه فى النقاط الآتية :

١ - عبادة الله

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »
(الذاريات : ٥٦)

« واعبد ربك حتى يأتيتك اليقين »
(الحجر : ٩٩)

« اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة
لذكرى »

(طه : ١٤)

٢ - معرفة الخالق :

« وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » •

« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم
يخلقون »
(الاعراف : ١٩١)

٣ — شهود عظمة الخالق :
« أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة »
(فصلت : ١٥)

« ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل
والنهار آيات لاولى الآلآباب »
(آل عمران : ١٩٠)

٤ — العمران والاصلاح :
« انا لا نضيع أجر المصلحين »
(الاعراف : ١٧٠)
« ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم »
(الاعراف : ٥٦)

٥ — الرحمة الالهية :
« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت
هذا باطلا سبحانك »
(آل عمران : ١٩١)

٦ — العدل الالهى :
« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس

- ١٢٣ -

شيئاً «

(الأنبياء : ٤٢)

« الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان »

(الشورى : ١٧)

٧ - التفضل الالهى :

« فقلوا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين »
(البقرة ٦٤)

« ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس
لا يشكرون »

(البعث : ٨)

« فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون »

(الروم : ٥٦)

« ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم »

(المطففين : ٤ ، ٥)

ومن هذه الآيات البينات يتضح للانسان سليم القلب نقى
الفطرة ان الله تعالى خلقه لرسالة عليه فى هذه الدنيا أن يؤديها
وهو حر بعدما أعلمه بطريق الحق أن يختار ظلم النفس أو
القسط أو المصادفة بالخيرات فمن ظلم نفسه فهو يستحق بعد هذا
النذير الالهى بالعذاب الاليم ، وأما من اتقى فان له الجزاء

الاسنى والنعيم الأبقى والله تعالى غفور لعباده ان شاء غفر لهم
وان شاء عذبهم

(وما ربك بظلام للعبيد)

وهكذا نرى ان الانسان قديما وحديثا يظلم نفسه ويتبع
هواه ويوافق الغواية الشيطانية برغم ان الحس يكذب أحيانا
ويصدق أحيانا والعقل يخطئ في أحكامه ويصيب ، والنفس في
رغباتها التي لا تشبع ومطالبها التي لا تتوقف عند حد وأمانيتها
الدنيوية وآمالها الزائفة لا تسكن ولا تقنع ولا تهدأ أبدا ..

والانسان يظن أنه مغلوب على أمره عندما يستسلم لرغونات
النفس ونزعاتها المتسلطة على قلبه ووجدانه فتقوده بشرها
وحرصها الى اقتراف الاثم وموافقة الغواية وتطالبه بتحقيق
ما تشتهيه من شهوات وما تصبو اليه من لذات وما تنشده من
الهوى ..

والعقل اذا غلب عليه حمقه وضعف علمه وتذبذبت أحكامه
نتيجة تسلط الشهوة على النفس من ناحية والغضب من ناحية
أخرى ... فانه يصبح في النهاية العوبة النفس الأمارة التي
تقوده الى الضلال المبين ..

أما القلب في هذا الموقف فقد غلفته سحابة قاتمة من
الدخان فلا يرى له أثرا على النفس أو العقل أو الوجدان
جميعا ... انه يقبع في دهاليز الغفلة وقد غلبه نعاس عميق ..

وهنا يصبح دور الشيطان خطيرا ويصنع فى هذا الموقف كل الاعيبه وتهاويله وتخاويله حتى لا ترجع النفس عن غيها ويفيق العقل ويعود الى رشده ويسكن القلب ويهجر غفلته . . . وما يزال الشيطان يحبك شباكه ويخطط لهجومه ويرتب للخيانة والغدر والأذى . . حتى يطمئن الى نجاحه وأنه أردى صاحب هذه النفس قتيلا . .

لكن الشيطان لا ينجح دائما ، ولا يوفق فى كل موقف فكم من نفس أمارة رجعت عن غيها وثابت الى ربها وأخلصت فى توبتها وكم من نفس ظالمة ندمت على أفعالها الذميمة ودخلت الى حظيرة الايمان وأفسدت مخططات الشيطان ، وتركته يحترق غيظا وكمدا . .

ان التجربة الحياتية ثمر خبرات ايجابية يمكن للمتأمل والمتفعل أن يستفيد منها ويجعلها نبراسا يضىء له سبيل الرشاد . .

فالذنوب والآثام وان كانت تجارب سلبية لا تعطى ثمارا ولا تفيد توفيقا ، وانما على النقيض تماما ثمر خوفا وهلما وقلقا وضياعا وقنوطا ويأسا . . ومع ذلك فان المخطيء والمذنب انما يتعلم من الخطايا والذنوب . . ان كان عاقلا . أن فى اقترافها خطرا عليه عظيم وفى مغالبتها نصر له وتوفيق . .

ومن هذا المنطلق يدور الدفع بين الخير والشر . . ويستمر الانسان فى الاختيار لدوره فى الحياة فاما أن يضعف

ويهلح فيتسلط على النفس شيطانها واما أن يقوى بالايمان
فينفض عن نفسه الهوى ويصبر على الشهوات واللذات المحرمة
فيسيطر على نفسه بعقله وقلبه جميعا .. ويستعين بربه فيقوى
ويقوى حتى يهزم النفس والشيطان جميعا ..

وهكذا تفيد التجربة الانسانية ويتعلم صاحبها الخطأ
فيتجنبه والصواب فيعمله .. لكن ليس معنى ذلك أن على الانسان
أن يقترب الاثم ويعايشه كما يزعم أصحاب المذاهب الضالة اذ أن
ذلك معناه أن يسرق السارق ثم يجرب قطع يده .. أو يزنى
الزاني فيرجم لجريمته .. أو يقتل ليعرف تجربة قطع رقبتة ..

لقد وهب الله الانسان العقل ليميز بين الخبيث والطيب
ويقيس الأمور فلا يلجأ الى الفساد والخبائث لأنه يعلم تماما أن
فيها ضرره وضياعه وضلاله ..

لكن على الانسان العاقل أن يجرب أعمال البر وأفعال الخير
وان يقترب الى الله بالدعاء والاستغفار وطلب العون والله تعالى
قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه .. وهذه هي التجربة
الايجابية اذ انها تثمر ثمارا يانعة ويجنى صاحبها مالد وطاب
مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..

اذن هناك فى هذه الدنيا تجارب سلبية وتجارب ايجابية ،
فالسلبية تقود الى الهلاك والضياع والضللال المبين الا اذا تولى
الله الانسان برحمته وانتشله من بؤرة الفساد ونجاء من بحار
الظلمة الى شاطئ الأمن والأمان .. وأما التجربة الايجابية فانها
تقود الى الصلاح والاصلاح وتمين الانسان فى حياته على تجاوز

الفتن والمحن والابتلاءات وتشيف قلبه فيصبح نورانيا لا يعرف
الحقد والعداوة والعدوان .. وأهم ما يحظى به الانسان صاحب
التجربة الايمانية الايجابية انه يتوصل فى نهاية الامر الى
يقين ... فلا يقع فى الظن والوهم ولا يخاف غير الله ولا يقلق
على ضياع المال أو الرياش أو الملك أو الأملاك ... ولا يخشى
الموت وان كان قاب قوسين منه أو أدنى ..

لقد علمته التجربة الايمانية معنى اليقين بالله ولذلك فهو
ابدا مطمئن النفس ساكن القلب راض بما يعطيه الله من خير
وما يبتلى به من محن وشدائد ..

ان الطريق الى اليقين واضح تماما للانسان متى عرف ان
التجارب السلبيه لا تؤدى له الا الخسارة والفساد والافساد ..
وهذه التجارب بما تحمله من اثقال واوزار ينوء بحملها انما
تضيع عليه كل المكاسب التى يمكن ان يحظى بها اذا ما سار فى
طريق الله ..

واليقين الذى يحظى به المؤمن كثرة لأعماله الصالحة يزداد
مع الاخلاص فى العلم والعمل .. وما يزال العبد يتحرى
الاخلاص لله حتى يكتب عند الله مخلصا وهذا مقام عظيم لاهل
الاخلاص ..

لو علم الخطاءون أن باب التوبة مفتوح كل يوم وكل ساعة
وكل لحظة ويدأوا بالتوبة وندموا على ما فعلوا لفتحت لهم أبواب
الرحمة وغفر الله لهم خطاياهم وحظوا بالقرب من الله وعرفوا
طريق اليقين ..

فالقضية تنحصر اذن فى جهل الانسان بطريق اليقين ..
وغفلته عن حقيقة الدين ، وغلبة الاهواء والشهوات على
نفسه .. فاذا ما نفّض عنه ذلك الغبار الذى ملأ قلبه ، وجاهد
ليخرج من ضباب نفسه ، وتخلص من عمى بصيرته .. اذا
استطاع ذلك فانه يرى فى قلبه نورا وفى عينه نورا وفى يده
نورا ويرى طريقه نورا غامرا .. فهل يقبل بعد ذلك أن يرجع
للظلمة والظلام ..

وتجرى الأيام وتخطف العمر خطفا وتنحرف السنين فى جسم
الانسان نحرا ثم يأتيه يوم اليقين من حيث لا يدرى ولا يحتسب ،
يأتيه الموت ولا يستطيع منه خلاصا أو فكساكا .. يقول له ملك
الموت هذه قيامتك .. فيقول له متوسلا : أمهلنى ساعة حتى أتوب
الى ربى ... فيقول الملك : لقد امهلناك فماذا فعلت لربك ؟ ..
فيقول : لقد غفلت عنه .. وتماديت فى اثمى وعظم ذنبى ...
فهل امهلتنى لحظة لأتوب لاستقبل ربى بقلب سليم ؟ ... فيقول
الملك : ان ساعتك قد دنت ولا راد لقضاء الله ... ويقبضه ...

فهل نتدبر هذه التجربة التى سبقنا اليها ملايين الملايين فى
كل عصر وحين ... أما علينا أن نجربها دون اعداد لها ودون
تدبير ..

ان علينا أن نعمل جاهدين للتقرب من الله قبل قنات
الأوان .. وأن نتذكر أن مآلنا له تعالى وأن لا ملجأ لنا الا اليه ..
لذلك فان علينا ان نحسن العمل والاخلاص له جميعا .. وأن
تكون تجربتنا الحياتية تجربة ايمانية ايجابية حتى تشفع لنا عند
ربنا وهو الغفور الرحيم *

الاعتدال

لا يمكن أن يتم العدل في النفس الا بالاعتدال ، اذ أنه استقامة للحق ، وهو تربية سليمة للأخلاق أو للخلق الصالح ، فالاعتدال موازنة وقسط وقصد وقوامة واقامة للعدل (١) .

والاعتدال يشتمل على تطبيق الوسط العدل ، في المأكل والمشرب والفكر والسلوك العلمى جميعا ، ففيما يتعلق باستقامة النفس يقول عز من قائل :

« فاستقم كما أمرت » (هود : ١١٢)

وفيما يتعلق بالعدل مع الناس يقول عز من قائل :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (الأنعام : ١٥٢)

وأما فيما يتعلق بالاعتدال في المأكل والمشرب والنفقة يقول عز من قائل :

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (الفرقان : ٦٧)

وأما ما يتعلق بالعدل مع النفس فيقول عز من قائل :

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين » (المائدة : ٤٢)

(١) راجع كتاب « نحو ثقافة اسلامية » للمؤلف .

— ١٣٠ —

والتربية الاسلامية تهتم بالتركيز على التوازن بين اشباعات النفس ومطالبها ، وبين عفتها وقناعتها ، وهذا وارد فى قوله تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
(الاسراء : ٢٩)

وسياسة الاعتدال فى العملية التربوية ، انما تتركز على علاج النفس من الأهواء والشهوات ، فاذا مالت الى الاغترار عولجت بالتواضع حتى يتم الاعتدال أو يتم التوازن ، واذا مالت الى الهوى كان علاجها الاستقامة ، واذا استمرات التسلط والتجبر كان علاجها الزهد ، واذا انحرفت الى طريق الأنانية والشره ، كان علاجها فى الايثار ، فأى من العيوب والآفات النفسية انما هى ثمرة فجوة للتربية الخاطئة ، أو النقص فى الأدب والأخلاق .

وكل شىء فى هذا الوجود يسير على هدى من الاعتدال والتوازن والاتساق والتناسب والتناسق ما عدا الانسان .

فالانسان وان كان فى الأصل فى خلقه على الفطرة السليمة ، الا أنه يبتعد عن هذه الفطرة ، اذا ما افتقد الى التربية الاسلامية الصحيحة ، وهنا يخلط بين اشباعاته ومطالبه ، فيطالب بحقوقه ويتغافل عن واجباته ، وبذلك ينحرف عن طريق القوامه والاستقامة ، والتى جعلها الله تعالى أساسا لشرعة الاسلام ومنهاجه :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة : ١٤٣)

فالوسط الاسلامى هو التوازن فى الفكر والسلوك والتطبيق،
يقول عز من قائل :

« قال أوسطهم » (القلم : ٧٨)

وأوسطهم هو أفضلهم رأيا وأكملهم عقلا وأتمهم حكمة ،
فاذا سلك الانسان مسلكا وسطا ، لا مغالة فيه ولا تقصير ، فان
ذلك يعنى أنه اعتدل أمره وقصد الطريق المستقيم ، الذى ليس
فيه عوج ولا جنوح ولا انحراف . ولم يترك الاسلام شيئا يبين
التوازن والاعتدال فى الجسم والنفس ، والعلاقة بين الناس
بعضهم وبعض الا وطرقه ، وبين ما يجب على المسلم أن يقتدى
به ، حتى فيما يتعلق بالآداب العامة ، أو السير فى الطريق العام
يقول عز من قائل :

« وأقصد فى مشيك » (لقمان : ١٩)

فقد نهى الله تعالى المسلم أن يسير مسرع الخطى وهو يلهث،
كما نهاه أن يبطل فى مشيه وهو خامل كسول ، انما عليه أن
يتوسط فى مشيه فخير الأمور اواسطها .

فاذا وضعت أسس التربية على أساس من التوازن والاعتدال،
كما أوضحته النظرة الاسلامية ، لأعتدل الأمر ، وما تحولت
الوسائل الى غايات ، وما انحرفت بنا الطرق بين غلو وتقصير ،
وافراط وتفريط .

الايثار

الايثار بذل وجود وعطاء ، وسخاء وكرم فى النفس النقية الورعة التقية ، وهو ضد الانانية والبخل والشح والتقتير ، تظهر فيه أرق المشاعر الانسانية ، وهو من أجمل الفضائل البشرية ، يتأكد به معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو احسان صادر من نقاء النفس واخلاصها فى العمل والعبادة لله :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » * (الحشر : ٩)

ان الايثار طبع المؤمن وأخلاقه ، فهو يؤثر غيره على نفسه ولو كان محتاجا الى ما يقدمه الى أخيه من بذل وعطاء ، فالأخوة الاسلامية جعلت نفسه طيبة لله ، مخصصة له تعالى ، متجهة دوما الى خدمة الاخوان ، ومساعدة المعوز والفقير وزيارة المريض ، ومعاونة الضعيف وتحمل الشدائد ، ومناصرة المظلوم والمسكين ..

والمؤمن يفعل كل ذلك عن طوعية واختيار ، بلا تكلف أو عنت أو رياء ، ويقدم أخيه على نفسه ، ويسعده ذلك .. حيث أن قلبه مشرق بالمحبة قد زال عنه الحسد ، ومسح عنه الحقد والعداوة والبغضاء وحل محلها الايثار والصفح الجميل ..

والايثار تزكية للنفس ، وتصدق للخير ، والنفس اذا تركت لاهوائها بخلت وشحت وقترت وظلمت ، بل وطلبت المزيد من

المال والشهوات واللذات طمعا وانانية وعدوانا *

واذا كانت الأنانية شره وتكالب على الدنيا ، فانها بذلك تدفع صاحبها الى طلب الشهوات واتباع الاهواء ، وموافقة غواية الشيطان وتحسين الأعمال المستقبحة ، واقتراف المحرمات وهى طبع الملحد والكافر والمشارك *

اذا كانت الأنانية شره وتكالب على الدنيا .. فان التظاهر بالايثار اشد خطرا وافتك بالنفس من الشح والبخل ، لأنه نفاق ، والنفساق استظهار للايثار واخفاء للأثرة .. فيخفى المنافق ما فى نفسه الأمانة من طلب للشهوات والرغبات الدنيئة ، ليظهر امام الناس التضحية والجود والسخاء ، حتى يقال عنه انه المحسن التقى النقى * ثم انه اذا امتحن عند الشدة ، وجرب عند الحاجة ، ظهرت نفسه الأمانة على حقيقتها ، وبدت طباعه الشرسة تغلب على فكره وسلوكه وأخلاقه ، ويتبدل البذل الى العدوان ، والسخاء والجود الى البخل والشح ، والعفة والكرم الى الشره والندالة *

واذا كان طبع النفس وديدها الايثار لم تتبدل عند الشدائد ، ولا تتغير عند الاختبار ، وانما يبقى حالها من السخاء والجود والعطاء والبذل والتضحية فى كل حال ، وهذه هى اخلاق المسلم المؤمن .. يحسن لأخيه لانه يعلم أن احسانه لله ، ويعطى فى كرم ومروءة ، لأن شريعته السمحاء ودينه القيم علمه ورباه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد اقتدى بأخلاق الرسول « صلى الله عليه وسلم » وسار فى طريق الله تعالى ..

والا يثار ليس تطبعاً أو تكلفاً ، وانما طبعاً راسخاً وخلقاً ملازماً للمسلم المؤمن ، وبه يتميز عن غيره من أصحاب العقائد المنحرفة والمذاهب الضالة الخارجة عن الاسلام . اذ أن تلكم العقائد أو المذاهب انما توافق الأهواء النفسية والمتطلبات الحسية التي لا تشبع ، وبذلك يحيا الانسان فى أنانية بغيضة ، وشره لا يسكن أبداً . . ولذا يسقط فى اليأس والضياع دنيا وآخرة . .

ان الا يثار بالمفهوم الاسلامى هو الطريق الوحيد الموصل للسعادة فى الدنيا والآخرة . .

العبودية لله لا الحرية

أصبح مفهوم الحرية فى الفكر الغربى المعاصر ، هو أن يفعل الشخص كل شىء فى حدود القانون المتفق عليه ، والقانون المقصود هنا هو القانون الوضعى الذى سنته بعض العقول بناء على رغبة الجماهير ، أو قننته السلطة المفوضة كتعبير عن أهواء الحكام ، أو نزعات المجالس النيابية أو الشعبية ، سواء كان ذلك فى الأنظمة الديمقراطية أو الاشتراكيات ، أو فى الحكم الديكتاتورى ، وفى جميع هذه النظم لا يتحقق فى مفهوم الحرية العدالة والاخاء والمساواة والأمن للفرد والمجتمع . .

ان أكثر دول العالم مناداة بالحرية الفردية وهى انجلترا ، لا تفهم معنى الحرية الحققة ، فلقد سن بها قانون جديد يبيح العلاقات المحرمة بين الجنس الواحد كتعبير عن الحرية

الشخصية ، ولم يجد الديمقراطيون تفريفا لها الا فى اباحة
الشدوذ الجنسى الذى تأباه الفطر السليمة ، ويرفضه العقل
الرشيد ، والنفس السوية المعتدلة المتوازنة ..

وفى أمريكا وجد بعد بحوث دامت سنوات ، أن الخمر
ضارة بالصحة وسبب مباشر للجريمة التى يئن منها المجتمع
الامريكى * * وبناء على استفتاء للجمهور سن قانون بتحريم
تداول الخمر * * لكن الذين وكل اليهم صياغة هذا القانون ،
كانوا يجلسون وقد وضعوا امامهم الخمر داخل زجاجات
« البيبسى كولا » ، وبذلك ولد القانون ميتا اذ اعتبر سيفاً
مسلطاً على الحرية الشخصية لى طبقة المدمنين والتى تمثل
أغلبية شعبية ..

ان مفهوم الحرية كما يتصوره الفكر الغربى الحديث ،
هو الانفكاك عن القيم الخلقية والمبادئ العليا ، والتحلل من
المثل وقيم الدين *

لقد قاست أوربا فى عصورها المظلمة ، من تسلط آباء
الكنيسة النصرانية ، الذين فرضوا على الناس نصوصا دينية
ألفوها لتحقيق منافعهم الشخصية ، وادعوا أنها من عند الله ،
وانهم المفوضون من قبله تعالى لتنفيذها ، وبذلك ألغوا العقول
المفكرة واستعمروا قلوب الناس بدعوى ما انزل الله بها من
سلطان * * ولقد ثار فريق من دعاة الاصلاح فى اوربسا على
الكنيسة ، ورفضوا الانصياع لتعاليمها وحرصوا النصرارى على
الخروج على التعاليم الكنسية ، وكشفوا لهم زيف البطارقة فى

مزاعمهم وأباطيلهم فى الغاء التكفير وسلب العقل قدراته
وجعل الناس عبيدا لهم ..

ونجح هؤلاء ، وتقلصت سلطات البابوات ، ومهد ذلك لنشوء
الفكر الحر ، وظهرت العلمانية كبديل للنصرانية ، وأصبحت
الحرية والعدالة والمساواة هى شعارات الحضارة الغربية ..

ولم تقف الحضارة الغربية عند حد تحرير العقل من غلواء
النظام الكنسى ، بل انحرفت به فى زهو وغرور ، لتجعله اله
يعبد من دون الله ، وبذلك بعد عن العدل والحكمة والاستقامة ..

وأصبح مفهوم الحرية عند العلمانيين الغربيين ، هو أن
تفعل ما تشاء ولو كان ذلك على حساب الفضيلة ومكارم
الأخلاق ، وغدت الحرية هى التعبير الواقعى لأنانية الافراد
فى المجال الاقتصادى : الحرية هى تحقيق أكبر منفعة ممكنة ،
ولو كان ذلك على حساب الآخرين ، ولو كان ذلك استغلالا
واحتكارا وظلما للناس ، وأما الحرية بالمعنى الأخلاقى فهى
اشباع أكبر لذة ممكنة ، وتحقيق المتطلبات الجنسية والشهوانية ،
ولو كان ذلك مما تشجبه الفطر السليمة والقيم العليا ،
والأديان السماوية ..

لقد وصلت الحضارة الغربية بمناهجها العلمية التجريبية
الى حافة الهاوية ، ويصور الفيلسوف الألمانى شيفتر هذه الهاوية
التي تردت فيها الدول الاوربية الحديثة فيقول :

« نحن نعيش عصر انهيار الحضارة ، نحن نعيش بين
الحضارة والبربرية » ..

ويتضح من هذا العرض السريع ، أن مفهوم الحرية عند الغرب لا يصلح كمصطلح لتعبير به عن أمانى الانسان المسلم ، اذ أن هذه الحرية قد خرجت عن الوسط العدل الاسلامى وابتعدت عن الفطرة السليمة ، وانسلخت عن الاديان السماوية .

ان الاسلام يفهم الحرية بمعنى مختلف تماما عما استهدفه الغربيون منها ، كما يرفض استعباد الانسان كما فعل آباء الكنيسة النصرانية ، وفى ذلك يقول الفاروق عمر رضى الله عنه :

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »
والاسلام ينكر الحرية المطلقة، التى تبناها أصحاب الحضارة المادية الحديثة ، اذ أن غاياتها الفريدة هدم القيم والأخلاق والتحرر من كل قيد ، واباحة كل فعل ولو كان منحرفا وشاذا وضلالا مبينا . .

ان هذه الحرية اذا قيست بمعيار الدين القيم ، ووزنت بميزان الشريعة الغراء ، لوجد أنها تمثل عبودية المال وعبودية الجنس وعبودية الهوى ، ويكفى أن نحكم عليها بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تعس عبد الدينار »
ونحن نقول قياسا على ذلك :
تعس عبد الهوى ،

- ١٣٨ -

تعس عبد الشهوات والملذات ••

ان الحرية الحققة كما يراها الاسلام هى العبودية الحققة لله ، اذ أنها منتهى غاية السالكين الى طريقه والتسوكل عليه ، والصبر لقضائه تعالى ، وذلك بالاخلاص فى طاعته ، والرضا بما يرزق به من خير وشر •

والحرية بهذا المعنى ليست فى موافقة أهواء النفس واشباع الحاجات الانانية ، واتباع الشهوات وغواية الشيطان ، اذ هذه الحرية بهيمية تهبط بالانسانية الى الحيوانية التى يستحل دماؤها ••

فاذا ادعى الغربيون أن شعار الحرية هو السائد فى مجتمعاتهم ، فان على المسلمين أن يعرفوا أن مصطلح الحرية هو بعينه عبودية الدينار والدرهم فى المجال الاقتصادى ، وعبودية الشهوة فى المجال الاخلاقى ••

الاحسان

أجمل الفضائل هي فضيلة الاحسان ، اذ أنها سلوك انساني عظيم يتأكد به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . والاحسان ايثار ، وهو ثمرة طيبة للنفس النقية المخلصة في العمل والعبادة وفي ذلك يقول الله تعالى :

« ان احسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها » (الاسراء : ٧)
والاحسان يبدو في الأعمال والأفعال ، فاذا أتقن الانسان عمله ، وما كلف بأدائه من حقوق وواجبات . واذا قام بأفعال البر ، وأحسن الى الغير ، أو عمل عملاً خيراً ، فانه ينسب اليه هذا الفعل وذلك العمل ، ويلقى من الله أفضل الجزاء . . لأنه احسان ، وهذا يتأكد بالآية الكريمة :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن : ٦٠)

والاحسان فوق العدل ، لأن العدل انصاف وقسمة وقسط ، والاحسان ايثار وتضحية ، عطاء وبذل للغير عن طواعية ورضا ، لأن المحسن لا يطالب بثواب يستحقه في الدنيا ، وانما يتركه اختياراً لله تعالى الذي عنده الجزاء الأوفى على احسانه . . وفي هذا يقول تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (النمل : ٩٠)

ومفهوم الاحسان في الشريعة الاسلامية أن لا يعطى الانسان وهو كاره أو مجبر ، ولا هو متعجب أو راض عن نفسه ، لأن ذلك احسان ظاهري ، اذن فهو تظاهر بالاحسان ، اما استعراضاً

أو استعلاء على الآخرين ، أو احساسا بالعظمة والغرور ، وهذا بطبيعة الحال يناقض معنى الاحسان ، لأن الاحسان نوع من عبادة المؤمن لله ، وفي حديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » :

« أعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فهو يراك » (١)

وفي الحديث اشتمال على جميع وظائف العبادة * * من عقود الايمان ، وأعمال الجوارح ، واخلاص السرائر ، والتحفظ عن موافقة هوى النفس ، حتى أن كثيرا من علوم الشريعة راجعة اليه ، ومتشعبة عنه * (٢)

فبالاحسان يشعر المؤمن شعوراً ملازماً ، أن الذى يعطى هو الله تعالى وحده ، وأن المال والصحة والجاه وكل ما فى الدنيا ، انما هو منه * * واليه ، فلا يحس المؤمن فى الاحسان بذاته الا كوسيلة اختارها الله تعالى لفعل الخير ، وعمل المعروف * *

فالاحسان بهذا المعنى امداد واستمداد من الله الى عبده ، وليس وقفا من العبد على غيره ، لأن فى الوقف اعتراض ومشاركة للربوبية ، وهو نوع من الشرك الخفى ، فالله تعالى هو مصدر الخير * * والمحبة * * والجود * * والسخاء ، وأى احسان بخلاف ذلك يخل بمعنى الاحسان على الاطلاق * *

الاحسان أن تعطى وأن تعرف أن ما تعطيه هو من الله

(١) عن أبى نعيم فى الحلية من فريد بن أرقم وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وزاد عليه « وأحسب نفسك مع الموتى ، وأتق دعوة المظلوم فانها مستجابة » * *

(٢) الشيخ السراج الطوسى - اللع : ٤٤ *

ولله .. فلا تشعر لنفسك فضلاً وأنت تعطى ، وأن تؤمن أن الله هو المعطى على الحقيقة ، الموكل لك فى العطاء ، سواء كان ما تجود به علماً أو براً فى العقيدة أو العمل أو الخير ، وبهذا يكون الاحسان ايماناً يرفع النفس الانسانية درجات فى التكامل والسمو والرفعة ..

أصاب المسلمون أياماً قحط شديد ، فى عهد أبى بكر أمير المؤمنين ، فقال رضى الله عنه : (١)

« انصرفوا وأصبروا ، فانى أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم » ..

وجاء لعثمان فى نفس اليوم بضاعة فى ألف بعير ، فجاءه المسلمون ، فقال عثمان :

« ما تريدون ؟ » ..

قالوا :

« بعنا هذه البضاعة » ..

فقال :

« حباً وكرامة ، كم تربحونى على شرائى » ..

قالوا :

« الدرهم درهمين » ..

قال عثمان :

« أعطيت زيادة على ذلك » ...

(١) الشيخ المحب الطبرى - الرياض النضرة فى مناقب العشرة ج ٢
ص : ١٤٦ .

- ١٤٢ -

فزادوا حتى وصل الدرهم الى خمسة دراهم ..
فقال عثمان :

« أعطيت زيادة » ..

فقالوا :

« من أين لك هذا وما فى المدينة من تجار غيرنا ؟ » ..

قال عثمان :

« ان الله أعطانى فى كل درهم عشرة ، فهل عندكم

زيادة ؟ » ..

قالوا : « لا » ...

فقال :

« انى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه البعير ..

صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين » ..

ثم أخذ يوزع بضاعته ، فما بقى من فقراء المدينة من

أحد الا وأخذ ما يكفيه وأهله ..

هذا هو معنى الاحسان فى أجمل صورة ، وأسمى معانيه ،

أراد به عثمان - رالله عنه - وجه الله بلاتردد .. لأنه الأعز ..

والأشرف والأربح والجزاء الاثمر ، اذ أنه ايصال واتصال بين

العبد وربّه ، لا يرى فيه العبد لنفسه فضلا ولا يستهدف منه

الا وجه الله تعالى ...

أتى غلام للخليفة المأمون بفعل أغضبه وهم بعقابـه ..

فقال الغلام : (١)

«يا أمير المؤمنين .. والكاظمين الغيظ ..»

فقال المأمون :

« كظمت غيظي .. »

فقال الغلام :

« والعافين عن الناس .. »

فقال المأمون :

« وعفوت عنك .. »

فقال الغلام :

« والله يجب المحسنين .. »

فقال المأمون :

اذهب فأنت حر لوجه الله (١) ..

ان قاعدة الاحسان التي تسمو فوق قواعد العدل النظرى ..
التي تستمد سلطتها من العقل « .. نجد أن الاحسان يسير
قواعده سيرا بعيدا عن أحكام القصاص .. فيختار الرحمة
والسلم والايتار .. متشبيها بعدل الله ، وطريق الله ، وسبيل
الله فى مسابقة الى نور الايمان ، سالكا ومطبقا معنى الاحسان
ليس عن ضعف أو خوف .. وانما عن قدرة وورع وتقوى ورجاء
فى الله ..

وليس الاحسان عدلا تؤيده الفطرة السليمة فحسب ، وانما
الاحسان قوة أعظم ، لا يقدر على سلوكها الا فحول الرجال من

(١) الآية الكريمة : «واكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب
المحسنين» (آل عمران : ١٣٤) ..

أصحاب البصائر المشرفة . والمعرفة النافذة ، أهل السكينة والأمن والطمأنينة ، وهذه القوة من الله منة وفضلا .

والحاكم المحسن لا يوقف أحكام الشريعة ولا يتجاهل حدودها ، انمسا المحسن ينتقل من قاعدة الى قاعدة أشمل ، فالقصاص قاعدة اسلامية . ولكن العفو قاعدة اسلامية أكثر خيرا وصلاحيية * العفو يرتفع عن القساعة العامة الجامدة الآمرة الى قواعد أكثر رحابة وأعمق اثرا ، وأسلم غاية وهدفا * العفو ينطلق من العدل النظرى الى الاحسان العملى ، ومن القانون الشكلى الى الرحمة الحقيقية * ومن العقل الخالص الى القلب النورانى * .

وليس هناك من اختلاف بين الطريقتين الا من حيث الدرجة ، اذ يستهدف القصاص والعفو فى نهاية الأمر العدل والعق * . فى الطريق الى التشبه بالحق تعالى * الغاية اذن واحدة ، فالأمر بالمعروف احسان ، والنهى عن المنكر احسان . وتحقيق النظام والأمن والعدل فى المجتمع احسان * .

وفى قصة المأمون - رضى الله عنه - تعديلا فى المواقف فحسب * . أو تغييرا الى الأفضل أو للخير الفاضل * . وتظهر فى مواقف ثلاثة :

١ - حدوث الغيظ نتيجة تقصير الغلام ، أو بمعنى آخر وقوع الغلام فيما يوجب القصاص ، فقد حدث منه ما يستوجب

(١) ذكر هذه القصة الامام أبو نعيم فى حلية الاولياء * .

الغضب عليه .. والكراهية لما آتاه .. خروجاً عن الأدب ، ثم تسامى المأمون وارتفع عن الشهوة الغضبية ، الى تطبيق التشريع الالهى الأسمى الذى يحض على الصبر ، وكظم الغيظ ، وكتمان الغضب مصداقاً لقوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ » (آل عمران : ١٣٤)

وهذا التسامى تعديل فى موقف المأمون يريد أن يحقق به فى النهاية .. غاية عظيمة .. وهو مقام الصبر ، الذى هو ضد الانفعال الطبيعى الذى يحركه الغضب .. هذا موقف يعطى فرصة للعقل للتعقل والتبصر قبل الاقدام على اقامة الحد .. والقصاص من المسىء ، ولاشك أن الصبر كمسلك أخلاقى ، أو بمعنى آخر يسكن سورة الغضب فى الانسان ، أو بمعنى آخر يسكن بالصبر الغضب .. فيوقف تنفيذ القصاص العاجل فى الشخص الذى سببه ، فاذا سكن الغضب فلا تنفيذ للقصاص أو الجزاء ، وذلك بكظم الغيظ. وبذلك يرتقى الانسان سلماً أفضل ويسلك طريقاً أرحب يرتفع به عن السلوك الحيوانى ، والنزوع العدوانى ، والرغبات الأنانية ، التى يسلكها أغلب الناس فى معالجة أمورهم ، وذلك بالغضب على المخطيء والمسىء ، وتطبيق الجزاء الرادع ، واقامة الحد ، والذى ربما لا يحقق عدلاً حقيقياً ، قد استهدفه المشرع الأعظم تعالى .. وانما هو طريق للمعدل فحسب ، وشريعة للعقل مثل قاعدة - العين بالعين ، والسن بالسن - ولا شك أن

مجال عملها القانون النظرى ، الذى يستهدف المساواة فى الحقوق والواجبات دون اعتداد بحالة كل منهم .. وظروفه .. وتوبته ..

٢ - أما اذا ارتقى الانسان الى مدارج الحكمة ، وغلبت نفسه المطمئنة نفسه الأمانة ، وصدق قلبه مع عقله ، فانه يمكن أن يرتفع من العدل الى التسامح ، ومن القصاص الى العفو ، وهذا ما نجده فى قصة المأمون - رضى الله عنه - مع غلامه ، فبدلاً من معاقبة غلامه وتوقيع الجزاء عليه عفا عنه وسامحه ، ويمكن أن يقال هنا أنه انتقل فريد الى الضد ، دون مخالفة لطريق الله .. أو الخروج على أحكامه تعالى ..

فأين الوسط ؟ .. أو بمعنى آخر : كيف ينتقل من الشيء الى ضده ؟ ... وأيها أحق بالاتباع ؟ ..

اذا ارتقى الانسان وأوصل نفسه بمعنى الاحسان ، فان هذا الوسط يتغير فى الاحسان ويصبح الحكم غير الحكم ، والسلوك غير السلوك فليس معنى الاحسان القطع الحاد والميزان الدقيق ، بين كفة وكفة أخرى فى الأعمال والأعمال ...

وانما الاحسان ميل طبيعى للخير ، وغاية سامية للتقرب الى الله عن طريق التشبه بأفعاله فى معاملته لعباده ، فليس الجزاء الأخرى باستخدام منطق العقل وحده ، وانما الأعمال - أيضاً - بحسب النيات ..

يقول تعالى :

« الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩)

وقوله تعالى :

« لا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم »
(الاحزاب : ٥)

فهناك درجات اذن .. بين العقل والقلب ، العقل يود تطبيق قواعده على الواقع من الأفعال ، والواضح من الأعمال ، أما القلب يستهدف القصد والنية والباعث ، ثم أنه يرى الخير غاية ، والمحبة هدفا ، والتسامح سلوكا ، فيصدر أحكاما رحيمة كرحمة الله فيها حلاوة الايمان ..

لقد لجأ الخليفة المأمون — رضى الله عنه — الى قاعدة رحيمة ، فقال لفلان : « عفوت عنك » تشبها بأفعال الله فى العباد ، فلو عامل الله عباده بشريعة العدل فى الحق والباطل ، والخطأ والصواب ، ما نجا منهم أحدا ، وما دخل باب عفوه انسان ، لكن الله رؤوف بعباده ، عالم بما فى جبلتهم من نقص وغفلة ونسيان ، عليم ببواطنهم ، حكيم فى حكمه عليهم .

ففى علمه تعالى أن الاحسان أفضل من العقاب ، والعفو أثمر وأينع من الجزاء ، فاذا تشبه الانسان بأفعال الله ، فهو محسن ، وهنا درجة عليا من درجات الايمان ..

٣ — المعنى الثالث بعد كظم الغيظ .. والعفو .. الاحسان وهو الانتقال من الغضب الى العطاء ، ومن الغيظ الى البر ، ومن الانتقام الى الاحسان فهو أولا تربية للنفس ، وثانيا رقى لها ، وثالثا بذل وايثار وتضحية ، فبعد أن تستبدل شهوة الغضب بكظم الغيظ ، يستقر فى القلب أمن وسلام . وهذا المحسن يرقى بنفسه الى ان يصل الى تغيير سلوكه الظاهرى ، الى التخلق بأخلاق الله ، وفى ذلك تشبيه بطبيعة الهية بها تكتمل للانسان فضائله ، فيصبح محسنا بالطبع ، لا بالتطبع ، متخلقا بأخلاق الكرام ، ثم انه احسان يرقى به الى الكمال الانسانى ..

هذه هى الشريعة الاسلامية بسرائرها الذى لا يحصى وعمقها الذى لا حدود له .. وجذورها الممتدة الى الفطرة الأولى ، النامية مع حياة الانسان عبر الزمان والمكان .. فى سلم يترقى فيه حتى تكون شريعته حقيقته ، وحقيقته شريعته ليحقق معنى الاحسان ..

ان معنى الاحسان نجده أيضا فى قصة يوسف — عليه السلام — فالعدل يقتضى القصاص من أخوته ، الذين رموا به الى الجب قاصدين قتله ، واستمروا فى كراهيتهم له ، حتى أتاه الله نصرا مبينا وأصبح أقوى بالله منهم جميعا .. وتولى الوزارة وفوض على كنوز الأرض ومفاتيح الحكم والعدل ، فهل عاملهم بقاعدة العين بالعين ؟ وكان فى مقدوره بل وحقه .. وكان يستطيع ذلك بكل سهولة ويسر ، ويؤيده فى ذلك منطق

العدل لكنه عندما قدر وتقوى بالله عليهم .. عاملهم بأخلاق
الحق تعالى ..

« والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس »
(آل عمران : ١٣٤)

ثم بالاحسان ..

قال لهم :

« لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »
(يوسف : ٩٢)

ولم يكن احسانه بغية نفع عاجل ، ولا عن عزة فى النفس ،
أو استعلاء عليهم ليستظهر احسانه ، ولم يكن غرورا واستكبارا ،
انما كان ذلك لطهارة قلبه ، وصفاء نفسه ، وخلوها من الضغينة
والكراهية والغضب ، حتى أنه طلب الى الله أن يغفر لهم
خطاياهم ويرحمهم برحمته ، ويمن عليهم برضوانه ، رغم
ما فعلوا به من ظلم وعدوان *

فاذا طبقنا حكم العدل على ما فعلوه به من ضرر واضرار ،
لجاء الرد القصاص الرادع :

« العين بالعين .. والسن بالسن » ..

ولكن يوسف — عليه السلام — صفح عنهم الصفح الجميل ،
وطلب المغفرة لهم ، فكان التسامح حكما بديلا عن العدوان ..

وهو أجمل وأعظم وأكرم .. إذ أن النفس المتسامحة .. قادرة على توقيع الجزاء وتطبيق احكام القصاص العادل .. لكنها تنشد الخير فهي نفس محسنة ، والاحسان درجة عليا أفضل من القصاص والعقاب ..

ولولا ذلك لفعل يوسف - عليه السلام - بأخوته ما فعلوه به ، ولكنه كان خيرا بطبعه ، محسنا بفطرته ، رحيمًا بقلبه ، عارفاً بطريق الله ، فاختار ما هو أبقي على ما هو أدنى ، اختار حب الله ، ونعم الله ، وعلم الله وتدبير الله ، وهذا أيضا ما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما غلب « قريش » وأصبح أعظمهم ايداء له ، وأشدهم عداوة ، وأكثرهم بأسا ، مغلوبا ، مهزوما ، مقهورا ، مدحورا فقال لهم :

« ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ » ..

فقالوا :

« خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم .. »

فقال :

« اذهبوا فانتم الطلقاء » (١) ..

ويجمل بنا أن نذكر في ختام هذا الموضوع بعض المعاني

(١) هذا الحديث متواتر ومتفق عليه

المختلفة للاحسان ، ونحن اذا عددنا معانى الاحسان ، لوجدناها
فى كل فعل حميد وعمل شريف ، وسعى مشروع وعبادة
صادقة ...

فالايمان احسان .. لأنه يرتبط بمعنى الاحسان برباط
وثيق ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله عز من قائل :

فَأَنبَاهَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » (المائدة : ٨٥)

والصلاة احسان .. فهى تطهير للنفس وايشار ، والايشار
احسان ، فالصلاة تقرب الى الله فهى احسان ، والصلاة على
النبي - صلى الله عليه وسلم - احسان ، تصديقا لقوله تعالى :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (الانعام : ١٦٠)

والتجهد احسان .. فالذى يقبل على طريق الله .. ويمعبده
فى صدق ولا يأمل فى سواء فهو محسن ، ولقد ورد الاحسان
بمعنى التجهد ، وذلك فى قوله تعالى :

« انهم كانوا قبل ذلك محسنين » (الذاريات : ١٦)

والتصدق احسان .. فالاحسان تصدق على الفقراء
والمحتاجين وانفاق المال وتزكية النفس بأعمال البر والصدقات ،
كما ورد فى قوله تعالى :

« وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » (البقرة : ١٩٥)

وخدمة الوالدين والبر بهما احسان .. ومساعدة
المحروم .. احسان ، ومعاونة المريض والمحتاج احسان كما ورد
فى قوله تعالى :

« وبالوالدين احسانا » (البقرة : ٨٣)

ويقصد بالاحسان كذلك العفو عن الخطائين كما قال الله
تعالى :

« والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »
(آل عمران : ١٣٤)

والاحسان بمعنى المجاهدة ، أى التسابق فى بذل النفس فى
سبيل الله والجهاد فى طاعة الله ، كما ورد فى قوله تعالى :

« والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبيلنا ، وإن الله مع
المحسنين » (العنكبوت : ٦٩)

والطاعة احسان ، وذلك فى قوله تعالى فى أنواع الطاعة :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (يونس : ٢٦)

والاخلاص احسان .. فالخلص غير المرائى يعمل تقربا
الى الله ، ولا يستهدف منفعة ذاتية ، أما المرائى فيعمل لياخذ
أجراً عاجلاً عن عمله والا فإنه يفضب ويثور ..

والاحسان يعبر عن معنى الاخلاص (١) ، وهو العلامة المميزة

(١) راجع « ألفاظ الصوفية ومعانيها » للمؤلف

لصدق العبد مع ربه ، ورجوعه اليه شريعة وحقيقة ، اذ الشريعة
أن تعبد ، والحقيقة أن تشهد ، والمخلص لا يقدر عليه
الشیطان . . . مصداقا لقوله تعالى :

« قال فبِعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين »
(ص : ٨٢ ، ٨٣)

والعطاء ايثاراً واحتساباً عند الله احسان ، والاحسان
بمعنى العطاء ، أى ايثار الغير على النفس وتفضيلهم . . . مع
حاجتك الى ما تعطيه ، فهو بهذا المعنى بذل وتضحية تشبها بالله
تعالى ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى :

« وأحسن كما أحسن الله إليك » (الفصص : ٧٧)

أعمال البر احسان ، ونجدة الضعيف والمظلوم احسان ،
فالنجدة احسان الى المحتاج والمظلوم ، مصداقا لقوله تعالى :

« ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » (الاسراء : ٧)

والمعرفة احسان فهى توحيد لله ، ومعرفة مقامه تعالى ،
وهو الغنى على الحقيقة ، المحسن على الدوام ، فبالمعرفة يميز
العبد بين مقامه كعبد ، ومقام الله كرب . . .

ويقرن الاحسان بالمعرفة والعلم ، فعندما يحسن الانسان ،
يحظى بمعارف لم تكن عنده ، ويعلم تقذف الى قلبه ، فيغدو
عارفا بثوابه ، كثرة لاحسانه فيشعر بحلاوة معرفته ، منة من
الله وفضلا ، مصداقا لقوله تعالى :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن : ٦٠)

الوفاء ذلك المعنى الاسلامى العظيم

الوفاء أجمل لحن يعبر سحابات الغيوم الداكنة فى الليل
البهيم ويظلل بأوراقه الوارفة الفيافى والقفار ، ويعين
قلوب المحرومين والبؤساء والحيارى على مواجهة مصاعب الحياة
وتقلبات الأيام ، فيعيد الى قلوبهم بسمة الأمل ، ونور الايمان
ويزيد النفوس ثقة بالله حيث توقن أن لحياتها معنى
وغاية ، وأنها لم تكن هباء منثورا

وفى ظلمة الجحود ، وتحجر القلوب وقسوة البلاء
المخيم ينبعث الوفاء انبعاثا ينثر الحب ، وينير بضيائه
جوانب الدجى ، فيملأ بأريج الطيب كل الدروب ، فيوصل
ما أنقطع ، ويربط الأرحام والاشقاء والمتآخين فى الله
بعروة وثقى لا انفصام لها ، وينشر بينهم معانى الايثار
والمودة والحب فى الله

والوفاء يجعل الخوف رجاء ، واليأس أملا ، والحزن
غبطة وسرورا ، فهو البلمس الشافى والدواء الناجع للأفئدة
الجريحة ، والنفوس القانطة من رحمة الله ، والعلاج الحاسم
لفظنون الشك والريبة .

وإذا دخل الوفاء بيتا من بيوت الأرامل والثكالى ، أشرقت
جنباته بعد طول عتمة ، وانشرحت صدور أصحابه بعد الكآبة
والغمة ، وإذا غمر الوفاء بلمساته الحنون نفوس المحرومين

والصابرين والمظلومين ، كان بمثابة البشرى التى تغلّد بها
أفئدتهم الى السكينة والأمن والطمأنينة والأمان •

ان الوفاء مع قلته فى هذا الزمان ، يعطى لوجود الانسان على
هذه الأرض معنى عظيما ، ورحلته فى الدنيا هدفا وغاية ،
ويجعل لعمره القصير فيها ، رسالة لا تدانيها رسالة ••••
التوحيد •

فبالوفاء تعلم النفوس الحائرة معنى الايثار ، وبه تلهج
القلوب المتعطشة الى رحمة الله بالشكر والحمد والامتنان ، كما
تقوى على مواجهة المصائب والابتلاءات •••

والوفاء بذل مع ما فيه من عناء ، وجود مع ما فى النفس
من أنانية وحسب للذات ، وتضحية ••• رغم أن طبيعة النفس
الحرص والشره وحب المتاع •••

والوفاء ايثار النفس الخالصة من شوائب الهوى ،
ويقظة القلب النقى من موافقة الشر ، وتجنب لهاوى الأنانية
واقبال على سرمدية الجود والسخاء والعطاء •••

لقد بلغ ابراهيم عليه السلام الغاية العظمى للوفاء لله ،
فأقدم على ذبح فلذة كبده ، وأحب الناس اليه ، عند علم يقينا
أن ذلك مطلبه تعالى ، فأمتحن بهذا الابتلاء الذى يعجز عن
تحمله اصحاب العزائم والصالحون الا قليلا ••••

« و ابراهيم الذى وفى » « النجم : ٢٧ »

ومن يقرأ قصة ابراهيم عليه السلام مع ربه ، لابد وأن يشعر بضآلته أمام هذا الانسان العظيم ، ولا بد أن يتفوق داخل نفسه من جلال هذا المشهد الذى لا يمكن أن يتكرر و ابراهيم يهم بذبح ابنه عليهما السلام .

وكما كان ابراهيم عليه السلام وفيا لربه ، مخلصا له تعالى ، كان ربنا أكثر وفاء ، وأعظم اخلاصا ، فأكرمه وأحسن اليه الاحسان الأوفى :

« وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين ، وقديناهُ بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، كذلك نجزي المحسنين » .
« الصافات : ١٠٥ - ١١٠ »

والانسان الصادق اذا وضع نفسه فى تجربة ابراهيم عليه السلام ، لخر راکعاً لله خاشعاً له تعالى ، ألا يمتحنه بهذا الابتلاء العصيب وذلك الاختبار الرهيب ، فمهما كان اخلاصه فانه مع ذلك ضعيف ، ومهما كان ايمانه فهو انسان يتوسقنوط . . .

الوفاء اذن اخلاق الحنيفية السمحاء ، والشريعة المحمدية الغراء ، اذ يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فهو متعة ربانية للمخلصين ، ورحمة الهية للمحسنين ، واذا كان الوفاء مما يحض عليه تعالى المؤمنین ، فإنه يعد قاعدة اساسية للقواعد الأخلاقية فى السلوك والتربية الاسلامية التى تميز المسلم عن غيره . . .

ان الوفاء بهذا المعنى ينسحب الى العلاقات الانسانية ،

فالوفى الى أخوانه قد استمد وفائه من وفاء الله تعالى ، والوفاء له تعالى ثمرة من ثمار الاخلاص اليانة ، والاخلاص ثمرة نقاء القلب وطهارة النفس ، ودليله الاحسان .

والاحسان أعظم الفضائل البشرية قاطبة ، يحظى به أصحاب النفوس المطمئنة ، والقلوب العامرة بذكر الله

والمعجيب أن يضرب المثل بوفاء الكلب ، وهو حيوان أعجمى لا يفقه ولا يعقل فكيف يتسنى له ان يتفهم معنى الوفاء والوفاء اخلاص واحسان

يلوح لنا أن الله تعالى بواسع حكمته وكمال علمه ، قد وهب بعض الحيوانات فضائل يتعلم منها الانسان الجاهل ، ويحاكيها الغافل ، لأنه أصبح كالانعام بل هو أضل سبيلا :

« أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »

« الأعراف : ١٧٩ »

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »

« محمد : ١٢ »

وهكذا نجد بالاضافة الى وفاء الكلب ، قوة التحمل فى الحمار ، والشجاعة فى الأسد ، والحب فى المصفر ، والنجدة فى النمل ، والايتار فى النحل .

وكما نجد بعض هذه الفضائل فى الحيوان ، نجد فيه أيضا رذائل كثيرة كالغدر فى النمر ، والخيانة فى القط ، والدناءة

فى الذئب ، والخبث فى الضبع ، والغضب فى الكلب ، واللواط
فى الخنزير

وقد شغف بعض أبناء أوربا وأمريكا حبا ، بأنواع من
الحيوان ولازموها ملازمة الظل بدعوى مفتراه ، تزعم أن
الحيوان أفضل كثيرا من الانسان . . . وذلك لعمري ليس له
سند ولا دليل من الحق ، انما ينطبق عليه قول الحكماء
الأقدمين من أن الشبيه يدرك الشبيه ، ويصدق فيهم قول عز
من قائل :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »
« محمد : ١٢ »

والوفاء كفضيلة كبرى وعمل صالح ، يقصد اليه الانسان
المؤمن ، من أخلاق الله وخلق نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة
فهو القدوة فى الوفاء ، والنموذج الانسانى الكامل فى الاخلاص
والاحسان أما الكافرون فانهم يجعلون من سلوك بعض
الحيوان ، وطبائع البهائم والانعام مثال يقتدى ، فيتبادلون
مع الحيوان وفاء بوفاء واخلاصا باخلاص ، ويبكون عليه اذا مات
ويصنعون له مقابر مشيدة ، ينفقون عليها آلاف الجنيهات ،
وتزار من حين الى حين ، ثم انهم يضعون عليها أكاليل الزهور
ويضيئونها بالشموع ، والله أعلم ان كانوا سيحشرون مع تلكم
الحيوانات الصديقة .

ان محاكاة الحيوان وتقليد سلوكه ، تبدأ مع بداية

الانسانية عندما قتل قابيل هابيل ، وعجز عن مودة سوءته ،
حتى رأى الغراب يبحث فى الأرض ليوارى غرابا ميتاً ، قال كما
ورد عن الله تعالى :

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فمتهل فأنصحب من الخاسرين ،
فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى
سوءة أخيه • قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب
فأوارى سوءة أخى فأصحب من النادمين »
« المائدة : ٣١ »

ان تقليد الانسان للحيوان الأعجمى لا يتأتى الا من قبيل
الزجر والوعظ والوعيد له ما دام غافلاً عن ربه ، جاهلاً بما
ركبه فيه تعالى من مواهب ، وما حظى به من ميزات الخلق والخلق
التي ميزه بها عن سائر الكائنات ، من عقل وإرادة وقلب
وجوارح ...

لذلك فان الجاهلين يحاكون الأنعام فى طباعها دون وعى ،
وهذا يدل على عدم رسوخ الفضائل فى نفوسهم ، كما يدل من
ناحية أخرى على مسايرة غريزة الحيوان ، وموافقة الهوى
ومتابعة الشهوات ، وذلك من خصال الأنعام وأوصافها ...

ان الفضائل الكبرى ، ومنها الوفاء ، أوصاف يمتاز بها
الانسان المؤمن المخلص المحسن ، الذى يدرك بقلبه السليم ،
 ويفهم بعقله الرشيد ، ويوفق بنفسه المستقيمة الى أفعال الخير
وصالحات الاعمال ... فيقبل على الفضائل عن طواعية

واختيار ، وقد رسخت في عقله وقلبه ونفسه جميعا دون تكلف
أو رياء أو تقليد ولا يقدم عليها نفسا أو رياء أو
استظهارا أو تملقا أو حبا في عرض زائل ، أو شهوة طارئة
أو استجلابا لمدح الناس له والثناء عليه ... انما يفعل ذلك
ابتغاء وجهه تعالى لا يريد من الناس نفعا ولا ضررا

أما الجاحد بآيات الله ، فلا عهد له ولا وفاء ، لا يستظهر
الخير طمعا أو شرها أو طلبا لشهوات نفسه أو اتباعا لهواه ...
يخيل اليك أنه حزين على صاحبه الميت ، فينفق عن سعه على
أرملته وهو شره فيها يكاد يقتنصها لو وجد الى ذلك سبيلا ،
فيظهر طبع الحيوان الأليف ويخفي أنياب الذئب الكاسر ، حتى
إذا ما امتحن عند الشدة ظهرت دناءته وكشف عن سوء طويته :

« كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون »
(غافر : ٦٣ :)

الوفاء اذن من اخلاق المؤمن ، وسماته الطيبة .

وإذا كان لنا أن نضرب الأمثال في الوفاء فما أكثر ما
نجدها في خصال المسلم ، وتاريخ الاسلام العظيم خير شاهد على
صدق ما نقول

« حضر بعض المتخصصين الى مجلس الفاروق عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ، ليحكم في قضية أتهم فيها أحد
المسلمين بالقتل ، ودارت المحاكمة ، وفصل فيها عمر بأقامة

الحد وهو القتل عندما رفض أهل القتيل قبول الدية
 الا أن المحكوم عليه طلب امهاله اياماً ثلاث حتى يوفى لكل
 ذى عهد عهده ويرجع اليهم بعدها ليقام عليه الحد . . . عند
 ذلك طلب أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ضامناً له من بين
 المسلمين ، فضمنه أحدهم ولم يكن يعرفه ، فلما سئل فى
 ذلك ، قال : انى أشتم رائحة الصدق فى كلامه . . .

وسمح للرجل بالرحيل ومر اليوم الأول والثانى وبدأت
 علامات اليوم الثالث فى الأفول ، ولم يحضر الرجل ، فأقتيد
 الضامن ليقام عليه الحد بدلا من الفاعل الأصلي *

وشاهد الجمع على البعد رجلا يجرى نحوهم ويصيح بأعلى
 صوت هأننا حاضر . . حتى اذا ما قرب منهم خط رحاله وهو
 يلهث فاذا به المحكوم عليه . . . لقد وفى بعهده . . . عند ذلك
 تنازل أهل القتيل عن حقهم فى دمه ، لوفائه وصدق وعده . . .
 وأخلى أمير المؤمنين سبيله » . . .

هكذا هى خلق الوفاء التى يمتاز بها المسلم عن غيره ،
 ويتفوق بها المنهج الاسلامى فى السلوك العلمى ، على جميع
 النظم والعقائد والتشريعات البشرية والانسانية . . .

فأى منهج أو نظام أو قانون بشرى يستطيع أن يفرس فى
 نفوس مواطنيه معنى الوفاء تلك الفضيلة الكبرى وذلك
 الخلق الرفيع . . . مثل ما غرس ويفرس وسيفرس الاسلام فى
 قلوب أبنائه معنى الوفاء *

التزهد وصلاح النفس

ان الاحساس بالخربة فى هذه الدنيا ثمرة جهاد واجتهاد ،
وفهم رشيد لحقيقة وجودنا فيها ، وايقان ان راحلتنا ستحط
بنا الى ديارنا فى النهاية أما الى النعيم المقيم او الشقاء المبين .

لا شىء يدوم فى ضيافة الدنيا فالوجوه تتغير باستمرار
كتغير فصول السنين ، هذا ربيع يتحول الى خريف تتساقط فيه
الأوراق الخضراء ، وهذا يتحول بدوره الى صيف كالسعرير ،
يسكب فيه الانسان العرق ليقاوم حرارة الطقس القائل ، ثم
يأتى الشتاء بثلجه وبرده ليتلوى الانسان من الصقيع (١) .
ولو كانت الدنيا ربيعاً دائماً لزهى فيها الانسان ، ولو
كانت حراً قائظاً لهرب منها الى الجبال ، ولو كانت برداً قارصاً
لهبط الى الوديان . . . لكن من فضل الله أنه لا شىء يدوم فى
الدنيا ، والتغير دالة البدء والانهاء ، والحركة تعنى استمرارية
الحياة التى ستتوقف حتماً بعد حين . . .

ورغم كل هذه العلامات الدالة على أن الدنيا لها مكان
وزمان فى الوجود السرمدي ، وأنها كالطفل يبلغ رشده ثم
يهرم كالعجوز ، ثم يدبل كأوراق الخريف لتتلاشى عن
الأبصار . . .

رغم علامات الموت المحقق ، فانه يحلو لبعض الغافلين
افتراش مائدة الدنيا ليحشروا فى جوفهم الفئ والثمين ،

(١) لمزيد من الاطلاع راجع الشريعة الحقيقية للمؤلف

والصالح لهم والطالح ، ويفقدون القدرة على التمييز بين ما ينفعهم فى دنياهم ، وما يضرهم فى آخرتهم .. وينتهى بهم الأمر الى التكالب على متع الحياة الرخيصة ، ويبذلون الغالى والرخيص ، ويجهدون أنفسهم فى الحصول على الحظوظ واللذات المتوهمة وهم غافلون .

لو صدقوا مع أنفسهم ، ولم تعشش الأوهام فى عقولهم ، ولم يتناسوا رسالاتهم ، ولم يتغافلوا عن حقيقة اليقين ، لتغير الأمر ، وسلوكوا سلوك الغرباء فى ذهابهم واياهم ، فى مأكلهم ومسكنهم ومشربهم .. فى ما لهم وما عليهم .. لكن الأمر ليس كذلك ، اذ يصبح الضيف بين عشية وضحاها ، صاحب البيت وهماً وافتراء ، ويستبد به الوهم فيظن أن كل شىء فى حيازته هو ملك خالص له .. ولا يتردد فى أن يقاتل غيره ليحصل على أكبر منفعة ممكنة ، ويظفر بنصيب الأسد فيما يعتقد أنه يسعده ويغنيه .. وتشد ساقية الدنيا كل من تستطيع أن تشد اليها ، وتحكم الغمامات على أعينهم ، ثم تربطهم فى حبائلها وتدور الساقية ويدورون معها ثم يتعب منهم من يتعب .. ويتساقط الواحد تلو الواحد ، ليربط صيداً جديداً .. حتى اذا ما عصرته الدنيا عصراً سحبت من ساقيتها وألقت به فى الوادى السحيق .

والعجيب أن الانسان فى هذه الحالة ، مثله كمثل الفراش يرى النار المحرقة فيحسبها نورا واشراقاً . فيتكالب عليها ليسقط قتيلاً .. ولا يتعلم الانسان كما لا يتعلم الفراش من تجارب من سبقوه ، وما لاقوه من ضراوة الدنيا ، وظلمها لمن فتنه من الناس والعباد .. ان صداقة الدنيا لأمر مستحيل ، وطول

الآمل فيها وهم لا طائل من ورائه ، واتخاذها دارا ، خداع
للنفس وكذب وبهتان على الحقيقة ..

مادام الأمر كذلك فما هو السبيل الحق ؟ .. وما هو
الطريق الذى يتوجب على الانسان فى الدنيا اتباعه ؟

عاش نوح عليه السلام ألف عام الا خمسين .. ولما سئل
عن الدنيا أجاب : ما وجدت الدنيا الا دارا دخلت فيها من باب
وخرجت من آخر « (١) ومن هذه الموعظة الحسنة لنبي مصوم ،
خاض التجربة الدنيوية مئات السنين ، يتبين للمتأمل انه لا أمل
له فى توثيق عرى الصداقة مع الدنيا ، اذ لا أمن معها ولا أمان
لها ..

ويقتضى الأمر اعادة التفكير فى أمر دنيانا واتخاذ القرار
المناسب لتحديد التعامل معها ، واستخدام الأسلوب العملى الملائم
للدفاع عن أنفسنا ضد فتنها واغراءاتها ..

ولا سبيل الى ذلك الا باعتبار الدنيا مخيم مؤقت فى رحلة
قصيرة ، وأننا عابرو سبيل ما نفتأ أن نشد رحالنا الى مكان
بعيد ..

ان الاحساس بالغربة فى الدنيا يجب أن يسود كل حياتنا ،
وبذلك نتخلص من فتنها وشهواتها ومائدتها التى لا تشبع
أحداً ..

وللغريب أوصاف وخصائص ومواصفات ، فهو يتخلق

(١) احياء علوم الدين — الامام الغزالى ج ١٣ « كتاب الشعب »

بخلق الأنبياء ، ويتسلح بزهد الأتقياء ، ويتقوى على الدنيا
بالأفعال الصالحة وأعمال البر النافعة ..

وموائد الغرباء فى الدنيا قليلة ، فلا يأكلون الا جوعى
ولا يشربون الا عطشى ، ولا ينامون الا لماماً ، حياتهم جهاد ،
نهارهم عمل دائب وليلهم ذكر دائم ، أياديهم تمسك بالدنيا
وقلوبهم دوما مع الله ، وهم بين الخوف من وعيد الله ، والرجاء
فى وعده تعالى قانتين . لا يرون لأنفسهم فضلاً على أحد وان
أمضوا جل حياتهم فى تقديم العون وخدمة الناس والعباد ..

المابرون من الدنيا الى الآخرة يجتازونها كأنهم فى
قارب نجاة ، من تحتهم موج متلاطم ومن فوقهم رب رحيم ،
يخافون أن تشدهم الدنيا فيغرقون فى مفاتها ، ويقعون فى
خطاياها ، ويسقطون فى هاوية الغافلين . . . ويرجون أن
ينتهى مقامهم فى قارب النجاة على خير حال ويصبحون وقد
وصلوا الى شاطئ الأمن والأمان ليجدوا فى انتظارهم رباً
كريماً غفوراً رحيماً .

وربما يضحك الغافلون على سلوك الغرباء ، ويسخرون من
تصرفاتهم حيال الحياة الدنيا ، ويتهمونهم بالسلبية والانعزال
لتباعدهم عن الناس والعباد ، وتقربهم الى حياة التأمل والذكر
والتعبد لله ..

لكن الذين يسخرون منهم اليوم سيندمون فى الغد القريب ،
حيث يقولون انا كنا من الغافلين وهؤلاء كانوا من المخلصين
الصادقين .. سيمرون كعابرى سبيل فى الجنة ليروا المخلصين
وقد نعموا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر .. لقد أصبحت الجنة سكناً دائماً لهم ، وأنسا مقيماً ..
وراحة أبدية يتنعمون فيها *

لا يحزنون أبداً ولا يفتمون ولا يألمون ولا يمرضون ..
استقرت حياتهم بلا زمت ولا حصر ولا قلق ولا فراق ولا
وداع .. سعدوا بلقاء ربهم وهو نعم الأنيس الكريم ..

يمر أصحاب الدنيا من الغافلين ويعضوا على أناملهم من
الغيظ .. ليروا الجنة ونعيمها وهم يقولون : يا ليتنا سمعنا
وأطعنا .. يا ليت دنيانا لم تخدعنا .. يا ليت ترجع حياتنا
الدنيا ، لنخلص لله كما اخلص المخلصون ، ونرجع عن غيبننا
وقساوة قلوبنا وضحالة أفكارنا وبعدنا عن الحق المبين *

لكن الدنيا فى الآخرة حلم مضى وولى ، وذكرى مفرحة لمن
اتقى ، وأليمة لمن غفل وضل ، يقول الظالم لنفسه : يا ليتنى كنت
عاملاً لله ، ويقول الصالحون : الحمد لله * اننا لم نشرك بربنا
أحداً ..

ألا يجدر بالغافلين وهم ما زالوا يعيشون فى الأرض فسادا
وافسادا أن يصحوا من غفلاتهم ، وأن يهبوا من نومهم ،
ليفعلوا ما يصلح لدنياهم وآخرتهم ..

ان لحظات العمر قليلة ، تمر مر السحاب ، وتنقضى
مثل السراب ، كحلم مزعج أو سراب يحسبه الظمان ماء ..
ثم تأتى الساعة على حين غرة فترتعد القلوب الغاشية ويموت
الظالمون كمدا ورعباً .. ويجرى يوم الحشر العظيم ، أصحاب
الدنيا ، هنا وهناك لعلهم يجدون سبيلاً ينقذون به جلودهم ،

— ١٦٧ —

من محارق الآخرة ، لكنهم يجدون دنياهم قد ضاقت عليهم
وأصبحوا في قبضة الرحمن .. لا ملجأ لهم إلا إليه ..
ولا مهرب لهم من العذاب الآليم ، فيقذفون في سائر جهنم وقوداً
لنارها المتأججة .. حتى إذا ما تلاشوا فيها اعيدوا اليها وألقوا
فيها من جديد ..

أما الصابرون فقد تحققت لهم كل مباحج النعيم ،
وأفردت لهم موائد مما يشتهون وما يحبون ، واستجيب لهم
ما يطلبون وما يرغبون .. يقولون قد صدق ربنا ما وعدنا حقاً
اذ قال : « وبشر الصابرين » ..

الطاعة

يقال في اللغة ، شخص طائع .. ومطيع .. والطوع
 ضد الكره ، أى الاستجابة والانقياد ، وكلها بمعنى .. لان ..
 وانقاد ..

فاذا مضى الشخص مؤتمرا بأمر .. فقد طأوعه ..
 واذا وافقه فقد اطاعه ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى :

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها »
 « آل عمران : ٨٣ »

وقوله تعالى :

« ويقولون طاعة » « النساء : ٨١ »

كما ورد هذا المعنى فى قوله تعالى :

« سمعنا وأطعنا » « البقرة : ٢٨٥ »

وكل هذه الآيات الكريمة تدل على معنى الطاعة الذى
 يخالف طبع النفس التى جبلت على عمل المخالفات ، وحسب
 المعاصى والانقياد الى حظوظها وشهواتها والنزوع الى اللذة
 وكراهية الصبر على الألم ..

فالنفس الانسانية تجد لذتها فى فعل المحظورات ، كشرب
 الخمر ، والزنا ، والفواحش ، وكلها علامات الغواية والضلالة ،
 وهذه النفس تثقل عليها الطاعة والعبادة ولا تجد حلاوة لها فى
 القلب ، بل تسهل عليها المعصية ، وتجد حلاوتها فى نفسها ..

ومعنى ذلك أن الانسان لم يصدق فى توبته ، لأنه لو صح الأصل لصح الفرع ، ولو تبصر الانسان لأطاع مولاه عز وجل ، كما يطيعه خادمه ، فاذا ما كان له خادم فيجب أن يجده عاملا من أجله ناهضا لخدمته ، بل يجب منه الطاعة ، ويطلب منه أن يسرع الخطى لقضاء حاجاته ، ويتعجل دائما تنفيذ ما يأمره به .

لو طبق الانسان طاعة خادمه له ، وأطاع ربه مثل ما يطيعه خادمه ، لكان ذلك فضلا وخيرا .

لكن الانسان كثيرا ما يقف على أبواب الخلق مهانا ذليلا ، ومع ذلك لا يرجع لخالقه لأنه مشغول بغيره ، ولو تبصر ما وجد من يستحق الطاعة غير الله عز وجل .

كما تميل النفس أيضا الى المعصية والتى نجدها ممثلة فى الفاجر . . . والفاسق والكافر . . . والمعاصى على هذا النحو ، أفعال واضحة جلية ، يحكم بها صاحبها بالخروج عن آداب الدين ، ويتهم بالتقصير فى السنن الواجبة والآداب ، ويقتص منه اذا خرج عن الشريعة الاسلامية ، وذلك باقامة الحد عليه . .

أما الطاعة لله ، فالحكم على صاحبها جد عسير ، لأن هذه الطاعة باطنة خفية ، اذ يظن بعض الناس أن الطاعة لله هى ورع ظاهر وخشوع وتقوى ظاهرة ، فيتقربون الى الله بالصوم والصلاة والتزهد فى الحياة الدنيا . . . ولكنهم فى الحقيقة يخفون فى قلوبهم المريضة نفوساً أمارة . . . وقلوبا جاحدة . . . وظلمة وحقد وحسدا . . . واعتراضا على خلق الله وميلا الى العدوان . .

وليس من اليسير أن تنكشف سريرة هذا الشخص . ويتضح

أمره ، اذ أنه يتستر بالطاعة بغية تحقيق شهوات نفسه المريضة ، ويستظهر تقوى كاذبة لله أمام الناس ، أما قلبه المظلم فممنشغل بغير الله ، وهو يقوم فى ظاهره بالطاعات وآداء التكاليف وأعمال البر ، الا أنه يقصد من ذلك اهتمام الناس به واقبالهم عليه ، وثنائهم على ورعه وتقواه . .

وهدفه من ذلك مدح الناس له ووصفهم له بالاستقامة والصلاح ، كما انه يرغب من تلك الطاعات فى الشهرة والجاه وحب الظهور ، فيرضى بذلك نفسه المريضة وقلبه المحجوب عن الحق .

واذا أردنا ان نمتحن ايمان ذلك الشخص ، فاننا نجده يتبرم ، اذا لم يثن الناس على أفعاله ، ويحزن اذا لم يمتدح الناس تقواه وورعه وخشوعه ، بل أنه يهاجم من يقصر فى احترامه ، ويعتدى على من يتراخى فى تبجيله ، ويتوعد من لم يسرع الى خدمته والعمل على راحته ، فهو يعتبر نفسه مستحقا لثناء الناس ومدحهم وهو فى واقع الأمر مريض النفس . . ليس تقياً ولا طائفاً ، ولا مخلصاً . . انما هو مصاب بداء عضال يصعب تقويمه وعلاجه ، لأن مرضه خفى مستور ، يستعصى على غير العارف معرفته ، لأنه يحتاج الى فراسة وبصيرة ، بل ومعرفة بخفايا النفس وخواطرها ، اذ أن هذا الشخص . . يتخفى تحت ستار الطاعة وهو عاص مشغول بهوى نفسه ليحقق لذاته وشهواته النفسية .

أما الفاسق والعاثر والفاجر ، فانه من اليسير الحكم على سلوكهم ، وأخلاقهم الدنيئة وذلك من خلال أقوالهم وأفعالهم . .

بخلاف مدعى الطاعة والصالح والايمان والولاية فانهم جميعا
يظهرون غير ما يبطنون فيظهرون الأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ويهرعون الى أعمال البر وأداء التكاليف والعبادات ..

ومن هنا لا ينكشف أمرهم الا بطول تأمل ، ولا يتضح
فسادهم الا باختبارهم فى الرياضات والمجاهدات ، فهم أصحاب
الرياء الخفى الذى يستغلق على كثير من الناس معرفته ، وهو
نوع من الشرك الخفى ، لأن صاحبه يعتبر نفسه صاحب مقام
عال .. فنفسه غرورة ، متكبرة .. تنازع الله سبحانه وتعالى
فى جبروته وملكوته ، وتعتبر أن من يجهل درجتها فى العلم
والولاية انما هو جاهل .. يستحق التأديب والتربية .

لذلك تنزع هذه النفس التى هذه حالها الى التوعد والوعيد
لكل من يقصر فى حقها وهذه دعوى كاذبة .. كما تدعى انها
نفس قريبة من الله سبحانه وتعالى ، مرادة له تعالى ، وأن من
لا يعرف ذلك عنها فهو عدو الله ..

ويرى بعض الأئمة أن المراد بالطاعة فى القلب ، ويقول
فى ذلك :

« أعلم أنه اذا ثقلت عليك الطاعة والعبادة .. ولم تجد
حلاوتها فى قلبك ، وسهلت عليك المعصية ، ووجدت حلاوتها فى
قلبك ، فمعنى ذلك انك لم تصدق فى توبتك لأنه لو صح الاصل ،
صح الفرع » ..

ثم يقول :

« فيا ليت تطيع مولاك كما يطيعك خادمك ، فأنت تحب

عاملك ناهضاً على خدمتك ، بل أنت تحب منه الطاعة ، وتطلب منه دائماً أن يسرع فى قضائها كأنك « أبداً » فى عجلة من أمرك » (١) .

ويمكن التمثيل لمعنى الطاعة بقصة ذلك الملك الذى كان يؤثر أحد عماله على غيره من المساعدين والخدم ، مما سبب فى حقدهم على هذا العامل . . . وتعجبوا كيف يقربه الملك اليه ويؤثره عليهم ، وهو أقلهم شأنًا ، وأضعفهم حيلة . . .

ولما علم الملك منهم ذلك ، طلب ان يعد رحلة صيد . . . واستصحب معه أكثر حاشيته . . . ولما وصل الملك الى مكان الصيد اتجه بنظره الى الجبال من حوله . . . وكان يقف عامله المقرب الى قلبه بجانبه . . . واذا به يغيب . . . وبحثوا عنه فلم يجدوه .

وبعد مدة من الزمن حضر حاملاً بين يديه قطعاً من الثلج . . . فلما سألته حاشية الملك عن سبب استحضاره الثلج ولم يطلب منه الملك ذلك . . . رد الملك عنه قائلاً :

« هذا سبب محبتى له وقربه الى قلبى ، فهو لا يكف عن ملاحظتى لأنه مشغول بى دائماً . . . ومن كثرة اهتمامه بأمرى ، يعرف ما يدور بخلدى . . . أما انتم فمشتغولون بحفظ أنفسكم . . . » .

وسألت بعض الحاشية العامل :

(١) راجع للمزيد « الشريعة والحقيقة » للمؤلف
(٢) التنوير فى اسقاط التدبير - ابن عطاء السكندرى ص ٩٣

كيف عرفت ان الملك يريد شيئا من الثلج ؟

فقال :

« لما نظر الملك الى قمم الجبال .. ونظرة الملوك لا تخيب ..
ولا يمكن أن تكون بلا دلالة ، ألهمت أن الملك يريد شيئا من ذلك
الثلج .. فذهبت واستحضرت قطعاً منه .. »

والذى يهمنى فى هذه القصة ارتباطها بالاخلاص ..
ودلالاتها العميقة فى معنى الطاعة .. وتعالى الله عن التشبيه
والتمثيل .. ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ..

فالطاعة الحققة هى القائمة على الانشغال بالله ، والعمل على
ارضائه واسقاط التدبير معه تعالى .. فلا ارادة للعبد مع
الرب .. وهنا يحظى بقربته ، ويلهم من لدنه علماء ويفيضر
عليه بنعمه وعطاياه .. فضلا ومنة ..

فالعامل الذى قربه الملك لانشغاله به ، انما استحق ذلك عن
جدارة لاخلاصه وطاعته .. فما بالك بالتقرب الى مالك الملوك
وانشغال العبد به .. وطاعته له .. ألا يحبه ويرضى
عنه .. ويمن عليه بما لا عين رأت .. ولا أذن سمعت ، ولا خطر
على قلب بشر ..

- ١٧٢ -

القنوت

ما أعظم ذلك الفرق بين القانت والقانط ، بين الطائع لله ،
وبين يائس من رحمته ، بين الصادق مع الله ، والكافر بنعمته ،
بين الصابر لله وفى سبيل الله ، والمعترض على حكمته والمتحدى
لبلائه وابتلائه ...

أنه لجد فرق عظيم حقاً بين أهل الدنيا ، وأهل الآخرة ،
بين أصحاب الجحيم وأصحاب النعيم ... يقول تعالى عن أبى
الانبياء :

« ان ابراهيم كان آمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين »
« النحل : ١٢٠ »

فالقانت موحد بالله ، صادق الوعد معه تعالى ، لا يطلب
من حوائج الدنيا وحظوظها الزائلة ... الا ما قد قسمه الله
له ، ولا يطالب بحاجة لم يقسمها الله تعالى ولا يحتج عليها ...

والقانت طائع لله ، والطاعة دليل العلم بالله ، والعمل
لله والاخلاص له تعالى ... والقنوت منتهى الطاعة (١) ،
والطاعة هى مخالفة لطبع النفس الأمارة التى جبلت على حب
المعاصى ، والانقياد وراء الشهوات ، والنزوع الى طلب اللذات ،
وولوج الطرق السهلة واليسيرة طلباً للراحة وحباً فى الكسل
الخمول ... وهذا كله من غواية الشيطان والضلال المبين ..

(١) راجع المزيد « الشريعة والحقيقة » للمؤلف

ولم تجد حلاوتها فى القلب ، والنفس اذ تركت لأهوائها دون
تربية أو هدايه ثقل عليها معنى الطاعة ، وسهل عليها آتيان
للمعصية ، وأقتراف الفواحش ، ووجدت حلاوة ذلك فى القلب ،
فاذا لم يكن الانسان تائباً التوبة النصوح لم يكن طائعاً
ولا قانتاً لله ...

« فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله »

« النساء : ٤١ »

لو أطاع الانسان ربه ما غوى وما عصى ، ولا وقف بباب
الخلق يلح فى الطلب والرجاء مهاناً ذليلاً ... لو أطاع الانسان
لوجد أنه تعالى وحده المجيب لطلبه ورجائه على الحقيفة ، المعين
على الدوام ... المنعم عليه على الاستمرار *

ان هذا الكون الفسيح العريض ، بما يحوى من أرض
وسموات تسبح بحمد الله ، أناء الليل وأطراف النهار لاتعرف توقفاً
ولا راحة ولا مللاً ، تشكره تعالى على نعمائه ، اذ لا تعرف معنى
الاعتراض أو العصيان أو التحدى لأمر الله وعظم حكيمته ...
فالكون كله مطيع لله ، قانت له تعالى ...

فما بال الانسان يغفل ويتغافل ، وينسى ، ويدعى ويزعم ،
ويجادل فى الحق ... الذى * يرضى به تعالى ، كما حذره من
طريق الباطل وغواية الشيطان ... الا أن الانسان مع ذلك
يعصى الله كثيراً ويطيعه قليلاً ،

ولماذا يكون الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يقنط من
رحمة الله ، ويعترض على أمره ، ويبأس من عدله ، ويتحدى

علمه وحكمته لماذا يفرح الانسان عندما يأتية الخير وينسبه الى نفسه ويقرنه بعلم عنده ويباهى بقدراته ، ويدكى عمله . . وينسى خالقه الذى يسر له ذلك الخير ، ووبسط له يد النعمة . وأكرمه بها . . . فاذا ما تغير الحال وقبض تعالى يده عنه ، وأمتحن بالمحن والصعاب ، وأبتلى بالنقص فى المال أو الولد أو العافية ، وأختبر ببعض المتسائب والبلايا ، فما باله على حين غرة . . . تتغير نفسه . ويسود قلبه ، ويضعف الأمل عنده ويضيع رجاؤه فى الله ، فيمرض حزنا وكمدا ، معترضا على حكم الله يائسا من عدله ، شاكيا طالبا رفع الظلم عنه ، وازالة المصيبة التى أحيطت به ، ومازال على هذا الحال قانطلا يائسا الى أن يتوفاه الله ، أو تنزل به رحمة منه تعالى . . . « لايسئ الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط » « فصلت : ٤٩ »

والياس أعلى درجات القنوط ، والقنوط انقطاع الأمل فى الخير ، والياس منه ، والياس صفة ملازمة للمشرك والكافر . . . لأنه يظن الدنيا يجب أن تسير وفق هواه ، وتمضى الأمور بحسب ما يرغب وما يرغب وما يهوى . . . فاذا جاءت بخلاف هواه ، ضاق وتبرم ويأس من رحمة الله وفضل الله وحكمة والله . . . اذ هو شديد اليأس فى الخير والبركة . . .

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضانون »

« العجر : ٥٦ »

ان الله تعالى يمتحن عباده بالابتلاءات . ويجرب صدقهم بزيادة المال ونقصه ، وبكثرة الولد وبقلته ، ليعرف القاتين منهم والقانطين . . .

ويبدو القانط خاملا متبطلا بليدا مفتور الهمة ، مسلوب الارادة ، ضعيف النشاط والحيوية ، كأنه ايكم لا يتكلم ، أصم لا يسمع ، دائم الخوف والفرع *** يعيش فى رعب دائم ، وفرع مستمر :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمه ثم نزعناها منه انه ليئس كفور »
« هود : ٩ »

والقانط بهذا المعنى تتبدل حركته ، ويخمد جسمه ، وتسود الدنيا فى عينه ، وتكتنفه الهواجس والوساوس ، ويسحقه القلق والزمّت ، ويعتريه شعور بالحقد على الغير ورغبة جامحة فى العدوان على الآخرين *** وأحيانا تؤرقه هذه المشاعر الأليمة ، والأحاسيس المبغوضة ، فيوجه يأسه الى نفسه ويقنط فيقدم على الانتحار ** وبذلك يضيع دنياه وآخرته ***

ما أعظم الفرق بين الفرق بين القانت والقانط ، فالأول يحيا فى أمن نفسى ، ويعمر قلبه الأمن والطمأنينه والسكينة ، فلا يشكو ولا يتبرم وانما يحافظ أبدا على حقوق الله ، ولا يترك فرضا من فروضه ، ولا يهمل تكليفا من التكاليف الشرعية *** ولا يتكاسل عن واجب أمر به تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يؤخر عملا من أعمال البر أو أفعال الخير ..

أما القانط من رحمة الله ، فهو عدو لنفسه وربّه جميعا ، فقد فى قلبه الرحمة بفقد رحمة الله وضل ضلالا بعيدا *** اللهم اجعلنا من القانتين حتى نعبدك حق عبادتك .

الباب الثالث

(وسائل التربية الاسلامية)

الفصل الأول :

١ - القدوة

٢ - المحاكاة

٣ - التكلف

٤ - الطبع والتطبع

٥ - التعلم الشرطى

الفصل الثانى :

١ - الترغيب والترهيب

٢ - التخلّى والتحلّى

٣ - الوعظ والموعظة

٤ - التوجيه والارشاد

٥ - التمثيل بالقصص

مقدمة :

يعتبر العلم أهم خاصية يمتاز بها الانسان المسلم المؤمن ،
ذلك لأن نقيض العلم هو الجهل • والجهل هو عدو الاسلام الأول ،
والجاهل عدو نفسه والناس جميعا • • وأفضل العلم ما اقترن
بالعمل ، وأفضل العمل ما اقترن بالاخلاص • • والعالم الذي
يبتخل بعمله مثل دودة القز التي تنشغل طوال حياتها بغزل خيوط
الحريز ، وتكد في ذلك كدا عظيما ، ثم ما تلبث ان تلفة حول
شرنقتها فتموت اختناقا فلا استفادت ولا أفادت غيرها •

أما العالم الذي يوجد بعلمه فقد أكرم في الحديث النبوي
كثيرا • • وزكاه الله تعالى في آياته البينات :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات »
« المجادلة ١١٢ »

« فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي » (١)

« فضل العالم على العابد كفضلي على أذناكم » « من حديث
للترمذي عن أبي أمامة » (٢)

ولاريب ان نجاح التربية مقترن باخلاص العلماء ، وتطبيق
منهج الله في السلوك والعمل ، والاخلاص في العلم ، ويمكن أن
ينشأ جيل من الشباب المسلم يحمل الرسالة ، ويؤدي الأمانة ،
وبذلك يتكون المجتمع الطاهر المتحضر النقي التقى •

(١) ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » مع تغير في اللفظ وقال أنه
نسيف ، كما ذكره الخطيب عن أنس
(٢) قال عنه السيوطي في جامعه أنه حديث صحيح

فالتربية الاساسية فى الاسلام اذن ، تقوم على العلم ، وليس العلم المقصود هنا العلم المادى فحسب ، وانما العلم المادى والروحى جميعا . . وهما يسيران جنبا الى جنب فيغذى الروحى المادى بأهدافه ومقوماته الاسلامية ، وينشط العلم المادى فيدفع الروحى الى الايجابية والجهاد والسعى من أجل الرزق ، فلا تتحكم المادية فتصير افراطا ، ولا تتحكم الروحانية فتصبح تفريطا وشحا .

وهكذا تختلف وسائل التربية الاسلامية عن وسائل التربية فى جميع النظم والفلسفات التربوية الغربية والشرقية ، ذلك لأن تلك النظم تركز على جانب واحد فى الانسان اما الجانب المادى أو الروحى . . وهذا ما ينشأ عنه الصراعات والقلق والخوف من ناحية ، وللامبالاة والشهوانية والأنانية والعدوان من ناحية أخرى ويفتقد التوازن والاعتدال والقسط فى ضمير الفرد والمجتمع جميعا . . وقد استخدم العلماء المسلمون طرقا وأساليب تربوية ، سبقوا بها الانظمة الغربية والوسائل التربوية الحديثة بقرون عديدة نعرض لها فى الصفحات التالية

(١) التربية بالقُدوة :

وهى فى اختيار الشخصية المتكاملة ، التى يمكن أن يتخذها الطفل أو الشاب قدوة له ، فتصير الأنموذج المثالى للشخصية التى يود أن يتشبه بها فى عمله وسلوكه وأخلاقه . . ولا شك أن اعظم شخصية على الإطلاق وفى كل زمان ومكان هى شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يأت الزمان بمثله ، ولم يرفع عند الله احد مثله ، لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ورباه تربية ربانية ليكون للعالمين نبياً ورسولاً الى ان تقوم الساعة .

والرسول الكريم صلوات الله عليه ، حياته ومماته وتاريخه وسيرته ، مدونة ومتواترة ومؤيدة من مصادر عديدة ، فليس هناك غموض ولا التباس ، ولا ظن أو تأويل عن شخصيته وأخباره وأقواله وأعماله ، كما نجد ذلك فيما سبقه من الرسل ، الأمر الذى يؤدى الى التشكك والبلبلية كما هو الحال عند بعض النصارى الذين يزعمون ان شخصية المسيح عليه السلام وهمية وغير حقيقية ، أو يتصور بعضهم انه اله نزل الى الأرض لفترة من الزمان ، ثم قتل وعاد الى السماء .

ان الاقتداء بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان خلقة القرآن فقد عمل به ، وسلك طريقة وتأدب بأدابه فى مأكله ومشربه وغدوه ورواحه وكلامه وعمله . . ان الاقتداء به لهو الطريق الموصل الى التربية السليمة ، فهو كالسراج المنير الذى يشرق به قلب المسلم ، فيتعرف بسهولة ويسر على ما يجب فعله ، وما يجب الانتهاء عنه من أفعال وأعمال .

وهذه هى المكرمة التى كرم بها الله تعالى أمه الاسلام ،

فأوحى الى النبی العربی الأمی ، وبعثه نبیا ورسولا لیدعو الناس
كل الناس الى الوحداثیة ، واتباع شریعة الله والعمل بكتابه
القرآن الکریم •

فأى قدوة یجدها المسلم أفضل من هذه القدوة ، وأى تریة
یمکن أن یربى علیها أفضل من التریة المحمدیة •

ان فى السیر على منهج الرسول الکریم علماً وعملاً ، لهو
الطریق الموصل حقا الى السعادة فى الدنیا والآخرة •

ولقد سار أصحابه الکرام الأبرار على هدیه ، واتبعوا سنته ،
وطبقوا تعالیمه وأحادیثه وأقواله ، دون أن یمخرجوا عنها قید
أنملة • • فتعلموا کما لما یتعلم أحد بعدهم ، وتربوا کما لم یرب
أحد مثلهم ، وأخلصوا العلم والعمل ، فلم یسبقهم أو یجاریهم
أحد فى الآداب والعلوم والسلوک والأخلاق •

وهكذا اثمرت التریة الاسلامیة ، عن طریق الاقتداء
بشخصیة الرسول ثمارها ، وأزدهر المجتمع الاسلامی ، وفتحت
البلدان والدول ، وانتشر العلم فى كل مكان من هذا العالم ،
بفضل هؤلاء الصادقین المخلصین العاملين بعلمهم • • واشرقت اوربا
بالعلم الاسلامی بعد الظلمات ، وأخذوا عن المسلمین علومهم
وحضارتهم ، واستفادوا من التابعین وتابع التابعین ، الذین
تأدبوا بالآداب الاسلامیة ، وتربوا على منهج الله القویم •

ان التریة بالقدوة الحسنة ممثلة فى شخصیة الرسول صلی
الله علیه وسلم ، لهى السبیل المشرق للأجیال المقبلة ، وان ترك
الاقتداء به ، لهو الطریق المسدود الذى یصل الیه الشباب ،
التعس الضائع •

ولاشك أن الدعاوى المفرضة ، التى تبثها سموم أصحاب الغزو الفكرى الالهادى ، هى التى جعلت الأمة الاسلامية على هذا الحال من التخلف والأمية ، اذ اقتدى المستغربون والجاهلون بمنهج التربية الغربية ، وأصبح أسلوبهم فى الحياة ، وطابعهم المميز فى السلوك ، وأنبهروا بفنون الغرب ، فقلدوا أفعالهم وتشككوا فى الاسلام واتهموا اصحابه بالجمود .. ونسوا دين الله واتخذوا الالحاد والوثنيات الحديثة .. التى تدعو الى عبادة الجنس ، والسجود للعقل ، وتألية الماديات والحسيات ، وتنكر خلاف ذلك اسلوبهم .. اتخذوا الفصل بين الدين والعلم شعاراً لهم ، حتى يتمكنوا من ارواء شهواتهم . وتلبية مطالبهم الدنيئة وزعموا أن الحرية الفوضوية هى طريق التحضر والمدنية ، والقوة المادية هى سبيل البقاء والنجاح والسعادة .

ولقد تفشت هذه المزاغم اللا أخلاقية ، وزحفت من الغرب قاصدة تدمير مقدسات المسلم ، والقضاء على أخلاقياته وقيمه ومثله العليا .

لذلك وجب على كل مسلم ومسلمة الجهاد من أجل نشر التربية الاسلامية والاقتداء بالسنة المحمدية ، والعمل لايقاف هذا الزحف الهدام ، وذلك بالتمسك بالشريعة السمحاء ، وولوج كل طريق للدعوة للرسالة المحمدية .

ولاشك أن القدوة تؤثر تأثيراً خطيراً فى المقتدى ، وتبدأ من الوالدين ، فاذا كانا ذا أخلاق حسنة وتربية قويمه ، فان ابنائهما يحاكون ويقلدون أفعالهما وأعمالهما ، اذ الطفل يحسن الظن بأبويه ويثق فى كلامهما ثقة عمياء .. وتؤثر فى نفسيته

نصائحهما وتوجيهاتهما وارشادهما ، ومن ثم يجب أن يقوموا بتوجيه الطفل توجيهها مستقيماً ، فلا يستخدمان القسوة والغلظة ، ولا اللين الشديد والتسيب . . بل يجب أن يكونا فى لين مع الحزم . . وان يرشدها الى الطريق الحق . . ويعاوناه على تفهم دينه القيم ، ويساعدها على معرفة المفاهيم والقيم الاسلامية .

ثم يأتى بعد ذلك دور المدرسة ، ويعتبر المدرس أمام التلاميذ القدوة الحسنة ، فهو الذى يقومهم ويؤدبهم ويعلمهم . وقد كفلت له طبيعة وظيفته ، أن يكون قيماً عليهم ، موجهاً لهم ، ومن ثم يجب أن يقوم بهذا الدور الخطير بامانة واخلاص ، وقد أصبح للتلاميذ قدوة ، فاذا تخلى عن رسالته افسد جيلاً ، وخان أمانته ، وضع حياته الدنيا سدى ، وفى الآخرة له عذاب عظيم .

ان التربية فى الدول المتقدمة تكنولوجيا ومادياً . . تعاون على تنشئة المواطن الممثل للقوانين والأنظمة ، الحريص على اتباع ما نشرته الدولة من قواعد ولوائح ، تحرم تصرفات وتبيع تصرفات ، وتمنع عنه اشياء وتبيع له اشياء .

فاذا أباحت تلكم القوانين الربا ، سعى الانسان لتحقيق أكبر ربح ممكن .

واذا أباحت العلاقات غير المشروعة أعطى لنفسه هذا الحق ليحقق أكبر لذه ممكنة .

واذا أباحت الرأسمالية الاحتكار ، عمل على أن يحق لنفسه مركزاً مالياً قوياً ، حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين . . ولو عاش هو ومات الآخرين . . وكان قانون الغاب هو الذى

يحكم تلك العلاقات بين الناس والذي مؤداه : « فلأعش أنا وليمت الآخرين » *

وقد عملت الصهيونية العالمية على ترويج شعارات اللامبالاة والحرية الفوضوية ، حتى تنهار القيم والأخلاق ، ومن ثم يمكن السيطرة المادية على اقتصاديات العالم ، وجعله منقاداً لأفكارها التدميرية ورغباتها المادية التي لا تشبع .. ولهذا فقد جندت بعض أعوانها من العلماء الغربيين للترويج لكل فكر فاسد ، ومذهب منحل ونظرية كاذبة ومزعومة .. وقد فضح كل ذلك كتابهم « برتوكولات حكماء صهيون » فتقرأ فيه دعاويهم المغرضة وأهدافهم الرخيصة التي منها :

« يجب أن نعمل على انهيار الأخلاق في كل مكان من العالم لتسهيل سيطرتنا عليه » ..

« ان فرويد منا ونحن منه » ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس .. لكي لا يبقى في نظر الشباب ثمة شيء مقدس .. وليصبح كل همه ارضاء شهواته الجنسية .. لقد روجنا لفرويد ورتبنا له ، ليصبح كل هم الشباب التحلل من الدين .. ولا شك أن الأثر الهدام الذي يحدثه الفكر اليهودي واضح لنا بكل تأكيد *

لقد نجحت الصهيونية فعلاً في القضاء على الايمان من قلوب غالبية المسيحيين ، ولم يبق بين النصارى الا المتشكك والملاحد والكافر بالله .. الا أن الصهيونية لم تكتف بالقضاء على الايمان بالمسيحية ، فلن يشف غليلها الا القضاء على الاسلام من

قلوب أبنائه ، وهذا التخطيط يستهدف منه اخلاء العالم من
الايمان ، ليسهل السيطرة عليه بعد تقويض عرى الدين ..
وافساد الأخلاق ..

انه لمن الغريب حقاً أن نجد التلمود ، وهو كتابهم المقدس
المحرف ، يدعو الى القتل والابتزاز والاستغلال ، وابتداع
الأيدولوجيات اللاأخلاقية التي تعاون على التصارع الدموى ..
ولا يهم اليهود الكثرة العددية ، بقدر ما يهمهم السيطرة على
مراكز المال والاقتصاد وتوجيه الاعلام .. وبهما حققت
الصهيونية اغراضها الدنيئة فى توجيه السياسات فى الغرب
الرأسمالى والشبرق الشيوعى ، من أجل دعم مجد اسرائيل ،
واسرائيل وحدها .

لذلك فان واجبات المشرفين على مؤسساتنا الثقافية ، أن
يضعوا المنهج الاسلامى الواجب الاتباع ، وان يتفحصوا كل ما
يقدم لابنائنا من أفكار ومذاهب ونظريات غريبة كانت أو
شرقية .. وأن لا يقبلوا الا ما يطابق شريعتنا ويواكب
أخلاقياتنا ومفاهيمنا ومثلنا العليا ونظرتنا الى الحياة .

فتقليد مناهج الغرب الحياتية ، وتقليد آرائهم وأفكارهم
بدعوى أنهم سبقونا فى العصر الحديث فى النواحي الحضارية
والتمدين قول مرفوض وزعم باطل ، ذلك أن الاسلام نبع
فيأض ، والقرآن الكريم شامل كامل جامع لكل ما يحتاج اليه المرء
فى حياته وآخرته .

ولكى لا نشعر بهذه العقد ، التى تنمو فى بعض عقول

مثقفينا الذين لم يتعبوا أنفسهم بمقارنة المنهج الاسلامى بالمناهج
الوضعية والنظم البشرية ، نقول لكى لا نشعر بهذه العقدة ،
علينا أن نتدارس علومنا القرآنية ، وتراثنا الاسلامى العظيم ،
ونسجد مما لا شك فيه كل ما نصبوا اليه من معارف ، وما
نحتاج اليه من النظم التربوية والأخلاقية والاقتصادية ، وسنعثر
على ضالتنا فيما يتعلق بالعلوم الانسانية والحياتية .

ان النظريات التربوية والأخلاقية التى آتى بها الغرب فى
هذا العصر تسم أفكار شبابنا وتعبث بمقدساتنا ، وتظهر
لأنصاف المثقفين أنها يقينية ومؤكدة . . والحقيقة أن ظاهرها
الرحمة وباطنها العذاب المقيم .

ان علينا أن نرجع الى تراثنا ، وأن نسعى لربط ديننا
بعلومنا الحياتية والانسانية . .

علينا أن نقتدى بامامنا ، وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم ،
فقد كان خلقه القرآن ، وأن فى تربيته وأخلاقه وسيرته ، ما
يغنينا عن استيراد المذاهب الغربية والشرقية فى التربية جميعا .

وأهمية القدوة انما فى اختيار النموذج المثالى لها ، وبعد
الاختيار يتبع ذلك مرحلة المحاكاة والتقليد . . فاذا كان الاختيار
طيبا كانت ثمرته طيبة .

٢ - المحاكاة

يتحصل الانسان على مادته العلمية نتيجة للتكرار والتكلف
والعادة والتعلم الشرطى ، وبدونها لا يحيط الانسان بشيء
علما ..

والطفل الصغير انما يحاكي أبويه ، أو القائمين على تربيته
من موجهين ومعلمين . ويراهم القدوة له فى سلوكه وأخلاقه ومثله
العليا ، ويحسن الظن بهم ، ويشق فى أعمالهم وأفعالهم ، فهم
بمثابة النبراس الذى يضىء له طريق الحياة ..

وأول ما يتعلمه الطفل عندما يشب عن الطوق ، هو القدرة
على التمييز بين ما هو صحيح وما هو خطأ ، ثم بين ما هو صالح
وما هو طالح ، وما هو مفيد وما هو ضار ، وما هو حق وما هو
باطل ..

وبذلك يبدأ فى تكلف الأشياء النافعة ، ويحاول أن يقلد
أبويه فيما يظن أنه نافع وصالح ومفيد ، سواء كانت نفسه
بذلك راضية أو غير راضية ..

والواقع أن النفس الانسانية لا تقبل الا على ما يلذ ،
ولا تنفر الا مما هو مؤلم ، ولا تبحث فى أول أمرها عن الحق
والصلاح والصواب ، وانما تبحث عن اللذيد والمتع والसार من
الأفعال وتهجر خلاف ذلك (١) .

(١) احياء علوم الدين — أبو حامد الغزالى — « كتاب العلم » ج ١٣

اذن فالتكلف فى الأفعال والأعمال الصالحة ، أمر تقبل عليه النفس بملل وضيق فى أول امر ، الى أن تتعود على هذه الأفعال الرشيدة ، فتصبح سلوكاً وطريقاً وغاية ، بعد أن تألفها النفس وتتعود عليها بالتطبع ، اذ يصبح فيما بعد عادة •

واذا ما اعتادت النفس على هذا الطريق ، فانها تستخدم العقل كمحك ومعيار لما يعين لها من موضوعات وأفعال ، فيحكم العقل عندما ينضج ، يحكم على الأشياء بالصواب والخطأ ، والحق والباطل ، بل يستطيع التمييز بين ما هو مفيد وما هو ضار ••

ولكن بعض الناس يشبون وهم يحملون معهم بعض الاعتقادات الكاذبة ، والآراء الزائفة ، التى تكون قد غرست فى نفوسهم بطريق المحاكاة والتقليد ، أو نتيجة العقيدة والوراثة والتربية ، ولا شك أن هذه الآراء والأفكار ترسخ فى قلوبهم ، فتصير حجاباً بينهم وبين ادراك الحقائق ، وهذا ما نجده عند كثير من المتعلمين من أصحاب المذاهب الفاسدة ••

والواقع أن الانسان لكى يكون عالماً حقاً ، عليه أن يحصل على العلم بالاعتماد على علوم متباينة ، لأن كل علم لا يحصل الا من علمين سابقين ، ومن ازدواجهما يحصل الانسان على علم ثالث ، والانسان اذا لم يضع المرآة فى موضعها الصحيح فانه لا يرى وجهه ولا تظهر صورته كما ينبغى ••

وكذلك العلم يجب أن يوضع فى موضعه الصحيح والا عجز الانسان عن اقتناص العلوم •••

واذا كان الانسان محتاجاً احتياجاً ضرورياً الى العقل وأدواته

للتعرف على مختلف العلوم بطريق السماع والابصار ، والتمييز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ وهذا هو المفتاح الوحيد ضد الجهل ، والذي لا يمكن للعالم الاستغناء عنه ، ولكن الاقتصار على منطق العقل ، أو الزيادة فيه ، انما يؤدي بالانسان الى مواطن الغرور والتعجب ، بل الى الضلالة والتهلكة ، نظراً لأن العقل لا يقدر أن يغوص في الحق ولا يستطيع التحكم فيما هو فوق طاقته ، ولا الى معرفة كنه الأشياء * ومهما أوتى من علم فهو عاجز بالضرورة عن تحصيل مختلف المعارف ، فهو درجة في طريق العلم وليس درجة تنتهي اليها المعارف *

ويمكن القول أنه كما لا يستطيع الاستغناء عن القلب بالعقل ، فكذلك لا يمكن الاستغناء عن العقل بالقلب ، لأن العلوم العقلية انما هي غذاء الانسان ليتعرف بها على الاشياء الظاهرة ، والموضوعات المتحيزة ، والمشاكل المختلفة ، فيحكم على صحتها ، وذلك بالتجربة والوصف والملاحظة ، ويعقد لها البراهين والاستدلالات التي يستنبط منها مسلمات وأوليات ضرورية ، ولا يمكن أن يسمى الانسان عالماً أو عاقلاً ، الا اذا كان حاصلاً على هذه العلوم ، رغم وجود اختلاف بين العلماء *

التكلف

إذا أراد شخص ما أن يتعلم صناعة ما ، ولتكن الكتابة مثلاً ، فإن عليه أن يمارس - عن طريق اليد - التدريب على الكتابة ، ويواظب على ذلك مدة طويلة يحاكي فيها الخطوط الحسنة ، ويقلد الكتابة الحاذقة ، عند ذلك يتشبه بالذين يحسنون الكتابة ، ويبدأ ذلك بالتكلف والجهد والتعب أول الأمر ، ويجهد نفسه فى ذلك ، ثم ما يزال يواظب على الممارسة لهذا العمل حتى يصير الكتابة الحسنة صفة راسخة فى نفسه ، فيتصف آخر الأمر بأنه صاحب خط حسن ، وتبدو بعد ذلك هذه الصفة فى طبعه ، بعد أن كانت فى البداية تكلفاً ومشقة وجهداً كبيراً ..

فكان الخطوط الحسنة هى التى جعلت من خطه حسناً ، ولكن ذلك كان فى أول الأمر تكلفاً ، ثم أصبح بعد ذلك طبعاً فيه ، حيث ارتفع منه أثر الى القلب (١) ، ثم تحرك من القلب الى الجوارح ، فصار يكتب الخط الحسن مبتكراً دون تقليد أو محاكاة ..

وكذلك الحال بالنسبة الى العلم ، فاذا أراد الانسان أن يصبح عالماً فى شىء ، فعليه أن يمارس أعمال العلماء ، وهو يبدأ بمحاكاته لهم ، وترديد أقوالهم وتحصيل ما حصلوه ، حتى يصير ذلك فى قلبه طبعاً فيسمى عالماً ، مع وجود الفطرة السليمة ..

(١) احياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي . كتاب العلم ج ٨ ص ١٤٤٦

وكذلك الأمر بالنسبة لاكتساب مكارم الأخلاق ، فإذا أردنا اكتساب صفات السخاء والعفة والحلم والتواضع مثلاً ، فلا بد فيها جميعاً في البدايات ، من الممارسة والتقليد والمحاكاة لأفعال أصحاب الكمالات الاخلاقية ، حتى يصير طبعاً في نفسه ولا علاج للانسان من أمراضه الا بهذا الطريق ، وبتلك المجاهدة ..

وعلى المريض ألا ييأس من نيل هذه المرتبة ، كما أنه لن ينالها إلا بالمكابدة والمعاناة ، ومخالفة النفس ، يوماً بعد يوم ، اذ أنه مطالب بتطهير النفس وتزكيتها من الآفات والانحرافات ، وتحليتها بالأعمال الحسنة ، وذلك لن يتحقق إلا بمداومة الصدق ، فلن يكتسب صفة طيبة بعمل يوم واحد ، ولن يتأخر عن اكتسابها بعصيان يوم واحد ، ولكن المهم هو الاستمرار بلا توقف ، والمداومة بلا خمول ..

وإذا اعتاد الانسان على الكسل وخلد الى الراحة مرة بعد مرة .. مالت النفس الى البلادة ، وركنت الى الراحة ، واستمرت الخمول ، وبذلك تهجر التحصيل والدرس ، فيفوتها بذلك فضيلة العلم ..

كذلك الأمر بالنسبة لمحاسبة النفس وتربيتها للتخلص من الآفات والمعاصي ، فان الغفلة والاعتذار لها بشتى الأعذار ، يفوت على الانسان السير في طريق الايمان ، فيسقط في الزلات ، وما يزال يقع في الأخطاء والعيوب والمثالب ، حتى تكون طبعاً فيه ، يصعب أن يتخلص منه .. اذ أن الاستمرار في اتيانها يفوت على الانسان الالتفات الى الايمان ، ومن ثم يسقط في الضياع والضللال ..

طاعة يوم واحد اذن ، لا تكفى لتطهير النفس وتحليتها فى
الحال بالصفات المحموده ، ولكن ينبغى ألا يستهان بقليل من
الطاعات .. اذ أن استمرارها يذكى النفس ، ويظهرها فى
النهاية ..

أما الذى يستهين بصغائر المعاصى والذنوب ، ولا يتوب عنها
باستمرار ، فانها تتراكم عليه ، فيصعب عليه المجاهدة ،
ويتقاعس عن الرياضة النفسية ، ويتعذر عليه التوبة ، فيصير
قلبه مقيداً بسلاسل الشهوات .. لا يستطيع منها خلاصا ..

والحقيقة .. أن الانسان يستزرع فى نفسه بنفسه الأمراض
النفسية ، وذلك عندما يتبع ميله الغريزى الى الهوى ، وينقاد الى
نفسه الأماره ، وهنا فقط ينقلب الى عدو كاسر عدوانى ،
لا يسهل ترويضه واصلاحه ..

الطبع والتطبع

تهتم التربية الاسلامية ، كما تهتم كل العلوم الحياتية ، بعملية التطبع مثل علوم النفس والاجتماع والاخلاق .

ويرى بعض العلماء المحدثين : ان عملية التطبع ، هى الطريق الذى بواسطته يتعلم فرد ما تقاليد وعادات ومفاهيم المجتمع أو الجماعة ، حتى يستطيع التكيف معها والتعامل مع أفرادها ، ويقول Sherif انها عملية تحويل الانسان من كائن بيولوجى الى كائن اجتماعى (١)

وبهذا المفهوم للتطبع نجد أنه يشتمل على تعلم أنماط السلوك ، واستيعاب وجهات النظر ، والآراء الاجتماعية والقيم والشعائر والمشاعر والأحاسيس للمجتمع الذى يعيش فيه الفرد

وبعملية التطبع يوجه الطفل ويؤدب ، ويتخذ نهجا لحياته ، ودورا أو عدة أدوار اجتماعية ، يتطلب منه أن يلعبها بصورة تتلاءم مع أخلاقيات المجتمع ، وتقاليده وشعائره وقوانينه وأعرافه

وبهذا الصدد يقول الامام الغزالى فى « الاحياء » فى تربية الصبيان :

« اعلم أن الطريق الى رياضة الصبيان من أهم الأمور

(١) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ١٩٧٤ ص ١٩ وما بعدها

وأكد لها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ، مائل الى كل ما يمال به اليه ، فان عود الخير وعمله ... نشأ عليه ... وان عود الشر وأهمل ، شقى وهلك به ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والولى له « .. »

ثم يشير الغزالى الى أهمية الأصدقاء والرفاق فى عملية التطبيع ، وأنه من الضرورى ابعاده عن أصدقاء السوء فيقول فى ذلك :

« ونرى ابعاد الطفل عن الصبيان المنعمين المترفين ، فالطفل يجب أن يعد للحياة ... بما فيها من سعادة وشقاء ، ونرى ألا يسمح له بمخالطة هؤلاء المدللين من الأطفال ، لأنهم لا يصلحون للحياة التى تنتظرهم ... »

وينتقل الامام الغزالى فى آرائه التربوية الى عملية التطبيع الاجتماعى ، والتى سبق بها سيرز وماكوبى وليفين من علماء التربية المحدثين ... فيتحدث عن الطريقة المثلى فى تربية الطفل بعامة ، وعملية التطبيع الاجتماعى للطفل بخاصة ... فىرى أن كثرة العتاب فى كل حين ، يهون على الطفل سماع الملامة ، وركوب القبائح واقتراف الأخطاء ... ثم أنه يسقط مفعول الكلام ، ويهون من وقعه على قلبه ، وعلى الأب أو الولى أن يكون حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه الا قليلا ... ثم يركز على ضرورة معرفة ما يعانى منه الطفل ويسمىها « أمراض » ويتوجب التعرف عليها عند تأديب الأطفال ، كما يركز على معرفة سن الطفل لاعطائه العلاج المناسب لأمراضه النفسية ...

وهذا الرأى الذى أشار به الغزالى ، يتفق تماماً مع أحدث

اساليب التربية الحديثة فى عملية التطبيع الاجتماعى
فان علماء التربية يرون أن العقاب أو العقوبة هى أسلوب فنى
لتدريب الطفل وليست وسيلة للتعبير عن مشاعر مكبوتة
اذ هى وسيلة تربوية تدار بحكمة وتعقل ، حتى تؤتى بالثمرة
المرجوة منها . . . وهى تطبيع الطفل كما يراد له أن يتطبع . .
أهمية المعلم فى عملية التطبيع :

يبين الامام الغزالى ان دور المعلم يأتى بعد دور الوالدين ،
وأنة من الأهمية بمكان فى عملية التطبيع الاجتماعى للطفل . . .
ويقرر الغزالى أن الطريقة المثلى التى يجب أن ينهج المعلم عليها
تتلخص فى النقاط الآتية : -

(١) استخدام الشفقة مع المتعلمين وعليه أن يعاملهم معاملة
أبنائه .

(٢) أن ينصحهم فى كل مناسبة ، وينتهاز الفرص لارشادهم
وتوجيههم .

(٣) أن يزجر سىء الأخلاق بطريقة مباشرة ما أمكن ،
وبالرحمة لا التوبيخ .

(٤) أن يخاطب التلاميذ على قدر عقولهم .

(٥) يجب أن يراعى الفروق الفردية والصحية بين تلامذته
فى خطابه لهم .

(٦) أن يقرن علمه بعمله . . . فلا ينصح احدهم بشىء وهو
لا يعمل به .

(٧) أن يكون وصفه وتشخيصه لأمراض الطفل النفسية دقيقاً ، فكل حالة لها ما يناسبها .

وظاهر أن أسلوب الغزالي فى معالجة موضوع التطبيع الاجتماعى يسير وفق أفضل وأحدث المناهج التربوية الحديثة ، وأن أكثر التربويين يركزون الآن على ضرورة معاملة الأطفال على قدر عقولهم ، وعدم توبيخهم باستمرار ، وأن يكون المعلم قدوة حسنة لتلاميذه .

ولابن سينا المفكر الإسلامى العظيم ... آراؤه التربوية الرائدة فهو وان توفى (٤٢٨ هـ - ١٠٣٧ م) فان ما قاله عن تربية الأطفال ، يعد أصلا من الأصول التربوية التى ينتهجها علماء التربية المحدثين ... ولقد كانت كتبه جميعا تدرس بجامعة السربون حتى أواخر القرن التاسع عشر ... وكانت هناك قاعة تسمى قاعة ابن سينا ...

يبين ابن سينا أن الانسان يختلف عن الحيوان ، فحياة الحيوان تسخرية غريزية ، ولذلك توحدت حاجاته ومتطلباته ، أما الانسان فقد تنوعت حياته ، واختلفت صناعات مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ... وكثرت بذلك أغراضه ومقاصده ، مما يستلزم تعاون الأفراد بعضهم مع بعض لتلبية هذه المتطلبات ، الأمر الذى لا يتم الا باختلاف وتفاوت فى الكفاءات والمهارات بين أفراد الانسان ... ولذلك كان التطبيع الاجتماعى ضرورة يحتمها حفظ النوع الانسانى .

نظرية التعلم الشرطى

عند الامام الغزالى

لا يسعنا فى هذا المقام ، أن نستعرض نظريات علم النفس عند العلماء المسلمين ، لان ذلك يقتضى كتابة عدة مؤلفات عن تاريخ علم النفس فى الاسلام ، انما نود أن نشير الى بعض الممارسات فى العلاج النفسى ، وبعض النظريات السيكلوجية عند مفكر اسلامى واحد ، لتبين أن العلماء المسلمين ، قد ظفروا بكثير من أصول ذلك العلم قبل أكثر من ألف عام .

ولكى نثبت ذلك ، نود الاشارة الى نظرية واحدة من نظريات علم النفس الاسلامى ، عند عالم من علماء الاسلام هو أبو حامد الغزالى ، وهذه النظرية ، هى نظرية الفعل المتعكس الشرطى .

ومما يؤسف له حقا ، أن غالبية العلماء العرب المعاصرين ، قد أغفلوا التأريخ لعلم النفس الاسلامى ، كما أغفلوا التأريخ فى العلوم الحياتية والعملية ، التى نبغ فيها أسلافهم ، وتابعوا الغرب فى تعصبه لغربيته ، حتى أنهم دافعوا عن النظريات الغربية بوعى أو بغير وعى ، أكثر مما يدافع عنها كثير من العلماء الغربيين .

وهذا هو سر عدم اطلعنا على التراث الاسلامى العظيم ، فهناك اهتمام بالغ بالفلسفة اليونانية ، وعلى الأخص بفلسفة أرسطو ، ثم بعد ذلك يتحدث المفكرون عادة عن عصر النهضة ، أو عن الفكر الغربى الحديث والمعاصر ، دون الاشارة من قريب أو بعيد ، لآراء المفكرين المسلمين ، أمثال الكندى ، والفارابى ،

- ٢٠١ -

وابن سينا ، والغزالي ، والحسن بن الهيثم والخوارزمي ، وغيرهم
كثير .

تخلو كتب علم النفس ، من أى اشارة الى المفكرين المسلمين ،
والى نظرياتهم وآرائهم فى علم النفس ، وهذا ما يجعل الباحث
فى ذلك العلم ، يلقي صعوبة كبيرة فى ربط علم النفس الحديث
بعلم النفس الاسلامى ، وكأنه ينحت فى الحجر الصلد ، حتى اذا
صادف حجراً كريماً ، بعد طول عناء ، كان ذلك بمثابة اكتشاف
كنز مخبوء .

وما قصة نظرية الفعل المنعكس الشرطى ، التى أثبتها الامام
الغزالي ، ثم تلقفها من بعده بعض علماء الغرب ، ونسبوها الى
أنفسهم ، الا سلسلة محكمة الحلقات ، لكثير من الدراسات التى
قام بها العلماء المسلمون ، واغتصبت اغتصاباً ، دون الاشارة حتى
الآن ، الى من اغتصبت منهم ، فلقد أوضح الغزالي مثلاً ، هذه
النظرية وكررها فى أكثر من موضع فى مؤلفاته المتعددة ، ولو
أنصف الكتاب والمؤرخون ، ورجعوا بأبصارهم الى منتصف القرن
الخامس الهجرى ، لوجدوا الامام الغزالي ، جالساً يناقش العلماء
فى هذه النظرية التى يرجعها علماء النفس اليوم - بغير حق -
الى أصحاب المدرسة الشرطية الاقترانية ، وبخاصة « بافلوف » ،
والذى حاز نتيجة لانتسابها اليه ، حاز على جائزة نوبل سنة
١٩٠٤ م ، دون الأخذ فى الاعتبار ، أن الامام الغزالي ، هو الذى
كشف قانونها ، وهو الذى قررها ، ولا نعلم ان كان الذين أعطوا
لبافلوف جائزة نوبل ، قد جهلوا ذلك أو تجاهلوه .

لقد أثبت الامام الغزالي بما لا يدع مجالاً للشك ، نظرية

الفعل المنعكس الشرطى ، شكلا ومضمونا ، وبرهاننا وتمثيلا بالأمثلة الحسية والواقعية ، وما اكتشفنا لهذا النظرية ، الاثبات أن العلماء المسلمين قد سبقوا عصرهم بقرون عديدة ، وأن الغربيين ما يزالوا يطبقون الآن نظرياتهم ، وعلينا اذن ألا نخضع بالحضارة الغربية الحديثة ، اذ لا بد لنا كعلماء مسلمين ، مداومة البحث والتمحيص عن تراثنا ، وآثار أسلافنا العظماء ، والكشف عن نظرياتهم التى دفنت فى القباب والدهاليز ، أو غمرت فى قاع النسيان ، علينا أن نكشف الآن الأقنعة الزائفة ، لنظهر الحقائق كاملة ، ونبين للناس ما قدمه الاسلام والمسلمون ، من نظريات ما يزال الباحثون يحاولون دراستها تجريبيا وعلميا .

ان كتاب « المستصفى » الذى يعتبر من أنفس كتب الغزالى فى باب « الأصول » ، وهو يعتبر آخر كتاب ألفه فى حياته القصيرة ، وترجع أهمية هذا الكتاب ، الى أنه عرض فيه نظرية الفعل المنعكس الشرطى ، وقد أسماها : « بصدق الوهم الى العكس » ، وهى تعد من مباحث فلسفة القيم .

وقد ربط الامام الغزالى بين فلسفة القيم والوهم الاقترانى وآثاره ولقد كان السبب الذى خرج به الغزالى بهذه النظرية ، يرجع الى مناقشته للمعتزلة ، حول مسألة الحسن والقبح العقليين من الأشياء - خرج الغزالى من هذه المناقشة ، مبينا للمعتزلة أنهم قد انساقوا لأرائهم الكلامية ، وحكمهم على الحسن والقبح الذاتيين فى الأشياء ، انساقوا وراء أوهام اقترانية تخيلوها أحكاما عقلية .

ويبين لهم الغزالى أن ما نراه حسنا لذاته ، هو فى الحقيقة ليس كذلك ، وانما ثبت فيه الحسن لسبب مصاحبته للمألومة

لغرض من الأغراض ، فالحسن والقبح يتصفان بذلك ، لاقترانهما
بأغراض الناس ومصالحهم ، وفوائدهم ومنافعهم ، ومصاحبة
هذه الأمور الاقترانية لها .

ويخلص الامام الغزالي من ذلك ، على أن الأحكام التي تطلق
على الأشياء ، ليست الا من الأمور الاضافية على الذات ، اذ انها
لا تعد من الصفات التي اقترنت بها ، ومن ثم لا يمكن أن تسمى
الا أحكاما اعتبارية فحسب ، او احكاما نسبية غير ثابتة ولا مطلقة .

وينتهى الامام الغزالي الى أننا نربط بين ذاتنا وبين الأمور
الاضافية المصاحبة لها والملازمة ، ونستمر في هذا الارتباط وذلك
الاقتران ، حتى نطن آخر الأمر ، ونتوهم أن معنى الحسن والقبح
قد غدى كامنا في ذات الأشياء لا ينفصل عنها .

وهذا ما يدفع المشاهد لأمثال هذه الأشياء المقترنة الى الحكم ،
بل والتأكيد على تلازم هذا الاقتران وضرورته ، وكأنه حقيقة
لا شك ولا ريب فيها .

ومعنى ذلك أن اقتران أمر من الأمور ، لشيء من الأشياء ،
ثم اقتران هذا التلازم والمصاحبة مرات متعددة ، تدفع من يشاهد
هذا الأمر ويراه الى الاعتقاد أو الحكم بأن هذا الاقتران ضرورى ،
وأن هذا الارتباط حتمى فى جميع الحالات ، ويغفل على أن الأمر
الخاص فقط ، هو الذى يكون مقروناً بالأمر فى جميع الأحوال ،
باعتبار أن الخاص جزء من العام .

أما اقتران الآخر العام بالخاص ، فهو غير ملزم وليس
ضروريا ، ويضرب الامام الغزالي أمثلة عديدة ليوضح ذلك :

نفور الانسان من الثعبان ، بشكل طبيعى وعادى ، فى كل الأحوال ، لانه يذكره بالأذى ، خاصة اذا لدغه ثعبان من قبل ، وهذا مايسمى اليوم بالاستجابة غير الاشتراطية ، فاذا رأى الانسان فى يوم من الأيام لعبة تشبه الثعبان فى شكلها ، فانه سينفر منها ، وهذا الاستجابة تشبه استجابته بالنفور من الثعبان الأصيل الذى لدغه •

والفرق بين الاستجابة الثانية ، وهو النفور من اللعبة والأولى أن الاستجابة الثانية ليست طبيعية أو عادية ، وانما هى استجابة وهمية لعدم وجود الثعبان ، أو ما يسمى بالمثير الأصيل ، صاحب الخصائص الطبيعية فى الأذى والدغ والنهش •

ويسمى الامام الغزالى (١) الاستجابة الثانية بالوهم الاقترانى ويسميتها علماء النفس اليوم بالاستجابة الشرطية أو الاقترانية حيث أنها اقترنت فى ذهن الشخص أو الانسان بالثعبان كمثير أصلى ، وحينما رأى مايشبه المثير الأصيل من حيث اللون أو الشكل ، توهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى مما دفعه الى التفور والابتعاد عنها •

ويقرر الامام الغزالى أن كل أمرين متصاحبين ان لم يكونا متساويين فى الخصوص والعموم ، كأن يكون احدهما خاصا والآخر عاما فان العام منها هو الذى يصبح مثيرا صناعيا بديلا (مثل اللعبة فى المثال الذى ضربناه) •

ويعطى هذا المثير البديل الاستجابة الوهميه او الشرطية

(١) بحث قدم الى ندوة علم النفس والاسلام - كلية التربية - جامعة الرياض ١٣٩٨ هـ «نظرية الفعل الشرطى عند الغزالى» - دكتور فايز محمد على الحاج

فمثلا اذا كانت اللعبة عبارة عن شكل ثعبان مبرقش ، فمعنى ذلك ان كل مبرقش هو امر عام يمكن ان يوجد فى اللعبة او الحبل أو غير ذلك ، ولكن الثعبان الاصلى هو أمر خاص وان البرقشة خاصيه ملازمة له ، ذلك فان كل لون برقشة فى اى جسم يذكر بالثعبان أو بالجسم الخاص المعروف بهذه الصفة اللونية فى الازدهان ، وعندما يرى الشخص ذلك الشئ أو الجسم المبرقش فإنه يشار ويبتعد عنه لأن فى النفس ذكريات مؤلة تذكره بالأذى *

ربط الغزالى اذن ربطاً مقنعاً ليدلل به على حدوث التعلم الشرطى ، فقرن بين مؤثر جديد ومؤثر يستثير استجابة ما بشكل طبيعى ، وعندما تطبق هذه التجربة مرات ومرات يتوصل المثير الجديد الى استجابة معينة •

وبهذا يكون قد تم للغزالى اكتشاف طريقة جديدة للتعلم والتعليم الشرطى او تعلم السلوك الاستجابى كما يسميه (سكنر)(١) ، ويؤكد سكنر على تجربة الغزالى حين يقرن مثير محايد بمثير معاكس ، فيستنتج استجابة معينة • ويكون فى هذه الحالة امام حالة اشتراطية • ومعنى ذلك أن أى مثير يكون موجودا حين حدوث عقاب أو اذى فإنه يتاح له الفرصة لأن يصبح مثيرا اشتراطيا للاستجابة الانفعالية بالنسبة للعقب ، وان هذه المثيرات الاشتراطية تنتج استجابات انفعالية فى غياب العقاب الاصلى، ومثال ذلك فان رؤية الصبى الصغير ، الذى تعود فى المدرسة ان يضرب بالعصا ، ان رؤيته للعصا التى تعتبر مثيرا اشتراطيا تحدث له استجابة انفعالية ومن ثم يتذكر العقاب وكان العقاب مازال موجودا •

(١) نظرية الفعل الشرطى عند الغزالى بحث مقدم من د / فايز محمد على الحاج • ندوه علم النفس والاسلام ١٩٧٩ • الرياض)

وكان سكر ومن قبله بافلوف وكذلك واطسون الذى اقتبس من بافلوف ، كأنهم جميعا قد اخذوا عن الامام الغزالى هذه النظرية ثم عززوها بالتجارب العملية والمعملية، واذا كان هناك فرق بالنسبة لهذه النظرية فإنه فرق فى التسمية فحسب فالامام الغزالى سمي هذه النظرية بسبق الوهم الى المنعكس وأسماءها المحدثون بالاستجابة الشرطية او رد الفعل الشرطى كما يسميها بافلوف .

ففى تجربه بافلوف اصبح لعاب الكلب يسيل استجابة لصوت الجرس (١) . والاضافة التى أضافها الغزالى بعد ذلك لنظريته فى سبق الوهم الى العكس من نفور الانسان من الحيوان المؤذى ، فىرى الامام الغزالى ان هذه الاستجابة ليست استجابة فطرية انما هى استجابة مكتسبة حيث اكتسبها الانسان من خبرة سابقة مع ذلك الحيوان ، ويدلل الغزالى على ذلك بأن الصبى اذا دخل عليه وحش أو حية فإنه ربما لا يخاف الوحش أو الحية، بل ربما يلعب بالحية أو مع الوحش ، ولا يحدث الخوف الا اذا كان معه أحد الكبار وخشى على نفسه فهرب عند رؤيته لها . عند ذلك يحدث الخوف للصبى ثم يصبح استجابة مكتسبة ، وهذا ما أجمع عليه العلماء المعاصرون من أن رؤية الكلب للذى سبق أن عضه كلب تصبح مثيرا شرطيا للخوف اذ ان هذا الحادث قد اكسبه خبرة ، اذ أن رؤية ذلك الكلب تسبب الخوف .

(١) اجرى بافلوف تجربته بان وصع قطعة من اللحم فى قفص الكلب ووضع على باب القفص جرس فعندما يسمح للكلب بالطعام يدق الجرس ويفتح الباب فيجد الكلب اللحم . وكرر بافلوف هذه التجربة مراراً ثم امتنع بافلوف فجأة عن تقديم قطعة اللحم الا انه دق الجرس فى ميعاد تناول الكلب لغذائه، فأذا بالكلب يهرول قافلاً الى القفص وأعاد التجربة فكان يحدث نفس الشيء كل مرة ولاحظ بافلوف ان الكلب يسيل لعابه عند دق الجرس وبذلك اكتشف انه يمكن تدريب الكلب بهذه الطريقة الاقترانية .

— ٢٠٧ —

وما الهروب الا تخفيف للخوف من الأذى المتوهم *

والخلاصة ان عملية الاشتراط هي اقتران وربط بين الاستجابة
والمثير وهذه الاستجابة ليست فطرية وانما هي مكتسبة متعلمة
عن طريق الاقتران الشرطى *

وبذلك يمكن أن نقول ان الغزالي هو بحق صاحب هذه النظرية
التربوية التى يمكن استخدامها فى مجال التعليم فى المدارس
والمؤسسات الثقافية والعلمية * وهى تستخدم الآن بنجاح كبير
عن طريق تقديم الحلوى والهدايا للأطفال الذين يتفوقون فى
تحصيلهم العلمى ، كما يمكن ان تستخدم فى مجالات الحياة العامة
كحوافز ايجابية أو سلبية كدالة للثواب والعقاب *

الترغيب والترهيب

من الموضوعات الشائعة التي تهتم بها التربية الاسلامية ،
هو موضوع الترهيب والترغيب ، ولذلك فان النفس البشرية
اذا تركت على هواها فانها تقبل على كل عمل خفيف وتتكاسل
عن بذل ما تراه على النفس ثقيلًا .

لذلك فان الترهيب يجب أن يتبع في علاج السلوك المنحرف ،
فاذا لم تؤدب النفس وتخالف ما تظن أن فيه لذتها ، انقادت الى
الأمواء وفسدت في طبعها ، وأصبح الترهيب في هذه الحالة
ضرورة ما بعدها ضرورة ، اذ يفرض على النفس التي تميل الى
التسويق والتقصير والراحة والخمول وتأجيل استيفاء الحقوق ،
الالزام بان تقوم بواجباتها وحقوقها وردعها بسيف المخالفة
والتخويف من العقاب الالهي ، فاذا لم تخف هذه النفس لهلكت
وهلك معها كل من شاكلها في ارتكاب الآثام والذنوب والنقائص .

ومن طبع النفس النسيان والغفلة ، لذلك فان الترهيب
يصبح نوعا من التذكير بما آلت اليه النفس من ارتكاس ونكوص
ووقوع في الرذائل والآثام .

لكن النفس الانسانية اذا ما قسوت عليها بالتخويف
والترهيب والتحذير (٢) لتسير في طريق الله ، عندما يكون هذا
الأمر في بداية الاصلاح ، فانها تمل من الزجر والوعظ وربما

(١) « الفنية » الامام عبد القادر الجيلاني ص ١٤٠

(٢) احياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي ج ١ ص ٢٣٣ وما بعدها
« كتاب الشعوب »

تتمرد وتضيق ذرعاً بالتوجيه والارشاد ، وكأن هذا الأمر لا يعنيها ، فتعيش حياة اللامبالاة والظلم ، فتخسر الدنيا والآخرة جميعاً •

لذلك يجدر بالمربين ألا يقسوا على الانسان في بداية طريقه الى الله انما يجب أن يتدرجوا معه درجة درجة ، حتى ينصلح أمره ويبتعد عن غيه ، وذلك بالترهيب تارة وبالترغيب تارة أخرى •

والترغيب يكمل الترهيب ، حتى تتوازن النفس ، فان الترغيب معناه الأمل في وعد الله ، والرجاء في نعمه تعالى (١) ، فكلما عملت النفس عملاً خيراً كان على المربي أن يبين له ثمراته اليانعة ، وما يتحصل عليه من فضائل وعطايا ومنح ، فيتجه لسيره في طريق الله •

التغلى والتغلى

من الوسائل التربوية الاسلامية الفريدة فى نوعها ، استخدام وسيلة التغلى والتغلى ، ويقصد بالتغلى أن تتغلى النفس البشرية بالأوصاف المحمودة ، كبديل للأوصاف المذمومة التى اعتادت عليها ، وبذلك يكون التغلى هو أن يتغلى الانسان عن تلكم العادات السيئة ، التى كانت سببا فى انحرافه عن الطريق المستقيم . ولا يسلم انسان من بعض مألوفات العادات اذ الانسان عبد عوائده ، ومن ثم يجب اقتلاع هذه المألوفات من جذور النفس ، حتى يكتسب الطالب الصحة النفسية •

وعندما يتغلى الطالب عن الوصف الذميم ، ويتغلى بالوصف الحميد، فان ذلك معناه أنه يسلك طريق الحق ويعزف عن الآهواء ، ويبتعد عن الشهوات ، وينفر من الحظوظ الزائفة ، واللذات الكاذبة ، وتعرف نفسه أنه لا رغبة لها الا فى سلوك طريق الاستقامة ، والبعد عما يشغلها عن توحى الحقيقة ، فبالتغلى تتجنب النفس العوارض الشاغلة وتؤثر ملازمة طريق الحق تعالى ، وبذلك يتغلى الطالب بارادة الخير ، ويحول بينه وبين المحاكاة لأصدقاء السوء والاقتداء بالقدوة السيئة ، فيسلم من الجنوح ، الى اقتراف الرذائل وينجو بنفسه عن اتيان الفواحش وبذلك يصبح صحيحا معافيا •

تقديم التغلى على التغلى :

يرى بعض الأئمة المسلمين (١) انه يجدر بالمربى أن يهتم

(١) الاسام ابو حامد الغزالى - الاحياء - ج ٨ ص ١٢٤٩ وما بعدها
كتاب الشعب «

بالتخلي قبل التحلى ، فان وجد الطالب فيه رعونة أو كبر أو عزة نفس غالبية عليه ، فعليه أن يأمره بالبذل والعطاء والمواظبة على الأعمال البسيطة والتواضعة ، وذلك حتى ينكسر كبره وعزة نفسه * اذ أن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة *

فاذا وجد الطالب يهتم بالنظافة الظاهرة ، واقتناء الثياب ، ثم رأى قلبه مائلاً الى ذلك ، فرحاً بنفسه ، فان عليه أن يأمره بكنس المواضع القذرة ، وارساله لقضاء بعض الحاجات البسيطة * اذ أن السدى يهتم بالمظاهر ، ويزين ثيابه بالكماليات مثل العروس التى تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين ذلك الشخص وبين عابد نفسه أو عابد الصنم ، لأنه يهتم بما هو دون الله ، فهو ملتفت للمظاهر الكاذبة، مشغول بنفسه محجوب عن الله *

وهذا التخلي هو نوع من العلاج بالأضداد ، فلا يمكن أن يترك الطالب الرعونة رأساً أو الكبر فوراً ، ان لم يسعفه المربى بضدها ، وذلك لا مكان نقله من الخلق المذموم الى الخلق المحمود ، مثل الذى يزيل البقع بمادة كاوية ، ثم بعد ذلك يغسل ذلك كله بالماء * فالماء لا يزيل البقع التى تعلق بالشوب ، وانما يزيلها مادة كيميائية ، ثم يمكن ازالة آثارها بالماء *

كذلك الأمر بالنسبة للصبى الذى يلعب بالكرة ، ثم يهتم بعد ذلك بفاخر الثياب والزينة ، ثم يرغب فى الرياسة وطلب المراكز ، ثم بعد ذلك يرغب فى الآخرة التى هى خير وأبقى * فعملية التربية انما تتم بالتدرج ، ولا يمكن مثلاً أن تجبره على ترك الجاه دفعة واحدة ، انما يمكن أن يتخلي عن بعضه ويبقى له بعضه ، ثم يخفف فى طلب الجاه تدريجياً حتى يمكن أن ينقل الى

ما هو أفضل له فى الدنيا والآخرة .

فاذا كان الشخص شرهاً فى الطعام والشراب ، أمره المربى بأن يقلل من الطعام ، أو يلزمه بالصيام وفى نفس الوقت يكلفه بصناعة الأغذية اللذيذة وهو صائم ، وأن يقدمها الى غيره ولا يأكل منها ، حتى تقوى نفسه ، فيتعود الصبر وتنكسر عادة الشره عنده .

واذا كان الشاب محباً للمرأة ، متشوقاً لها وهو عاجز عن الزواج ، فعلى المربى أن يأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بالصوم ، فعليه أن يأمره بأن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ، ويمنع عنه اللحوم حتى تذلل نفسه ، وتنكسر شهوته . ولا أنفع لهذا الشاب فى علاجه من الجوع .

واذا وجد المربى أن الطالب يميل الى الغضب (١) وأنه سريع الانفعال ، ألزمه بالحلم والسكوت عندما يشتد الظلم عليه ، وفى نفس الوقت يسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء الخلق ، حتى يمرن نفسه على الاحتمال فيتكلف الصبر وكظم الغيظ حتى يصبح الحلم عادة له .

وكان من عادة بعض الصوفية ، أن يستأجر من يشتبه على ملأ من الناس ، حتى أصبح الحلم عادة له وصار يضرب به المثل . وكذلك من كان يجد فى نفسه الجبن وضعف القلب ، فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج .

(١) « قوت القلوب » أبو طالب المكي ج ١ ص ٣٦٤

وكذلك فى الأمور كلها • فمن وجد فى نفسه حب المال ، يعالج ذلك بأن يبيع ما عنده ، أو ينفقه فى وجه الله • أو التكاسل عن أداء التكاليف الشرعية ، ألزم نفسه القيام طول الليل • فالتخلى عن الخلق الذمى لا يمكن أن يتم طرفة ، انما مرحليا وعن طريق الضد وكل ما تهواه النفس وذلك وارد فى قول عز من قائل :

” وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى “
« النازعات : ٤٠ ، ٤١ »

ان المهم فى عملية التخلى والتعلى الوفاء بالعزم (١) ، اذ أنها عملية مجاهدة للنفس ، فاذا عزم الشخص على ترك الشهوة فقد تيسرت له أسباب النجاح فى تسكينها ، وتحتاج هذه العملية الى الصبر والمداومة ، واذا تعود الانسان على اهمال ترك العزم ، وجنح الى التأجيل والتسويف ، ألفت نفسه ذلك ففسدت وعطبت •

لذلك يتوجب على الطالب الذى ينقض عزمه ، ويتكاسل فيما تعهد بالقيام به ، يتوجب عليه أن يلزم نفسه بعقوبة على تكاسله عن تأدية ما افترضه على نفسه من مجاهدات ، والذى لا يخوف نفسه بعقوبة ، غلبته نفسه ، وبذلك تتحالف الشهوات فى نفسه فتفسد وتعطب •

(١) التعرف ، للكلاباذى . ص ١١١ وما بعدها

الوعظ والموعظة

ان القدوة الحسنة الصالحة ، من الأهمية بمكان فى العملية التربوية - كما سبق الاشارة لكن القدوة الصالحة ، ليست كافية وحدها لتجعل الطفل أخلاقيا *

فمع وجود القدوة الصالحة فى شكل الأبوين ، الا أننا نجد أن الطفل ينجح فى بعض الأحيان الى سلوك بعض التصرفات الشاذة واللاأخلاقية (١) ، فمع وجود الأبوين الصالحين يمكن أن يتلفظ الطفل بألفاظ خارجة عن الأدب ، يلتقطها من هنا أو هناك ، أو يفتح درج زميله بالمدرسة ليأخذ بعض محتوياته * وربما لا يكون ذلك بدافع السرقة ، لكنه دافع من دوافع الأطفال *

وقد يكون الأبوان صادقان ، الا أن الطفل عندما يسئل فى أمر من الأمور يكذب ويتحرى الكذب ، وربما يكون ذلك بدافع من الشعور بالنقص أو محاولة لتكملة شخصيته ، أو نتيجة للرعاية الزائدة أو القسوة الزائدة *

لذلك لا تكفى القدوة الصالحة لخلق الشخصية السوية ، اذ لم يكن بجانبها الموعظة ، فالطفل الذى يخنق الحيوانات الأليفة الصغيرة ، أو يقذف زملاؤه بالأحجار ، أو يأتى ببعض الأفعال المستقبحة ، لابد من وعظه وارشاده وزجره بل وعقوبته اذا دعى الأمر الى ذلك *

كما أنه لابد من وعظ الطفل ، سواء عن طريق البيت أو

(١) محمد قطب - منهج التربية الاسلامية من ٢٢٩٠

المدرسة ، بصفة مستمرة حتى لا يغفل ولا ينسى ، فان التكرار هام جداً فى العملية التربوية *

والنفس الانسانية على استعداد تام للتأثر بما يلقي اليها من كلمات ، لكن ذلك الاستعداد كما هو للخير ، فهو استعداد أيضاً للشر ، فاذا أردنا أن نصلح جنوح الأحداث ، فان أعظم وسيلة بعد القدوة الصالحة هى استخدام الموعظة ، ثم تكرار المواعظ على أذن الطفل ، حتى تنطبع فى نفسه ثم لا نلبث أن تصبح طبعاً ملازماً لسلوكه وفكره وأخلاقه جميعاً *

فالانسان الكبير مثل الطفل الصغير ، فى حاجة دائمة الى الموعظة الحسنة ، وقد يغفل عن القدوة الحسنة ، أو يتغافل عنها ، فلا تصبح القدوة كافية لتأديبه وتقويمه ، والحاكم وولى الأمر والرئيس فى حاجة دائمة أيضاً الى الموعظة ، فقد يتجبر الحاكم ، وقد يظلم ولى الأمر ، وقد يستعلي الرئيس ، وينسى جميعاً أنهم يجب أن يقتدوا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بالخلفاء الراشدين *

ينسى هؤلاء بما ركب قى النفس البشرية والطبيعية الانسانية من جبلات ، هى الضعف والجهل وحب المدح ، وموافقة الأهواء ومتابعة الفوايا الشيطانية *

لذلك فان الموعظة والتوجيه يعتبران من الأمور الضرورية ، وذلك واضح فى قصة لقمان عليه السلام عندما يعظ ابنه فيقول كما ورد عن عز من قائل :

« واذا قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم »
« لقمان : ١٣ »

وربما يتبادر للذهن أن ابن لقمان كان مشركا بالله ، لكن الأمر غير ذلك ، انما يؤكد ويكرر لقمان عليه السلام ، على مسامع ولده ، أن الشرك هو ظلم للنفس بل هو أعظم أنواع الظلم ، ثم يتابع لقمان وعظه لابنه فيقول له :

« يا بنى انها ان تك مثقال حبه من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصغر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير »
« لقمان : ١٦ - ١٩ »

يتابع لقمان عليه السلام عظاته ، فيبين لولده السلوك الواجب الاتباع ، في الحياة الدنيا ، ويذكره بأن مآله الى الله تعالى .

فالقرآن الكريم ملئ بالمواعظ والتوجيهات ، وربما تتكرر في كثير من الآيات نفس الموعظة ، حتى يؤكد الله سبحانه وتعالى على هذا المعنى ، ليجعله المسلم فكره وسلوكه وحياته ، فينطبع في نفسه هذا التأديب القرآني فلا يففل ولا ينسى ، ولذلك فان الله تعالى يقول في كتابه العزيز في هذا المعنى عن القرآن الكريم :

« هذا بيان للناس وموعظة للمتقين »
« آل عمران : ١٣٨ »

التوجيه والارشاد

لا يمكن أن تقوم التربية الا بمنهج واضح سليم ، كما أنه لابد أن يكون المربي والمعلم مؤمنا فكريا وسلوكيا ، بما يلقنه أو يعلمه للطالب . والا فان الأمر لا يعد الا سفسطة لا نفع فيها ولا فائدة *

ان العملية التربوية تحتاج الى التوجيه والارشاد ، والذي يقوم بهذه العملية التربوية ، لابد أن يكون قدوة صالحة يتمثل به الطالب ، ويشمر عن طريق الاقتداء به ، توفيقاً في علمه وسلوكه وحياته العملية جميعا *

والتوجيه والارشاد يحتاج الى معرفة تامة بما يتوجب على المربي أن يلقنه للطالب (١) فهو في تصورنا تلقين وتعليم لقيم ومفاهيم وممارسات بدونها تستحيل كل معرفة وأخلاق *

. وأول هذه القيم هي العبادة ، ثم ارادة الأدب أو الأدب *

العبادة :

أمر الله سبحانه وتعالى الناس بعبادته حتى تقوم الساعة ، وليس هذا الأمر عسفا من قبل الله تعالى وهو الحكيم الرحيم ، انما امرهم بالعبادة - وهي تشق على النفس ، وذلك لمغالبة الهوى والشيطان ، ومخالفة لأهواء النفس *

والنفس البشرية (٢) تأبى حسب تركيبها ونزوعها الى

(١) قوت القلوب - أبو طالب المكي * ج ١ ص ٢٧٠
(٢) للزيد « الفاظ الصوفية ومعانيها » « الأدب » للمؤلف

- ٢١٨ -

الهوى ، تأبى العبادة ، لذلك كانت العبادة عملاً لصلاحها ،
ومخالفة حظوظها ومنازعة شهواتها .

والله تعالى أعلم بجبلات النفس ، وأهدى لنزعاتها الظاهرة
والباطنة ، وأعرف بالعلاج لأمراضها وآفاتهما ، وما يتوجب على
النفس تجنبه للابتعاد عن الأهواء والسقوط فى براثن الغواية
والضلال .

فالعقادة شريعة الله فى خلقه ، أمرهم بها وهى تحتاج
الى المعانة والمكابدة ، ودوام المجاهدة عليها ظاهراً وباطناً حتى
ينتقل الانسان الى الحياة الأخرى ملاقياً ربه ، ليثاب على عمله
ويلحق بالصالحين والمؤمنين ، وهذا وارد فى قول عز من قائل :

« واعبد ربك حتى يأتىك اليقين » « الحجر : ٩٩ »

ويحدد الله سبحانه وتعالى غاية الانسان من هذه الحياة
الدنيوية ، حتى يعلم الناس ، كل الناس ، لماذا خلقهم الله تعالى
فى هذه الدنيا ؟

يحدد الله سبحانه وتعالى تلك الرسالة التى على الانسان
أن يؤديها ، بقوله تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

« الذاريات : ٥٦ »

وهذا التعديد الالهى لرسالة الانسان فى هذه الدنيا ،
يجعله عارف بطريقه الواضح الفطرى السليم ، دون لبس أو

تلبيس (١) فلقد أعلمه الله به ، فليس له على الله حجة بعدما أرسل اليه الأنبياء والمرسلين ليبشروه ولينذروه وليوضحوا له ما غمض من أمر هذه الدنيا ، بحيث يصبح كل شيء واضح أمامه ، وأنه مسئول عن أفعاله وأعماله بعد توجيهه وإرشاده الى طريق الله .

وعلى المربي أن يوضح ذلك تماما للطالب ، بحيث يعرف لماذا خلق الانسان فى هذه الدنيا ؟ وما هو المنهج الحياتى الواجب الاتباع ؟ ! وما هو الثواب اذا عبد الله على الصدق والاخلاص ؟ وما هو عقابه اذا عصى وغفل عن أمر الله ؟ ! وفى ذلك يقول عز من قائل :

« فاما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى »
« النازعات : ٣٧ - ٤١ » .

فالعبادة بهذا المعنى هى عمل لله تعالى ، وهى الموصل على الحقيقة الى نعيم الآخرة ، وهى ليست أشكالا ورسوماً وحركات ، انما هى ايثار وعدل وصدق واخلاص وبر وطاعة وذكر لفضل الله ونعمه ، وهى كذلك رضا بالابتلاء واسقاط لتدبير العبد مع ربه ، وتوكل عليه بالكلية فى كل أمر وفعل ، كما أنها صبر على المفاجعات وصبر على المحبوب والمكروه جميعا .

والعبادة تدخل على النفس السكينة ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والاعتراض والمخالفة لأوامر الله ، وهى خوف ورجاء ،

(١) مدرج السلوك - الشيخ أبو بكر ص ٨٧ وما بعدها .

- ٢٢٠ -

خوف من وعيد الله ، ورجاء فى وعده ، فاذا لم ير العبد الله ،
يوقن أن الله يراه .

فالعبادة بهذا المعنى ليست مقصورة على التكاليف
والفرائض الشرعية والمقررة ، انما هى صدق للنية واخلاص
فى العمل لله .

ولذلك يكون المصلون فى الصلاة الواحدة ، وبين الواحد
والآخر مثلما بين السماء والأرض ، اذ بينهم الطائع ، والمرائى ،
والمخلص والعاصى ، فليست العبرة اذن بتأدية الصلاة بالحركات
والأشكال ولا بالتمتعة بكلمات ، والقلب خال من الصدق
والاخلاص .

فاذا ماتفهم الطالب حقيقة العبادة ، وهو ما زال يافعا
صغيرا ، تربت فى نفسه المفاهيم والقيم الاسلامية ، وأصبحت
طبعاً راسخاً فى قلبه ونفسه وعقله جميعاً .

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا
تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً ، وعلى ربهم يتوكلون »
« الأنفال : ٢ »

الأدب :

يتميز المسلم بالأدب ، والأدب هنا ليس الادب الظاهرى
الذى نراه فى أخلاقيات بعض المجتمعات المتقدمة ، اذ ربما
يكون هذا الأدب رياء وخداعا ، أو مجاملة واسترضاء ، يستهدف
مصلحة أو منفعة شخصية أو ذاتية ، انما أدب المسلم ، نابع من

كنس القلب من الغرور والاعتزاز ، والعجب والطمع والحسد
والحقد ، والاستعلاء والازدراء والسخرية ، هذا الأدب انما هو
ثمرة للتواضع لله سبحانه وتعالى ، وهو نتيجة لسلامة القلب ،
وتطهره من علامات الاعتراض ، وما يحوم حوله من رغبات
وشهوات وآفات .

فالأدب دليل على صحة القلب ، وبعده عن الأنانية وحب
الذات وطلب الشهوات ، والصحة النفسية لدى المسلم ، انما
تتركز على تخلية القلب من الشره والكراهية والبغضاء والتجبر
والتكبر وغير ذلك من الآفات .

ومن هنا يتوجب على المربي ، أن يوجه الطالب ويرشده
الى طريق الأدب ، ولكي يتحقق للطالب ذلك ، يجب أن يساعده
المربي على الابتعاد عن الحسد والحقد ، وأن يكون كل همه
الحب والود والقرب والرحمة والتسامح والطهارة والنية
الحسنة ، وبذلك تتحرر النفس من سلطان الشهوة وغلبة الهوى
وغواية الشيطان .

والأدب ارادة للصبر عند الابتلاء (١) ، وهو رضا عند
المحن والفاجعات ، كما أنه توكل بالكلية على الله في السراء
والضراء ، وهذا توجيه فريد لا يتمتع به غير المؤمن ، التقى
النقى الورع ، يعينه على تخطي العوائق والعثرات ، ويعاونه على
الوصول الى الفلاح والصلاح .

لذلك يرتبط الأدب بالصدق ، كما يرتبط الصدق بالأدب .

(١) الكوكب الشامق - الشمراني تحقيق المؤلف - دار المعارف

لأن المربي يتعرف على طالبه من ارادة الأدب ، ولا يمكن أن يغوص الى اعماقه . ويتعرف على دخيلة نفسه ، الا عن طريق كشف ما بقلبه من خواطر ملكية أو شيطانية ، فاذا وجدته معافياً كان أدبه الظاهر موافقاً لأدبه الباطن ، أى أن هذا العبد لصادق وليس بمراء *

كما ان هنا طريقة أخرى ، يتعرف بها المربي على حقيقة طالبه ، وهى اختياره ببعض الامتحانات ، ومعرفة هل يتقبل الطالب تلك الامتحانات برضى وخشوع ، أم أنه يتحول من الأدب الظاهرى الى الفزع والهلع ، والشكوى والتبرم وعدم قبول الامتحانات ، وهى غالباً ما تحتاج الى الصبر والتحمل والمجاهدة والمكابدة (١) ، وعلى المربي تقوية قلب طالبه ، بحيث يساعد على خوض هذه التجربة ، التى تبرئه تماماً من ضعفه وخوفه وفزعه ، وتجعل نفسه وقد تطهرت من كل دنس وفجور *

ولا يقتصر الأدب بالمعنى الاسلامى على التعليم والتلقين فحسب ، انما يتعدى ذلك الى السلوك ، فهناك الأدب مع المربي وهو عنوان الطاعة ، والطاعة تساعد الطالب على التقدم فى العلم والمعرفة كما أن سوء الأدب يقطع الصلة بين المربي والطالب ، كما تنقطع الرابطة الابوية الروحية التى تجمع بينهما ، حتى وان اجتمعا فى مكان واحد *

ومن علامات سوء الأدب تناول الطالب على مربيه وأستاذه ، واعتراضه عليه وعدم انزاله بالمنزلة اللائقة به ، ومخالفة

(١) التنوير استقام التدبير - ابن عطاء الله السكندرى - ص ٧ وبابها

الطالب لأستاذه باستمرار يدل على انتكاس الطالب ، وهذا بدوره يؤدي الى الضياع والخسران •

لذلك فأننا نجد أن التربية الاسلامية ، تقوم على سلوك الأدب مع المربي ، فيجب أن يستغرق الطالب بنفسه بالكلية معه ، وأن يهتم تماماً بما يصدر عن المربي من أقوال وأفعال ، وكأنه جالس ينتظر على ساحل بحر رزقاً يأتيه ، فما يرتزق به من مربيه ، يحمد الله عليه ، وهذا يعاون على اصلاح ما بنفسه من آفات ، ويحقق ما يهدف اليه من علم وصلاح وعلاج واستقرار ،

وان غلبة شهوة الكلام على الطالب ، يعد في التربية الاسلامية من سوء الأدب ، وكذلك الرغبة في الجدل ، اذ أنها ترد الطالب عن مقام الاستفادة ، وتهبط به عن درجة الاستزادة بالعلم والتربية ، فمن حسن الأدب أنه اذا تكلم المربي سكن الطالب ، أما اذا قاطعه الطالب فمعنى ذلك غلبة الشهوة الظاهرة على باطن الطالب •

وكذلك التضحك والسخرية في مجلس المربي تعد من أقبح الأعمال ، ولا يرجى من الطالب فائدة الا اذا تاب عن ذلك تماماً • فالسكينة والوقار من أساسيات الأدب مع المربي وهو زى أهل الكمال ، فاذا حضر الأدب في مجلس العلم حضر الطريق ، واذا غاب الأدب ، فلا أدب ولا طريق •

التمثيل القصصى القرآنى

فى القصص تشويق للنفس ، (١) وسبحات للخيال الانسانى ، كما أن القصة الجيدة تفعل فى النفس فعلها ، فتثير النفس بمشاعر مختلفة ، من حب وحزن ورضا وكراهية وغضب ، اذ تنفعل النفس بالمواقف المتعددة التى تروى لها عن طريق الكتابة ، أو الصور المرئية أو المسموعة •

فتتقمص النفس بعض الشخصيات الموجودة بالقصة ، وتتوحد بها ، وهذا ما يسمى بالمشاركة الوجدانية •

فاذا كنت تجلس فى مسرح من المسارح ، لتشاهد عرضاً لقصة مسرحية ، فاذا بك تلحظ أن بعض الفتيات الجالسات بجوارك ، يبكين عندما يشاهدن منظر الفتى أو البطل وقد أمسك به بعض الظلمة ، وأخذوا يعذبونه بشتى أنواع العذاب • فالمشاهد وخاصة اذا كان من صغار السن ، ومن النساء على وجه الخصوص ، يتأثر سريعاً بهذه العروض ، سواء كان ذلك بالأنس والفرح ، أو بالحزن والضيق الشديد ، وكأن ذلك واقع حقيقى ، وهذا ما يسمى بالمشاركة الوجدانية •

فالقصص تؤثر فى النفس تأثيراً كبيراً لذلك فان الله سبحانه وتعالى العالم بحقيقة النفس الانسانية ، يستخدم القصص القرآنى كوسيلة للعملية التربوية ، لأنه تعالى يعلم الميل الفطرى الى القصة فى الخلق البشرى ، ويدرك بعضهم حكيمته سحر القصص على القلوب •

ف نجد القرآن الكريم يستخدم القصة التاريخية ليعرض لنا نبذة عن حياة الأمم السابقة ويربط التاريخ بالأخلاق ، فيبين مدى انحراف هذه الأمم عن الطريق القويم ، كما يعرض لبعض الشخصيات التي تمثل القدوة الصالحة ، ل يختار الانسان الطريق الواجب الاتباع من خلال سماعه أو قراءته للقصة القرآنية .

ويشتمل القرآن الكريم أيضاً على القصة الواقعية ، التي تحكى للقارئ بعض النماذج الانسانية فى حقب مختلفة من الزمان ، وكأن هذه الشخصيات تعيش بيننا . فيرسم بعض الشخصيات التي تنزع الى الاسراف أو التبطل أو الجنوح ، أو الكفر أو الاغترار ، أو الطمع .

كما يعرض لبعض النماذج البشرية التي تتمثل فيها القدوة الحسنة كشخصية الحكيم ، والصابر ، والتقى ، والأواب ، والصادق ، والمحسن ، والعالم ، والمؤمن .

وهذه الشخصيات الطيب منها والخبيث ، يمكن أن تكون موجودة ، فى أى مجتمع بصورة من هذه الصور وفى كل عصر من العصور .

قصص الأنبياء ، وقصص المكذابين بالرسالات يعرضها لنا القرآن الكريم مبيناً نصر الله سبحانه وتعالى لأنبيائه ، وموضحاً ما أصاب أعداء الله من عقوبات من جراء تكذيبهم لكلام الله ، مثل قصة موسى وفرعون ، عيسى وبنى اسرائيل ، هود وعاد ، وشعيب ومدين ، لوط وقومه ، نوح وأهله ، وغير ذلك كثير .

— ٢٢٦ —

وكذلك يمثل القرآن الكريم بين شخصيتين أحدهما مؤمنة والآخرى مكذبة ، مثل صاحب الجنتين الذى دخل الى جنته وهو ظالم لنفسه :

« ما أظن أن تبید هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة »
« الكهف : ٣٥ - ٣٦ »

ويرد عليه صاحبه المؤمن فيقول له :

« أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلاً »
« الكهف : ٣٧ »

هذه المناقشة بين المؤمن والكافر ، يمكن أن تحدث فى أى عصر وفى أى مكان ، بين شخصيتين ، أحدهما مؤمن والآخر ملحد ، وعلى القارئ أو المستمع صاحب الفطرة السليمة والعقل الرشيد ، أن يتعلم من هذه القصة أن طريق الكفر يؤدى بصاحبه الى الخسران المبين ، كما حدث لصاحب الجنتين ، كما أن طريق الايمان يؤدى الى التوفيق والسداد والنعم الظاهرة والباطنة .

وهناك قصة يوسف عليه السلام ، وزليخة زوجة العزيز ، التى راودته عن نفسه :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه »
« ص : ٣٠ »

فاله سبحانه وتعالى يبين للناس فى هذه القصة ، كيف أن الشيطان يغوى الانسان لارتكاب الفحشاء ، ويبين لنا أن النفس

الانسانية متى استجابت للغواية ، أصبحت نفساً أمارة تدعو الى الفساد والافساد ، كما هو واضح من شخصية زليخة .

ومن ناحية أخرى يوضح لنا الله تعالى فى هذه القصة أن الانسان الصادق مع الله ، الصابر فى الله يمكن أن يلتجأ الى الله ليعينه عندما يشعر بضعفه أمام اغراء المرأة اللعوب ، فيضعف أمام مطالب الحس ، بما جبل فيه من حب للشهوات .

وعندما يتقرب الانسان لله بالدعاء فى هذا الموقف ، فانه يأخذ بيده ويساعده وينصره على طريق الحق والرشاد ، وهذا ما حدث تماماً ليوסף عليه السلام فى هذه القصة .

ويستفيد القارئ أو السامع من هذه القصة ، ومن مثيلاتها بما يقصه الله تعالى على الناس ، يستفيد السامع والقارئ أن الطريق المستقيم ، هو الموصل حقيقة الى النجاح والفلاح فى الدنيا وفى الآخرة ، وأن الانسان اذا تقرب الى الله شبراً ، تقرب اليه ذراعاً ، وأنه لولا الله لفست نفسه وعقله وقلبه جميعاً .

فالقصة هامة جداً فى العملية التربوية ، لذلك فلا بد من ان تهتم المؤسسات الثقافية فى الدول الاسلامية بالقصص الذى يحض على التمسك بأهداب الدين القيم والشرعية السمحاء ، ولا بد أن يكون بطل القصة شخصية حكيمة تدعو الانسان الى محاسنها والتطبع بأخلاقها ، والتمسك بقيمها ومبادئها .

كما أنه يجب أن تظهر الشخصية المنحرفة والجانحة عن

الحق فى صورة باهتة ، تجعل القارئ أو السامع ينظر اليها ببغض واحتقار شديد ، خاصة عندما يظهر له من العرض القصصى ، أن النهاية التى تنتهى اليها الشخصيات الانحرافية ، هى نهايات مظلمة ، حيث تلقى الشقاء والتعاسة فى الدنيا والآخرة •

وبذلك يمكن أن تكون القصة فى خدمة العملية التربوية ، فتهدى الشباب والكهول الى طريق الاستقامة ، حيث تبغض لهم ارتكاب الرذائل والفحشاء ، وتبشرهم من ناحية أخرى بالنعيم والجنات التى تنتظرهم اذا ما ساروا فى طريق الله • ويتوجب على المؤلفين والمشتغلين بأجهزة الاعلام المختلفة ، اختيار القصص الذى يدعو الى مكارم الأخلاق وينبذون الجنوح والانحراف عن جادة الصواب ، فيبتعدون عن العروض الرخيصة ، والصور التى تدعو لنعرات الجنس ، ودعاوى الالحاد •••

ان على المهيمنين على المؤسسات الثقافية والاعلامية ، رسالة ضخمة عليهم أن يؤدوها بأمانة واخلاص ، ألا وهى الدعوة الى دين الله ، والعمل بما أمر الله والنهى عما نهى عنه ، ولا عذر لهم فى عرض الصور المرئية والمسموعة على المشاهدين والسامعين والقارئین ، قد شحنت بالاثارة للشهوات والنعرات التى تحض على ارتكاب المعاصى والضلالات •

لا عذر لهم ، فان النفس الانسانية تقبل الطيب ، كما يمكن أن تقبل الخبيث ، وعليهم تغذية النفس بالطيبات ، وزجرها عن الخبائث والضلالات •

الباب الرابع

(الأسس النفسية لتربية النفس في النظرة الإسلامية)

الفصل الأول :

- ١ - معرفة الحلال والحرام .
- ٢ - الايمان بالغيب .
- ٣ - جهاد النفس .

الفصل الثاني :

- تربية الاحساس الفني والجمالى .

الفصل الثالث :

- أثر المسجد فى العملية التربوية .

مقدمة :

نود في هذا الباب ، أن نتطرق الى بعض الموضوعات التى تتعلق بتربية النشء . ولقد كثر الجدل حول بعض المسائل ، التى تتطلب من أهل الحل والعقد أن يدلوا برأيهم فيها .

وهذه الموضوعات ، ربما لم تكن من قبل تحتاج الى المناقشة ، واجتهاد من العلماء . الا أنه قد جاء الوقت لمناقشتها ، وبيان مدى موافقة الشريعة الاسلامية عليها من عدمها ، فهل هى تعد من المحرمات أو من المباحات .

ومن تلكم الموضوعات ، الصور المرئية والعروض المسرحية والأعمال الموسيقية والفنون المختلفة .

ويقف المسلم فى هذا العصر حائرا ، بين الأخذ بهذه المستحدثات والمستكشفات ، وقد أصبحت ملازمة للناس فى الأمكنة العامة والخاصة على السواء ، وبين نبذها وتجنب مشاهدتها او الاستمتاع بها باعتبارها من المحرمات . ويترتب على الأخذ بهذه الفنون والعروض المستحدثة ، استخدامها كوسائل لتربية النشء فى العمية التربوية ، كما يترتب على تحريمها اعتبارها من الممنوعات والمحظورات ، التى يعاقب على مشاهدتها او الانصات اليها .

ومعنى ذلك انها ستصبح سلعة ، تروج فى الخفاء ، يقبل عليها نفر من الناس فى غيبة من القانون ، وهذا ما يكون له من الآثار السيئة أكثر مما لو كان قد أبيحت ممارسته .

ان موقف المسلمون من التقدم الحضارى موقف عجيب ،

- ٢٣٢ -

فهم يقلدون ويحاكون الفنون الغربية ، بلا فحص أو تمحيص ،
لما يقدم اليهم من الحلال والحرام .

وفى نفس الوقت نجد بعض المتزمتين يرفعون أصواتهم ،
ويجهرون بالقول ، بأن كل ما يقدم من الحضارة الغربية يدخل
فى باب المحرمات ، فيرون أن التلفاز هو وسيلة شيطانية ، وأن
العروض المسرحية بدعة وضلالة ، كما أن الموسيقى هى من
المحرمات .

هذه الموضوعات وهذه المشاكل ، لم يبت فيها حتى الآن
برأى صائب ، يبين للمسلم طريقه ، ويرشده الى ما ينفعه فى
دنياه وآخرته .

اننا نحتاج فعلا الى تطوير المسجد ، وادخال بعض
المستحدثات فيه ، ليقبل عليه العباد وطلبة العلم والدارسين ،
فلا يغلق أبوابه بعض الصلاة ، انما يصبح منارة للعلم وبابا
لحل المشاكل الاجتماعية والنفسية . كما أننا نريد ان تكون
وسائل الاعلام ، وسائل لتربية الاحساس الفنى والجمالى ،
ومعرفة الحلال والحرام ، كما يجب أن تكون وسيلة لتثبيت
ايمان المؤمن ، وليست وسيلة لاثارة النعرات ، وموافقة
الشهوات ، وتقليد أصحاب الأهواء من الملحدين والظالمين
الطرق التربوية لا توصل الى التكامل الأخلاقى ، ولذلك يتوجب
لأنفسهم ، والمسرفين فى التبرج والسفور واللاأخلاق .

لقد جربنا الوسائل المختلفة التى يستخدمها الغربيون فى
تنشئة ابناءهم ، ولقد وجدنا بالتجربة أن هذه الأنظمة وهذه

- ٢٣٣ -

علينا أن يكون لنا منهجنا التربوي ، الذي نستقي أصوله من
المنبع الذي لا ينضب ، والذي هو كلام الله وسنة رسوله ، ونعمل
بما أمرنا به وننتهي عما نهانا عنه • ومن اصدق من الله
حديثا •

الفصل الأول

١ - معرفة الحلال والحرام :

ان الاسلام دين الفطرة واليسر والرحمة ، ليس على المؤمن به أى مشقة أو عنت أو عسر فى اتباعه ، فلا تشمل القواعد القرآنية على طقوس معقدة أو طلاس غامضة ، أو ممارسات شاقة تثقل على النفس ، وتبتعد بها عن مواكبة العقل الرشيد والقلب السليم والنفس المستقيمة •

فالدين انما يواكب الفطرة السليمة وقواعده ميسرة للعامى والعالم على السواء ، ولا يحتوى على تناقضات أو متضادات ، انما هو يتمتع بالأصالة والبساطة والرحمة واليسر فى السلوك والتطبيق •

والحلال بين والحرم بين، كلاهما ظاهر للنفس المستقيمة، اذ هو يتوافق مع العدل النفسى ، والبعد عن الجور والظلم والشرك ، وبذلك تواكب الفطرة السليمة العدل ومعرفة الحلال والحرام •

ولا شك أن العدل هو مقصد الرجل المستقيم المقتصد فى الأمور (١) ، وهو الذى يتجنب الافراط والتفريط ، والاسراف والتفريط ، ايثارا لما يصبو اليه من غايات سامية وقيم عالية •

فالحلال هو نقيض للجور ، والجور ضد القسط والقصد ، وهو حق ، لأنه ضد عدم قيام الشئ فى موضعه ، فالحلال يوافق العدل لأن قلب الأشياء عن مواضعها هو سقوط وتجور

(١) المعرفة عند الحكيم الترمذى - عبد المحسن الحسنى ص : ٢٣٥ وما بعدها

وان الم يعدل الشيء فقد تجور ، كما يقال قد تجور الشيء ،
أو تجور العدل ، أى انقلب ولم يعدل (١) فالحلال ضد الحرام ،
لأن الحلال معناه الاعتدال والاستقامة والموازنة ، والدين
استقامة للنفس وللأشياء فى مواضعها ، وبذلك يتحقق للنفس
أمنها واستقامتها •

وأما الحرام فهو ظلم وجور وسقوط وانحراف وميل ضد
طبيعة الأشياء ، فهو نقيض العدل لأنه ظلم ، والظلم من
الظلمة ، أى ذهاب النور ، والظلم نقص فى الشيء ، ولذلك
يقال ، ظلم الشيء أو لم يظلم من جانب ، أى لم ينقص من
جانب ، فاذا لم يوضع الشيء فى غير موضعه فقد ظلم ، كأن
يحفر انسان أرضا فى غير موضعها فهو بذلك قد ظلمها •

وكما أن الحلال هو استقامة وتناسب واقتصاد وعدم
افراط ، أو تطرف ، فان الحلال يقصد به اذن العدل وهو
الوسط ، والوسط هنا هو الاختيار الأمثل •

وكما يمكن تطبيق فكرة الحلال والحرام على النفس
باعتبارها الوسط العدل بين الافراط والتفريط ، وباعتبارها
الفطرة السليمة التى فطر الانسان عليها ، اذ أنها تعبر عن
حقيقة الدين ، الا أنه يمكن كذلك تطبيق فكرة الحلال والحرام
فى مجال السياسة واجتمع •

وبذلك يصبح دستور المجتمع وقانونه ، الذى يشتمل على
العرف والتقاليد من مصدر صادق جميل ، أى مصدر صادق

(١) راجع الشريعة والحقيقة • للمؤلف

لأريب فيه ولاشك ، يستمد وجوده من التشريع الاسلامى ، ويشتمل على معنى واحد وغاية واحدة هو اقامة العدل بحسب أمر الله ، وبذلك يخضع لقواعده جميع طبقات المجتمع (١) .

وكما يستهدف الحلال والحرام مصلحة النفس الانسانية ، فان الحلال والحرام هو عدل ، يستهدف عند تطبيق قواعده مصلحة المجتمع الذى يحكم به أيضا ، وهذا العدل يحتاج الى مرونة فى تطبيق قواعده ، وان لم يفقد أصوله ، الا أنه يواكب بمرونته كل مجتمع بحسب اختلاف طبائعه ، وبيئته وظروفه الحياتية .

والحلال والحرام هما قاعدتين أساسيتين لحماية الفرد والمجتمع ، وحقوق الله وحقوق الناس ، فى المحافظة على الأموال والأعراض بحسب ماتأمر الشريعة الاسلامية .

ومن ناحية أخرى فان مقتضى العدل هو مطالبة الأفراد أيضا ، بأداء الواجبات نحو الله . وان الاخلال بها يعد من المحرمات ، كما يعد الاخلال بالمبادئ الأخلاقية والاجتماعية ، نوعا من المحرمات أو المستكرهات فى التشريع الاسلامى .

والدين الاسلامى يفرق بين العمل المحرم والعمل المباح ، مستهدفا فى ذلك تحقيق فكرة العدل درجة درجة فى الطريق الى العدل الشامل ، أو العدل الكلى أو العدل النهائى .

والانسان يحب مما لا شك فيه العدل المطلق ، ذلك العدل

الذى يواكب الفطرة السليمة ، ويميزه العقل الراشد ، وهذا العدل لا يخضع لمصطلحات أو تعبيرات أو تفاسير . اذ أنه فى جارحة كل نفس ، وهو لا يتغير ولا ينسخ ، ومثال ذلك العدل المطلق الفطرى ، نجده مثلا فى عدم الاساءة لمن يسىء الينا . أو الايمان بنوع من الالتزام نحو الانسان ، أو عدم الاعتداء على من يعتدى عليك *

وهذا العدل المطلق ، انما هو العدل الالهى ، وأن الانسان عندما يصبو بفطرته السليمة فانما هو يحاكي فيه عدل الله ، الا أن الانسان لا يمكن أن يصل الى عدل الله ، وبذلك لا يمكن الا نادرا ، أن يتحمل الاعتداء بدون أن يرد عليه ، أو لا يسىء لمن أساء اليه ، أى أن الانسان لا يمكن أن يكون الهيا فى عدله الا تمثلا فحسب ، وأما سلوكا فانه يصبح فى غالب الأمر من الأمور العسيرة *

لذلك كان للعدل درجات تبدأ بمعنى التسوية أو بمعنى التوازن أو الاستقامة (١) بحيث تشرع القواعد للحكم على صالح الأمور من فاسدها فيعاقب المعتدى ، ويعزر المسىء ، بحسب قواعد العدل الظاهرى . ونضرب لذلك مثلا ، بأن المعتدى يقدم للمحاكمة ، ويقام عليه الحد بحسب جريمته بمقتضى قاعدتى الحلال والحرام تحقيقا للعدل *

لكننا لا يمكن أن نخضع المعتدى ، ونحن بشر ، الى قواعد العدل الالهى ، ذلك لأن هذا العدل ، انما هو عدل مستقل عن كل

(١) معجم الفاظ القرآن الكريم ج ٢ ص ١٨٠ ١٩٠

شيء ، عن النفس والافراد والعرف والتقاليد ، اذ انه عدل
يرقى فوق معنى العقل (١) *

ويؤيد رأينا هذا قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه
السلام فى قوله كما ورد عن الله سبحانه وتعالى :

« انك لن تستطيع معى صبراً » « الكهف : ٢٢ »

بمقتضى العدل الظاهرى ، ارتأى موسى عليه السلام ،
أن ما أرتكبه الخضر عليه السلام ، هو من المحرمات ، مثل خرق
السفينة وقتل الغلام *

ومن ناحية أخرى ، فان بناء الجدار كان يستحق الخضر
عليه أجرا من أصحابه ، فنجد هنا أن فكرة العدل التى طبقها
موسى عليه السلام على ما وقع أمامه من احداث ، تنحصر فى
العدل المطلق ، لكن هذا العدل لا يتعدى العقل ، لكن العدل
الالهى ، وحكمه على ما يجرى من أحداث ، يتجاوز علم موسى
عليه السلام ، لذلك فقد أنكره ، ولم يستطع أن يصبر عليه ،
بل اعتبره من الأمور المنكرة أو من المحرمات *

لذلك فعلى الانسان أن يحكم بالعدل ، بحسب التشريع
الاسلامى وبحسب أمر الله ، فيطبق قاعدتى الحلال والحرام كما
أمر بهما الله سبحانه وتعالى ، دون أن يتجاوز ذلك ، لأنه غير
مأمور الا بتطبيق أمر الله تعالى ، لأن ذلك انما هو ما يصلح

— ٢٣٩ —

للانسان بحسب طبيعته ، التى فطره الله عليها ، والحلال بين
والحرام بين •

واستهداف الانسان للعدل ، يجعله مستقيما متوازنا ،
لا يميل ولا ينحرف يمينا أو شمالا ، وبذلك يظفر الانسان
بالتوفيق والنجاح والسداد •

٢ - الايمان بالغيب

ان الالتزام بالنسبة للماركسى ، هو أن ينتج أو يفكر أو يقوم بنشاطه الأدبى أو الفنى ، وفق محركات وأسس وضعتها ثلة من الشيوعيين ، فالالتزام معناه أن يفكر بعقله ، وأن يبذر ويرعى حقله ، حسب التعليمات والأوامر التى وضعها زعماء الحزب . . فاذا خرج عن تلكم الحدود المرسومة ، أعتبر خارجا عن النظام مهما كان عمله رائعا عظيما ، وتلصق به تهمة عدم الالتزام ، ويحاكم ويعزل من مناصبه ، وربما يرمى به فى صحراء سيبيريا القارصة البرودة . .

لقد طغى سلطان الوجودية بين الشباب الأوروبى ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأصبح مفهوم الالتزام فى دول أوروبا الغربية غامضا ، لدرجة أنه يمكن أن يقال ان الالتزام هو ألا تكون ملتزما بشيء ، وهذا هو غاية الالتزام فى نظرهم ، فالفنان الوجودى عندما يتمرد على الواقع . . ويشور على المفاهيم والتقاليد والمثل التى يعتقد المجتمع فيها . . نقول عندما يتمرد ويشور على المجتمع ، فانه فى تصورهم فى موقف الملتزم ، بمعنى أنه ملتزم بمفاهيمه النابعة من ذاته هو ، وملتزم بالثورة والتمرد ضد الواقع والمجتمع . . الخ .

اننا نرى أن ذلك انما هو نوع من السفسطة العرجاء ، لكنها تلبس ثوبا جديدا ، ذلك أن الوجودى كإنسان غير ملتزم بشيء على الاطلاق ، ما دام قد تمرد على الفضائل ومكارم الأخلاق ، فأصبح فنه عبثا وفكره لعبا ولهوا . . تحركه الخيالات ،

فيصيف أمانى النفس وأضغاث الأحلام شعرا أو نثرا ، أو رسما
أو صورا ، كأنها حقائق لا ريب فيها ولا شك فى صدقها ،
والغريب أن يروج لهذه الفنون الرخيصة والآداب الهابطة ،
أصحاب دور النشر والمنتجين ، والمخرجين والنقاد حتى يسطع
اسم الفنان الى أعنان الفضاء .. وذلك لأن انتاجه شاذ ومثير
للمشهورات لا لسبب آخر .

ان الالتزام بهذه التيارات الالحادية .. وهذا الفكر
النجس الرخيص ، وهذا الفن الذاعر البغيض ، انما هو التزام
بالشرك وعبودية للهوى وغرور بالعقل الجانح عن الحق
والصواب ..

إذا تأملنا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،
لوجدنا أنه يقتضى بالفنان أو المفكر المسلم ، أن يرتبط فى
سره وعلايته ارتباطا وثيقا بأمر الله وعلم الله وحكمة الله ..
وهذا الارتباط هو قول باللسان ومعرفة بالجنان ، وعمل
بالأركان ، ويلهم الفنان أو الأديب ، بالمعاني الجليلة والآداب
الرفيعة ، والعلم الحق ، اذا اطاع الله ورسوله ، وينقص بالرياء
والعصيان وينمحي عمله بالشرك والالحاد والكفران .

ومعنى ذلك أن الايمان هو منهج الفنان أو الأديب أو
المفكر المسلم ، فمنه تنقذ القرائح ، ومنه نسقى المعارف ،
واليه يرجع الفضل فى العلم والعمل والاخلاص جميعا .

الايمان بالله ، لا الالتزام بمزاعم مغرضة ، ونظريات
متهافئة ، وأفكار منحرفة هو دليل الأديب والفنان والمفكر

المسلم .. وكفى لنا تأكيدا على صدق ما نقول أن يصف الله نفسه في كتابه العزيز :

(السلام .. المؤمن .. المهيمن) « الحشر : ٢٣ »

فالإيمان بهذا المعنى هو الدين والشريعة والملة .. لان الدين هو ما يتبعه العبد من الطاعات ، مع اجتناب المحظورات والمحرمات وذلك على الحقيقة أصل الإيمان .

والإيمان فطرى فى الانسان ، يزداد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترك الاعتراض والتحدى والشك فى وعد الله ووعديه ، وهو فى نفس الوقت ثقة فى الله وخروج من الحول والقوة ، فلا يزعم الانسان لنفسه القدرة والعلم وكشف الغيب وأتيان العجائب .. كما أنه صبر على النعمة وشكر على النعمة ، وترك للتهمة فى سائر الأحوال .

وخلاصة القول أن مصطلح الإيمان لا الالتزام ، هو المصطلح الصالح الواجب التطبيق فى حقول المعرفة وفى دنيا الآداب والفنون .. اذ هو المنحة الربانية والهبة الالهية للعبد السائر فى طريقه تعالى .. والله تعالى ينعم عليه ويمن عليه برحمته وهده .. وبذلك يعيش الفنان المؤمن مجاهدا فى الله ، فما يرتزق به يحمد الله عليه ، وما يمتحن به يدعو الله أن يتلطف به ويوفقه فى مرضاته .. ولهذا المعنى يرجع سبب التجدد النشط فى أعمال الفنان أو الأديب المؤمن .. ولهذا السبب أيضا يرجع السبب فى شمولية علم المؤمن .. فتراه أديبا ومفكرا وفنانا ، ومحدثا وفقها وعالما بعلوم كثيرة ..

جهاد النفس

إذا تركت النفس دون تربية أو ارشاد أو توجيه ، وجدتتها ، كالطفل المدلل تميل الى الراحة والخمول حيناً ، وتميل الى اللعب والمعبث حيناً ، فهي دوماً تحتاج الى التذكير بحقوق الله عليها ، والتنفير من المعاصي واثيان المستقبحات ومقارفة الموبقات •

لذلك كان طبع الجاهل النسيان لأوامر الله ، فإذا ما طال عليه العهد دون أن يرجع عن غيه ، ويثوب الى رشده ، ويندم على ما أضاعه في المحرمات من سنين عمره ، إذا ما طال عهده بالنسيان تملكته الغفلة وأصبح من الصعوبة بمكان علاج أمر نفسه ورجوعه الى حظيرة الايمان ، اذ الغافل يركن الى الشهوات ويرى في الحرام حلاوة غفلته ، فإذا ما وجد عوائق تحول دون تنفيذ أهدافه في الشهوات عمد الى الرياء والغش والخداع ، أو ارتكب الجرائم وغفل عن العقاب والقصاص ، وبذلك يوقع نفسه في الضلالة والخسران في الدنيا والآخرة •

وتؤدي الغفلة الى التمهيد بالشر ، اذا يرى الجاهل الغافل المنحرف في الشر خيراً ، وفي الخير شراً ، بعد أن اعتادت نفسه الأمانة على اتباع الأهواء وموافقة غواية الشيطان ، حتى تمعد في نهاية الأمر الى سلوك كل قبيح ومستقبح أو رؤية الأفعال على غير حقيقتها ، واقتراف الرذائل في لذة شاذة ، وبالجمله تكون كل أموره غير فطرية دون أن يعي شذوذها لغفلته ، حيث اختلت موازينه العقلية في الحكم على صحيح الأمور من إفاسدها •

لذا يحتاج الانسان الى جهاد طويل مع نفسه حتى يستقيم حالها (١) ، وتسلم قيادها الى أمر الله وحكم الله فلا تطيع الا ما أمر به تعالى ، ولا تنهى الا عما نهى عنه ، وهنا تسكن النفس من سوراتها ، وتخلد الى الأمن ، وتكتنفها السكينة ، ويمن الله عليها بالطمأنينة فتصبح نفسا راضية مرضية ، يحبها الله وتحبه ، ويرضى عنها وترضى عنه .

الا أن الوصول الى هذا المقام العظيم يحتاج الى الجهاد المستمر والمكابدة والمعاناة لفترات من العمر طويلة ، والكثير من الناس يصعب عليه الأمر ، وينظر الى الجهاد نظرة القانط من رحمة الله ، حتى يتملكه اليأس فيتوقف عن الجهاد والمجاهدة وبذلك يظلم نفسه ويضيعها ضياعا رخيصا .

ان مجاهدة النفس عملية جد شاقة ، الا أنها الرسالة الأساسية للانسان ، وهى الأمانة التى حملها الانسان من دون المخلوقات ، اذ أن المجاهدة - اذا تعود الانسان عليها - تصبح طبعاً ملازماً له ، ويرى فيها لذات عظيمة ونعماً طيبة ، تجعل من طريق المجاهدة نورا مشرقا يبين لصاحبه ما غمض عليه ، ويفتح قلبه على الأشياء الخفية فيراها ببصره وبصيرته جميعا .

ان للمجاهدة ثمرات رائعة ، وهى التى تجعل المؤمن يطمئن الى طريقه مهما لاقى من صعاب ، ومهما امتحن من معن ومصائب وشدائد وابتلاءات ، ومهما صادفه فى رحلة جهاده من عوائق وغوايات وعشرات . . لأنه قد اجتاز بأمان دنيا الأهواء ،

(١) أحياء علوم الدين - الامام الغزالي « كتاب العلم »

وعافت نفسه عن الشره والحرص وطلب الشهوات •

ان القوى النفسية التى تحكم دنيا النفس تتمثل فى قوى
أربع (١) وهى :

١ — قوة العلم (العلم الالهى) •

٢ — قوة العدل (العقل) •

٣ — قوة الغضب •

٤ — قوة الشهوة •

والانسان الصالح يهيمن بقوة العلم على القوى الأخرى فى
النفس وتأتى بامرتها ، ولا تعصى لها أمرا ، اذ تتوازن قوة
العدل ويصبح العقل الانسانى راشدا راجعا فى أحكامه على
الأمر والأفعال •

أما الانسان الذى يتبع هواه ، ويوافق غواية الشيطان ،
تضعف عنده قوة العلم ، وبذلك ينعت بالجهل ، ويتحول هذا
الجهل الى غفلة دائمة فيقع فى الأخطاء والمعاصى والاثام •

والجاهل تسيره قوة الغضب ، فيندفع بجهله الى الحماقات
ويرتكب الأفعال المستقبحة ، وأما الغافل فان القوة الشهوانية
تقوده الى المخالفات واثيان الفواحش ، وبذلك تفسد دنيا النفس
وتعطب ، وينتكس صاحبها ويضيع نفسه ضياعا رخيصا •

وحقيقة الأمر أن القوتين الغضبية والشهوانية تتعاونان

(١) احياء علوم الدين — الامام الغزالى « كتاب العلم »

فيما بينهما عند اقتراف الرذائل ، كما أنهما غالبا ما يشتركان في الجريمة الواحدة ، ومن ناحية أخرى فانه اذا قويت قوتى العلم والعدل فى الانسان فانه يعتدل مزاجه ، وتتوازن أحكامه نتيجة لتسكين قوتى الغضب والشهوة ، فاذا ما برزت قوة الشهوة محاولة اتيان الفعل غير المشروع ، سلطت قوة العدل الغضب على الشهوة فأسكنها والعكس بالعكس .

١ - النفس بين الهوى والاستقامة :

واذا تأملت دواخل النفس رأيت عجبا ، واذا هتكت السواتر ، ومزقت الأقنعة ، وظهرت النفس وقد تعرت تماما من مظاهرها الكاذبة ، وزخارفها البراقة ، وأشكالها الخادعة ، بدت الحقائق تندفع أمامك ، وانزوت الأباطيل والألوان الزاهية ، وانكمشت بعيدا عن مرأى البصر .

ربما يملك الفزع ، ويكتنفك الرعب ، وتشعر بالوحشة من هول ما ترى ، لكن ذلك ليس معناه أن تهرب من هذا الموقف « الدرامى » فان الهرب حينذاك هو هرب من نفسك ذاتها ، والهرب من رؤية حقيقة النفس يؤدى الى طريق مسدود ، فاما الى الاصطدام المفاجيء وهذا أقسى على النفس وأمر ، واما الى الاستخفاء ، وهذا أيضا يجعل الحياة مرة كالعلقم ، شقية شقاء السيف المسلط على رقبة القاتل ، تعيسة تعاسة المريض الذى لم يشف من دائه السرطاني الوبيل ، ولم يرحم بالموت السريع .

اذا دخلت الى كهف النفس وجدت ما يخطر على بالك ، وما لا يخطر على بال ، فهناك دهاليز وحارات وعطوف ومغاليق

لأبواب وحصون وسدود ومعازل وقناطر وفنادق وجسور ، ثم أنك ترى أسلحة ومعدات تكفى جيشا بأكمله وتزيد . بل ربما لا يمتلك ذلك كله جيش جرار ، ولا دولة عظمى لتحصن ضد أعدائها ، وانما تمتلكه نفس واحدة يحملها جسد واحد وقلب واحد وعقل واحد * كل ذلك يحمله الانسان بين جنباته ويا له من حمل ثقیل تنوع به الجبال الشامخات .

ترى داخل النفس خصمان يتنازعان وجيشان يتدافعان ، وقوتان تتحاربان ، وهذه الأسلحة تستخدم للتحديات والحروب النفسية من أجل الظفر والانتصار وتحقيق المتطلبات والرغبات والشهوات ، أو التوازن والاعتدال .

والخصمان المتنازعان ، داخل النفس هما الهوى والاستقامة ، والهوى يستخدم الغش والخداع ، ويوسوس للنفس بالأمانى الكاذبة والأمال الزائفة ، ويخطط لمستقبلها تخطيطا مبهما يجعلها تستجيب لأفانيه .

يستخدم الهوى الغواية ، واذا فشل فى الوصول الى ما يريد ، أشاع داخل النفس جوا من الارهاب ، وهدد بمختلف أنواع السلاح ، وخطب الخطب الطوال للتنكيل بخصمه واضعافه وارهابه حتى يخلو المسرح فيشيع الفساد والافساد ، ويجعل النفس ميدانا للعداوة والبغضاء والحقد والحسد ، والغرور والاغترار والطمع والشره والأنانية والكبر والتجبر والخيلاء .

حرب دؤوب بين الهوى الذى يستعين بالرجيم ابليس اللعين ، وبين الاستقامة التى يلهمها ربها الحق المبين .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »
 « الشمس : ٧ ، ٨ »

واذا انتصرت الاستقامة فى معركة ونبتت الغواية
 وأعوانها ، سكنت النفس واطمأنت ، وأمنت واستراحت ،
 لكن الهوى لا يعترف بالهزيمة ، ويتربص بالاستقامة
 الدوائر . . فإذا ما وجد الوقت مناسباً آغار على الاستقامة ودفع
 بها الى المعركة دفعا .

وبرغم اعلان الهدنة وأخذ العهود والمواثيق فلا يحترم
 الهوى الا شهواته ، وتنفيذ مخططاته وأغراضه ومتطلباته
 العاجلة التى لا تشبع .

الاستقامة تحمل فى مضامينها الحكمة والعدل والتوازن
 والاعتدال ، ولا تعرف الغش والخداع ، ولا تسفك الدماء ولا تثير
 الغرائز والشهوات ومع ذلك فان الهوى دائم الاتهام لها
 بالاعتداء ، يخطط لها حبالل الواقعة ، ويمكر ويتخابث ويظلم
 ويعتدى على كل الحدود ، ولا يسكن الا برؤية الدماء ولا يهدأ
 الا بالعدوان .

وان انتصار الاستقامة ليغيب الهوى والشيطان جميعا ،
 فبسيطرتها على قوى النفس ، تنعدم وظيفة الهوى ، وتتوقع
 الغواية فى دهليز من دهاليز النفس ويحكم عليها بالمزلاج
 فلا تستطيع فرار أو هروبا ، ويصبح الهوى حينذاك فى سجل
 النسيان وذكرى لمن يريد أن يتعقل ويعتبر .

هذه هى دنيا النفس من الداخل يقودها الهوى حيناً وتقودها الاستقامة حيناً ، وتختلف مدد حكم الهوى أو الاستقامة من نفس الى نفس ، فالنفس الأمارة يحكمها الهوى بصفة دائمة ، والنفس اللوامة تتدافع بين الاستقامة والهوى لعل أحدهما ينتصر فى الموقعة ، فان انتصر الهوى لجأت النفس الى التوبة وندمت على الذنوب والاثام التى وقعت فيها بسبب الهوى والغواية ، وأما النفس المطمئنة فهى التى انتصرت على الهوى وجبسته فى أبواب موصدة ، وبذلك تستطيع أن تهناً بعيشها بعيداً عن الهم والغم الذى يسببه لها الهوى والشيطان .

ان نجاح الانسان الحقيقى فى هذه الحياة ، انما يتأكد بنجاحه فى الانتصار على الهوى وسحق الغواية ، لكن ذلك لا يقدر عليه الا النادر من الناس .

لكن الانسان المستقيم هو ذلك الذى يمشى وقد آمن من الهوى والغواية وعثرات الطريق فاستحق اسم المؤمن بالله .

الرياء :

والرياء أداة من أدوات الهوى (١) وفرع من فروعه يستخدمه فى معاركه الطويلة ضد الاستقامة ، ويتقنع به عند الحاجة ، ويتخفى وراءه ليخدع الحق والحقيقة ، ويقصد باستعمال الرياء الغش والخداع والزيف والباطل والادعاء كذباً وبهتاناً ونفاقاً وظلماً ، أنه نصير العدل والاستقامة ومع الهدى والرشاد ، فيظهر غير ما يبطن ، ويعلم غير ما يستر .

(١) فتوح الغيب - الامام الحيلانى ص ٩٢

ان الهوى مانع عن الجهاد الذى هو بالضرورة طريق الاستقامة ، وما استخدامه للرياء الاستائر دخانية ، وأقنعة تمويلية ، ليضل بها الناس والعباد ، ويعمى الخلق عن رؤية حقيقته ، وكشف دخيلة نفسه وفضح ستره واستجلاء خداعه وخديعته .

واذا كان الرياء ، وهو الشرك الخفى ، كما يسميه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ، فأحرى بنا أن نحارب ، أول ما نحارب فى نفوسنا ، وتقتلع جذوره من قلوبنا ، اذ أنه عندما يتزعزع فى قلوبنا ، يصبح كالأخطبوط وتنمو أدواؤه الفتاكة ، وأنيا به السامة ، وتلتف أرجله الثعبانية لتقضى على كل من حولها ، وتمتص الدماء البريئة وتحول النفس الانسانية الى ساحة الاعدام .

واذا تملك الرياء وهو الشرك الأصغر قلب الانسان ، بدت عليه عوارض الغفلة ، وانساق الى متابعة الغواية وموافقة الهوى ، فلا يسلم من الوقوع فى الشرك الأكبر وان أخفى ذلك واستظهر التقوى والورع وأفعال الخير وصالحات الاعمال :

« يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » « الصبح : ١١ » .

يقول صلى الله عليه وسلم : « ان أدنى الرياء شرك »
(رواه البخارى ومسلم) .

والمرائى ثوبه نظيف ، وقلبه نجس ، يزهد فى المباح تظاهرا

وخداعا ، ولا يتورع عن الحرام طمعا وشرها (٢) ويتقاعس عن
الجهاد ، ويتكاسل عن العمل لله وطلب الرزق ويأكل بدينه ، الا
أنه يخفى أمره عن الناس ولا يعرفه الا أهل الحق •

ان المرائين أصحاب الشرك الاصغر ، لأنهم تركوا المعاصي
الظاهرة ، ومع ذلك فان قلوبهم لم تنم عن الصفات المذمومة ،
ومثلهم فى ذلك كمثل الذى أصيب بالجرب فأمره الطبيب المعالج
بتناول الدواء ودهان جلده الا أنه ترك شرب الدواء ، واهتم
فقط بالدهان ، فأزال بذلك ما بظاهر الجلد من أعراض ، ولم
يزل باقيا ما بباطنه ، ولا يستقيم لهذا المريض حال ، ولا يبرأ
من مرضه ، الا اذا عالج ما فى باطنه من الجرب الذى يطفح بين
الحين والآخر على ظاهر الجلد ويزداد يوما بعد يوم ظهورا
وانتشارا وسوءا •

« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم »

« النساء : ١٤٢ »

الرياء اذن فسق وخداع وعبادة للذات ، ونسيان لحقوق
الله ، وهو ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على النفس ، يغويها
بالخيالات ، ويغريها بالأباطيل ، ويوقعها فى التدليسات
والأكاذيب ، حتى اذا ما لبست قناعه الخادع ، وتسترت بثوبه
النجس ، ظنت أنها مركز الكون كبرا واقتراء وغرورا ، وحتى
اذ عرف المرائى حقيقة نفسه الأمانة بالسوء ، فانه يتعمل بالعلل

(٢) هامش كتاب تنبيه المغترين • للغزالي ص ٦٥ وما بعدها

- ٢٥٢ -

ويمنى النفس بالأمانى ناسيا ربه ، راكبا شطط عقله وأهواء قلبه المريض •

« يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبحين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » « النساء : ١٤٢ »

٢ - الغضب :

ولا تقتصر المعارك بين الهوى والاستقامة على دفع جناح الرياء لافساد خطط الاستقامة ، والهواء النفس عن ذكر الله ، بل أن الهوى يستخدم أسلحة متعددة ، وكلما فشل فى مهمته استبدل سلاحه بأخر أشد عدوانا وضراوة •

والغضب قوة من القوى التى أودعها الله فى الانسان ، لكن هذه القوة اذا لم ترتبط بالعدل وتسلك طريق الاستقامة ، استحوذ عليها الشيطان وارتبط الانسان بهذه القوة النارية التى يتولد عنها اضرار السوء والشماتة وهتك السر والاستهزاء •

ومن نتاج الغضب الحقد والحسد ، والغضب يسوق الى المرض وتكدر الطباع واختلالها ، ولذلك وجب معرفة المذموم منه والذى يندفع بتأثير الهوى ، حتى يتمكن الانسان من علاجه ، وبيان فضيلة كظم الغيظ والعفو والصفح الجميل والتسامح والاحسان • يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » •

(عن أبى يعلى والسيوطى)

ويقول عز من قائل :

«اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ،
فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » « الفتح : ٣٦ »

ومحل قوة الغضب فى الانسان القلب ، ومعنى الغضب غليان دم القلب بقصد طلب الانتقام أو العدوان ، وتتوجه هذه القوة فى ثورتها الى دفع الأضرار قبل وقوعها والتشفى والانتقام بعد حدوثها ، والانتقام هو غاية هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ولا تسكن الا به ، لكن الانسان المؤمن يستطيع أن يسكن هذه القوة عندما يغفر ، وذلك بكظم الغيظ. والصفح عن المعتدى :

« واذا ما غضبوا هم يغفرون » (الشورى : ٣٧)

لذلك فان جهاد النفس ضد الغضب ، يتطلب قوة نفسية عظيمة ، اذ أنه فى الغضب يتصاعد دخان مظلم الى الرأس فيستولى على معادن الفكر ، بل ربما يتجاوز ذلك الى معادن الحس فتظلم عينه ولا يرى بها شيئاً * كما أنه عندما يتمكن الغضب من الانسان لا يستطيع اطفاءه لا من الداخل ولا من الخارج ، ولو رأى الغضبان صورته فى حال غضبه وما هى عليه من قبح لسكن غضبه حياء من نفسه ، بل لرأى قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره *

الطريق الى الاستقامة :

استعرضنا فيما سبق الحرب القائمة داخل دنيا النفس ،

والتي هي كما فصلنا ، أشد قسوة وأشق جهادا على الانسان من حربه ضد العدو الخارجى ، حيث أن العدو غالبا ما يكون معلوما ، وخوض معركة معه أو أكثر ستنتهى ، طال الزمن أم قصر " ثم أن المعركة مع العدو الخارجى لها بداية ولها نهاية .. اما الى الانتصار واما الى الهزيمة ، ولكن الحرب داخل دنيا النفس لها استمرارية الحياة نفسها ولا تنتهى الا بالموت ، ثم أنها معارك متعددة فى اتجاهات مختلفة ، وتنتقل من جبهة الى أخرى ومن موقع الى موقع ، وهى حرب ضد الهوى وجهاد ضد الشهوات ، ونضال ضد اليأس والقنوط . وكفاح ضد الشره والبخل والحرص ، وعمل متواصل ضد التجبر والتكبر والاستعلاء ، وترويض دائم للنفس ضد الغضب والاعتداء والعدوان ، وتسكين مستمر لطلب اللذات العاجلة والحظوظ الدنيوية الزائلة ، وبتر للمخالفات والمعاصى والأمراض التى تبعد الانسان عن ربه ، وامتناع عن موافقة الحاجات الأنانية والمنافع التى ترضى الاشباعات الذاتية ، التى تقوم على الاثرة وحب الذات والدعاوى الأنانية .

ان جهاد النفس أعسر عليها من جهاد العدو مرات ومرات ، لذلك يلقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر ، كما يلقب حرب الأعداء بالجهاد الأصغر . وهذا يدل دلالة قاطعة على صعوبة معرفة النفس وتربيتها ومحاسبتها وتسكين غضبها ، ومعالجة ما يشوبها من كبر وحب للرياسة ، وتطهيرها من الرياء والنفاق ، وتخليصها من الحقد والحسد والسخرية والاستهزاء .

انها عملية جد شاقة تتطلب قلبا سليما ونفسا مستقيمة

وعقلا راشدا راجعا ، ولكي يتمكن الانسان من جهاد نفسه التي هي سر تعاسته وشقاوته وسر نجاته وسعادته ، يجدر به أن يسعى جاهدا لسد الثغرات التي يمكن أن يدخل منها الرياء ، وذلك بالعلم والعمل والاخلاص جميعا ، كما أن عليه أن يعين نفسه على تسكين الشهوة والغضب وذلك باطلاق نار الغضب على الشهوة حال طلب النفس للحرام ، واطلاق الشهوة على الغضب عند الرغبة في العدوان لتطفئ ناره ، ولا يتوصل الانسان الى ذلك الا بعدل النفس واعتدالها وتوازنها ، ولا يتحقق العدل الا بطريق العلم والحكمة ، ولن يحظى الانسان بالحكمة الا اذا وهبها الله له فضلا ومنه منه تعالى :

« يُوْتَى الْحِكْمَةُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » •
(البقرة : ٢٦٩)

يحتاج جهاد النفس الى عمل عظيم اذن ، وخير وسيلة لذلك انما تتركز على التربية ، والتربية تحتاج للقدوة ، لذلك ينصحنا الله تعالى أن نتبع الرسول ونستن بسننه ونحاكيه في كل أمر ، ونقلده في كل فعل ، حتى نكتسب الأخلاق الحسنة ونتخلى عن الصفات المذمومة والمستقبحة ، ونتخلى بالأوصاف المحمودة والصفات الطيبة ، وهذا لن يثمر ثمرة يانعة الا اذا أصبح الخلق القويم والقيم العليا والمفاهيم الاسلامية العظيمة ، طبعاً راسخاً في قلوبنا وعقولنا ونفوسنا جميعاً •

وحتى لا تمل النفس من الجهاد الأكبر • علينا أن نبدأ في معالجة اعوجاجنا بالآيسر ثم بالأشق ، ثم بالاعسر ، أى من السهل الى الأصعب وهذا هو منهج التربية الأقوم •• اذ أن العمود الفقري

لجهد النفس ... التربية * وهى الوسيلة العملية التى يملكها الانسان لتحقيق نجاحه فى الدنيا والآخرة ، فبالتربية تثبت المثل العليا وتنمو القيم الأخلاقية ، ويتحول الرياء من مظهر شكلى وادعاء ظاهرى بالتكامل والاكتمال الخلقى ، الى حقيقة مؤكدة يتطابق فيها ظاهر الانسان مع باطنه فتصبح أخلاق الانسان المتكاملة عقيدة ايمانية لاشك فيها ولا ريب *

وحتى تنجح النفس فى حربها ضد الهوى وجهادها ضد الشهوات ، فلا بد لها من التحرر من القوالب والصيغ وأن تخرج من قوقعة الارهاصات والدعاوى الزائفة ، الى أسلوب عملى تبدأ به بعيدا عن المجاملة والزيف والرياء * الى تأمل صادق لحقيقة الدين لتستخلص الحقائق التى هى بمثابة النبراس الذى يهتدى به كل من أراد أن يصبح انسانا متكاملا فى علمه وخلقه ودينه جميعا *

ان معرفة الأسباب التى تؤدى الى الرياء والطمع والحقود والحسد والغضب والحرص والبخل والاستعلاء والتجبر والتكبر ، ان معرفة الأسباب لهذه الأمراض التى تعوق النفس عن الوصول الى العدل والحق والصدق هى بمثابة نصف العلاج ، اذ أنه تشخيص للآفات والعيوب والنقائص ، ويبقى على الانسان النصف الآخر الذى يتحقق به العلاج الناجح ، والدواء الشافى وهو سهل ميسور ويتركز على العمل بأمر الله والانتهاز عما نهى عنه ، ثم التمثل بالقدوة الحسنة وسنة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، وبذلك ينتصر الانسان على عدوه الذى بداخله * * ويتمتع بالحرية الحقة التى هى العبودية لله جميعا *

يروى عن أحد الصالحين (١) أن نفسه طلبت الجهاد ضد الأعداء ، فلما تأملها وجدها تطلبه هربا وفكاكا ، فلقد ألزم نفسه بالصبر على الشدة والفقر وعودها على الخشن فى الطعام واللباس ، وكلفها بالصلاة والأنفال وقيام الليل والصيام يوما بعد آخر ، وفرض عليها فروضا كثيرة كمعاونة البائس والفقير ، ومعاودة المريض المحتاج ، ومساعدة اليتيم ، ونصرة المظلوم وعمل الخيرات وصالح الأفعال •

لقد شبق على النفس كل ذلك ، وأرادت الفرار من هذه المكابدة وتلك المعاناة ، اذ أن صاحبها لم يمكنها من الاسترواح والخمول وطلب الحظوظ ، فضاقت ذرعا بكل ذلك ، وطلبت منه الغزو فى سبيل الله هربا وفرورا ، ورأت فيه حياة أفضل مما هى عليه ، وحتى ان انتهى أمرها بالموت ، فانه ينهى عذابها وتعاستها التى تعيشها مع صاحبها ، اذ الموت أهون عليها من هذا الجهاد المستمر •

ولما أيقن الرجل الصالح من نفسه أن طلبها للجهاد والغزو ، انما هو رياء لا يشوبه رائحة الاخلاص ، منعها عن السفر للجهاد ، وحملها بتكاليف أكبر وحاسبها على ريائها وذلك بكثرة المجاهدات وبأنواع من الاعمال الصالحات ، حتى يخرج ما بقى فيها من رياء ويقطع عليها الطريق فى المخالفات • وبذلك سلمت نفسه من الرياء ورجعت الى السواء •

وعن العلاجات الناجعة لآفات النفس وعيوبها ونقائصها

(١) شرح تائبة السلوك الى المملوك - الشيخ عبد المجيد الشرنوبى ص: ٧٢

اغلاق الابواب التى يمكن أن يدخل منها العدو الرجيم ابليس
اللعين ، فهو لا يستطيع أن يغوى العبد الصالح والمؤمن المكتمل
الايمان . . انما يغوى العبد الجاهل والغافل والمؤمن الضعيف
وناقص الايمان .

وفى الاثر أنه قابل داود عليه السلام ابليس الرجيم فقال له:

— كيف تغوى الخلق يا رجيم ؟

قال : ان الناس على أصناف ثلاثة ، مثلك وهؤلاء لا نستطيع
أن نقرب منهم ، بل نحذرهم ونخشاهم ونهرب منهم . وأما
الصنف الثانى فهؤلاء قد ملكناهم ، وهم كالكرة نقاذفها يمينا
ويسارا ، ويعبث بهم الشياطين ويجعلونهم أضحوكة لهم فلا
يسلمون من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وأما الصنف الثالث
فهم الذين نظن أننا أغويناهم فنسعى من ورائهم محرضين
وفاتنين ، حتى اذا ما توهمنا أنهم أصبحوا فى أيدينا . . استغفروا
الله وندموا على ما فعلوا . . وبذلك يفسدون غواياتنا ويضيعوا
علينا مخططاتنا . . ثم انهم يرجعون مرة أخرى الى طلب المعاصى
فتعيد الكرة معهم ونعمل على اغوائهم حتى اذا تمكنا منهم
استغفروا الله وتابوا اليه وهؤلاء هم الذين يشقون علينا فلا نحن
ملكناهم ولا هم تابوا وأبوا . . وهؤلاء هم أكثر الخلق .

تربية الاحساس الفنى والجمالى

مقدمة :-

ان الأساس الذى تستهدفه أحكام الشريعة الاسلامية ، فى تطبيقاتها على جميع الأنشطة الانسانية ، العلمية والعملية الأدبية والفنية .. هو تحقيق الوسط العدل ..

والوسط العدل ليس وسطا حسابيا أو معياريا أو تقريريا (١) ... وانما هو اعتدال وقسط لاقامة الحق والصدق ..

وبهذا المعنى وردت الآيات القرآنية الكريمة ، لتحث الانسان على اتباع الصراط المستقيم .. الذى هو الخير الفاضل ..

فالوسط العدل طريق عدل ضد الانحراف .. والسلبية .. والظلم .. والسفه .. وهو مفتاح الصحة النفسية ، لأنه تقويم .. واصلاح .. واقامة ضد السقوط ليكون الشئ معتدلا وقائما ومقسوطا كما استهدف الدين .. بل ومتضمنا الأمن والصحة والسلامة .. كما ورد فى قوله تعالى :

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا .. ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »
(الفرقان : ٦٧)

(١) راجع : « نحو ثقافة اسلامية » للمؤلف

— ٢٦٠ —

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
(الاسراء : ٢٩)

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط »
(المائدة : ٤٢)

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »
(الاعراف : ٣١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »
(البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم » (القلم: ٢٨) — (أى افضلهم رأيا واحكمهم
عقلا —)

فالوسط العدل اذن .. صالح للتطبيق فى الزمان
والمكان .. لأنه شريعة الله للناس .. وليس مذهبا
اجتهاديا .. أو فكرا عقلانيا .. أو نظرية مثالية .. انما هو
خير فاضل ، يفصل بين طريق الحق والضلالة .. ويبين الحلال
والحرام .. ويحض على الأمر بالمعروف .. والنهى عن المنكر ..
ظاهرا وباطنا .. قلبا وقالبا .. شكلا وموضوعا ..

لذلك .. فان على النشاط الفنى والأدبى ، أن يواكب
الوسط الاعتدالى .. أى أن يسير جنبا الى جنب مع الوسط العدل
.. فلا يعبر فيما يقدمه عن افراط أو تفريط .. ولا يمتدح
قيما انحلالية .. ولا بدعا الحادية .. انما الفن الخالص هو
الذى يستهدف المثل الحققة .. فيشارك الحياة الايمانية الخصبة
.. وذلك عن طريق التوعية والترشيد والتذكير .. فيعطى
للأفراد المفاهيم الصالحة ، بما يعرضه من صور للمجتمع ..

وأمثلة جادة من الحياة الطيبة ، ويستبعد كل اثاره للشهوات ••

بالجملة •• فان الفن يجب أن ينطلق مدافعا عن الخير
الفاضل ضد الشر •• والظلم •• والجور • وبذلك يكون
رسالة انسانية هادفة ••

ليس الفن اذن اثاره مكامن الشهوة فى القارئ •• أو
السامع •• أو المشاهد ، بعرض صور الفاتنات الجميلات ••
لشحن قوى الانسان الغريزية •• المعاونة على تصعيد طلب اللذات
العاجلة •• لكن الفن هو عطاء •• وإيثار لشحنات وجدانية •
تعبر عن الخير •• والصدق •• والحق • والجمال فى كل
شئ ••

ويجب الاشارة هنا ، أنه اذا نجحت بعض صور الفن الساقط
لايقاظ الأهواء النفسية ، واثاره الشهوات ، فان نجاح هذا الفن
مؤقت •• فما يلبث ان يصبح عبثا أو لعبا ، ولا يكتب له
الاستمرار ••

أما الفن الرفيع الذى يحرك فى الانسان التمثل بالقدوة
الحسنة •• ويضرب له الأمثال ، من أن الفضيلة مع المعاناة ••
أفضل من الرذيلة مع سهولة الظفر بلذاتها الفانية ••

هذه الحقيقة الوجدانية تبقى فى ضمير السامع أو القارئ
أو المشاهد •• بل تتخذ طابعا سلوكيا •• اذ لها قدرة على التأثير
فيما يتعرض له الفرد فى حياته العامة والخاصة على السواء ••

وإذا كان الفن عملا من الأعمال الذهنية - كما كانوا

يقولون فى عصر النهضة ، (١) الا اننا لا نستطيع أن نتصور فنا يخلو من الحب فى شكل من أشكاله .. اذ أن الحب له صور متعددة ، والصورة المثلى للحب - فى رأينا - هو الحب الالهى .. أو الحب فى سبيل الله .. أو الحب مع الله .. ولاشك أن هذا الحب وحده هو المحقق للخير الفاضل فى الدنيا والآخرة ..

ولا شك أن هذا الحب فى ضمير كل انسان .. ويأمل أن يحققه ويبحث عن الطريق الذى يوصله اليه .. ولاشك أن الفن هو الموصل الجيد لهذا النوع من الحب .. اذ أنه لا يستخدم طرقا مباشرة ، أو أسلوبا من أساليب الوعظ فى التعبير عن موضوعه .. وانما يعرض المعنى الجمالى ويترك الانسان يتذوقه بأسلوبه .. وحسب استعداداته النفسى ..

ومن هنا يصبح الفن عاملا هاما فى التربية الأخلاقية ، يفوق فى تأثيره .. أساليب التربية الأخرى .. اذ أنه يعتمد فى تقديم الأثر الفنى ، على التمثيل والقصص .. أو الوقائع المشخصة .. بطريقة تسمح للنفس باتخاذ موقف محدد .. ازاء الأحداث المتتابعة ، أو العمل الفنى المعروض أمامها ..

أهداف العمل الفنى :

لكى يتم لنا فهم الأنشطة الفنية ، يجعل بنا أن نناقش أهداف العمل كما يراه المعاصرون الغربيون - والتى تنبع آراؤهم من ثقافة وتقاليد معينة ..

.....
(١) الاستاذ تيتوس بيركارد - دور القنوات الجميلة فى التربية الاسلامية - بحث مقدم الى المؤتمر العالمى للتعليم الاسلامى - مكة المكرمة - ترجمة د. عثمان محمد عبد الوهاب .

فبعض علماء النفس الحديث .. ينظرون الى العمل ..
على أنه وسيلة لدفع الملل ، وتمضية أوقات الفراغ .. أو الترفيه
عن النفس .. أو مساعدة الانسان على النزوع الى عالم الخيال ..
بعيدا عن الواقع الجامد ..

وبهذا التعريف .. الذى يمكن أن تتدرج تحته الأنشطة
الفنية .. يمكن فى ظنهم - مساعدة الانسان على تجنب الاكتئاب
العنيف .. والنظر الى المستقبل بثقة وأمل ..

ونحن لا نتفق معهم فى هذه النظرة الضيقة للعمل ..
فالاسلام تتسع مضامينه فى العمل ، لتصبح أكثر شمولية ..
وأرحب فكرا .. وأعظم غاية ..

العمل فى الاسلام ليس نشاطا هادفا ، يقصد منه ارضاء
النفس الانسانية .. وابرار غرورها .. وذلك باشعارها
بالرضا .. والفوز والنجاح ، اذ أن ذلك يعد أسلوبا منحرفا ..
وسلبيا ، يجعل العمل فى مقابل لذة أو منفعة أو مصلحة فحسب ،
ولا يستهدف غاية نبيلة .. ما يلبث الشخص - اذا لم يتحقق له
المأمول والملد - أن يقع فريسة للقلق .. أو أن يصطدم بالواقع
المر ، فتتقاذفه أمواج الهواجس والوساوس والاكتئاب النفسى ..

فلاشك أن العمل بعامة .. والفنى منه بخاصة ، انما يجب
أن يستهدف فى الحقيقة مصلحة الانسان فى الدنيا والآخرة ..
فهو - بهذا المعنى - طريق عدل .. يغذى الانسان بمشاعر
طيبة .. وأحاسيس خيرة .. فلا يوافق أمراض النفس لتحقيق
اشباعا ذاتيا أو ترويجا ، أو موافقة للنفس فحسب .. انما هو

وسيلة ناجعة لتوجيه النفس ، الى اتخاذ القدوة الحسنة . .
والتمسك بالمعايير والمبادئ الخيرة . . وسط خضم من التناقضات
والصراعات التي يعيشها انسان القرن العشرين . . وهذه
الوسيلة تقدم له فى وجبة مقبولة ، بدعوة مباشرة أو غير مباشرة
دون افراط أو تفريط . . انما بطريقة تخاطب وجدانه المتعطش
الى معرفة المستقبل المجهول . .

ان ما يأمله الفن هو خدمة الانسان فى مكابדתه ومعاناته . .
وتصوير تلك المجاهدة فى صورة تنتهى دائما الى السعادة والأمل
والنجاح . . ما دام هناك عملا خالصا ، وفكرا متجددا
واستقامة . . وعدلا فى النفس . . وعدلا مع الآخرين . . فاذا
ما نقلنا مثلا صورة من صور المجاهدين كقدوة . . أو بعض
المخلصين العاملين كنموذج للكفاح ، فان تأثير ذلك سيكون قويا
ومثمرا . . اذ أن المشاهد والسماع أو القارئ سيجد حلاوة هذا
الكفاح فى نفسه . . وسيقوده حتما الى محاكاته مهما لاقى من
عنت وجهد . . وهذا من ناحية اخرى يحقق رسالة الدين . .

فالعمل بهذا المعنى ، لا يقتصر على ضروب النشاط الفنى
والذهنى الهادفة . . اذ أنه هو أيضا يحدد منهجا أساسيا يسمى
لتطبيقه . . ويرسم خريطة للعمل تقوم على دعامين :

١ - الأمر بالمعروف . .

٢ - النهى عن المنكر . .

فاذا تم لنا هذا الربط . . سارت الأعمال الفنية ، مواكبة

لأعمال الخير والاحسان والايشار •• مستهدفة نفع الناس ••
مرتبطة بقضاء مصالحهم ••

كما أن هذا الربط ، يساعد على ادخال عناصر فنية ، تؤثر
على وجدانيات السامع أو المشاهد أو القارئ ، مثل كظم الغيظ
والصبر على الأذى •• والحلم •• والتسامح •• والايشار
•• والمحبة فى الله •• الى غير ذلك من العناصر الأصيلة فى
الأخلاق الاسلامية ••

والعمل الفنى - بشتى صوره - اذا كان باعثا على مؤازرة
الاعتداء •• ومهادنة العدوان •• موافقا لسفك الدماء ••
مدافعا عن الثأر والانتقام ، فانه يزيد المشاهد •• والقارئ ••
والسامع تعاسة وشقاء •• ولو بدا أنه يقدم ذلك فى أطباق
شهيية ، الا أنها تحمل السم والغم •• والدمار ، كما أن هذا العمل
فى آخر الأمر ، يظلم الناس أكثر مما يسعدهم •• اذ يمسك
بمعول لهدم القيم الطيبة ، بدلا من المشاركة فى اقامة الحق
والعدل والخير والحب ومكارم الأخلاق ••

العمل الفنى والأخلاق :-

لذلك •• فأننا نرى وجوب ارتباط العمل الفنى بالأخلاق
•• « فتغربل » النظريات النفسية •• والأخلاقية الحديثة ،
التي تفصل بين ضروب النشاط •• والايمان •• والتي تجعل
الانسان مجرد كتاب مفتوح •• اذا فتحتة قرأت كل شىء عنه ••
واذا أغلقته انتهت الرؤية ••

تلك النزعات الحديثة ، تزعم أن هناك ما يسمى بالحتمية النفسية لدى الانسان .. فجميع ضروب السلوك .. انما ناتجة من عمليات لاشعورية قديمة .. هي التي تحرك الانسان وتمضى به الى اختيار هذا السلوك .. أو ذاك .. ولا شئ يأتى للانسان من الخارج .. فلاله الله ولا دين ولا ايمان بمغيبات ..

وهذه النظريات الغربية الحديثة .. تقوم بتقليدها عن وعى وغير وعى ، ونستورد أفكارها وأعمالها الفنية — التي تبهرنا — ونقدمها لأبنائنا ، دون أن نقدر حجم الأضرار التي قد تسببها عند انتشارها ، ومحاكاتها وتقليدها بين شبابنا ..

ولو أننا تمهلنا قليلا لرفضناها رفضا قاطعا .. اذ أن الفن وسيلة طيبة ، يمكن أن تشارك كل بيت حياته .. فهو فرد فى عائلة لا يمكن استبعاده ، أو التخلص منه بسهولة ..

لذلك فإننا من الأفضل أن نختار هذا الفرد الذى يدخل بيوتنا اختيارا واعيا .. صادقا .. سليما .. وهذه هى وظيفة المجتمع الاسلامى .. اذ أن مهمة الاختيار لا بد أن تكون فى أيدي الصفوة المختارة من العلماء ، الذين ينشدون العمل الصالح فى الدنيا والآخرة ..

وبذلك .. يمكن أن ننبد الفن الرخيص ، الذى ليس له من رسالة الا تحقيق الربح والمنفعة لأصحابه .. غير عابىء بالأضرار التى تلحق بأفراد المجتمع .. فتدمر أخلاقياته ومثله العليا ..

والفن هو لغة خاصة .. بل أن لكل فن لغة خاصة لا ينطق

بها غير أصحابها - كما أنه يستحيل ترجمة لغة الفن الى لغة أخرى .. لأن لكل شعب ثقافته الفنية .. ومهما قيل من أنه من الممكن استجلاب الفنون .. ومهما عرفنا تفاصيلها ووقائعها .. فاننا لا نستطيع تفهمها .. كما يفهمها أهلها ..

فالعمل الفنى اذن .. لغة لها معان .. ولا يمكن استيعاب الفن اذا لم نفهم هذه المعانى .. واذا لم تكن هذه المعانى لها مقابل فى ثقافتنا .. وفى لغتنا .. فانه يتعذر فهمها ..

كما أن هناك من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ .. اذ أن الألفاظ قاصرة عن وعى الثقافة الممتدة عبر آلاف السنين .. وهذه المعانى الفنية المقصودة ، تظهر واضحة فى فن النحت والتصوير مثلا ..

فالنقوش العربية .. وفن الزخرفة الاسلامى .. لها مدلولات لا يفهمها الا أهلها .. وتبدو لغيرهم عجيبة .. وربما يدعى بعضهم أنها لا تعبر عن شىء .. أو انها بدائية أو غير ناضجة .. وليس فى هذا النقد صحة .. اذ أن الحكم صادر عن أصحاب ثقافة فنية مغايرة ، لهم تذوق خاص للفنون والآداب ..

ونحن نود الاشارة الى أن المعانى الفنية التى تفهمها الشعوب ليست واحدة ، وأن مختلف الانشطة الفنية الاسلامية ، تقوم على دعائم جد مختلفة عن غيرها من الأمم .. بل أنه يمكن القول أن لها أهداف وغايات مغايرة لما يهدف اليه الغربيون ..

العلم والنشاط الفنى : -

والواقع أن الأئمة فى الاسلام .. يرون أن مختلف الأنشطة الانسانية ، تترسم غاية يجب ألا تشذ عنها .. وهى بمثابة السراج الذى يضىء الطريق أمام أى عمل من الاعمال .. وهى المجاهدة فى اعلاء كلمة الحق تعالى .. وتتلخص فى جهاد النفس ضد التبطل * والسلبية * والضياع * واللهو * والعبث *

وبمعنى آخر ، اعتبار أى نشاط انسانى .. عبادة لله بشكل أو بآخر .. فالعمل الفنى يعد داخل هذا المفهوم ، رسالة انسانية تفوق فى أهدافها جميع الغايات الحسية .. والمادية .. اذ أن لها ثواب .. ليس فى الدنيا فحسب .. بل فى الآخرة أيضا * . اذ يقترن النشاط الانسانى مع حكمة الله .. وحكمة خلق الانسان .. كما ورد عن الله تعالى محددة فى الآية الكريمة :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

(الذاريات : ٥٦)

فالعمل اذن عبادة لله .. واذا خرج عن هدف النص القرآنى الصريح أصبح لهوا وعبثا .. كما أن النفس الانسانية - خلق الله فى جبلاتها من الضعف .. والشح .. والشهوة * . والبخل .. فاذا تركت دون ارشاد الهى أو توجيه ربانى ، استعجت الراحة ، ومالت الى الهوى ، واستعذبت الخمول ، وتقاعدت عن الجهد ، واستطابت الشهوات ..

فالنشاط الفنى والأدبى اذن ، (١) انما يستهدف غاية عظيمة ومعلومة فى التشريع الاسلامى .. ألا وهى المجاهدة ..

(١) منهج الفن الاسلامى - محمد قطب دار الشروق ص ١٢ وما بعدها

والمجاهدة بهذا المعنى سعى للبر والخير .. وهى ضد البلادة
والركون للأهواء وموافقة الحظوظ .. اذ أنها مجاهدة فى الله
.. ولله .. وفى سبيل الله * * لقوله تعالى :

« وأن ليس للإنسان الا ما سعى » (النجم : ٣٩)

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيماً
(النساء : ٩٥)
« ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه »

(العنكبوت : ٦)
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر
والمجاهدون فى سبيل الله » (النساء : ٩٥)

فالنشاط الانسانى .. سواء كان فنياً .. أو عملياً * *
أو أدبياً جهاد فى الله .. ولله .. وفى سبيل الله * * ويؤيد
ذلك بعض أئمة الاسلام فى قولهم :

« من زاد عليك فى العمل .. زاد عليك فى الخلق »

كما أنه لا بد من أن يربط العلم بالعمل .. اذ أن العلم
الذى لا يصاحبه عمل .. ما هو الا ظن ووهم .. أما اذا صاحب
العلم عملاً .. كان جهاداً ، لأنه رسالة ايجابية هادفة .. مثمرة
.. كما أراد الله أن تكون ..

كما أن العلم الذى لا يهدف الى الخير ، وما يتبعه من تقدم
فى الأدوات والمستحدثات ، من أجل تيسير الحياة .. وخدمة
الناس ، هذا العلم المادى .. غير أخلاقى ، ومن ثم فهو سلوك

— ٢٧٠ —

عدواني ، وطريق يتحرف بصاحبه الى الهلاك والضياع .. وهذا العلم لا نفع منه ، مثله كمثل الذى يحمل الماء بيديه .. مع وجود جرة فارغة بجواره .. فهو لم يستفد من الجره ، ولم يستفد غيره بالماء .. وبالمثل ذلك الذى يحمل العلم .. ولم يربطه بالعمل .. ولذلك كان الامام مالك يقول :

« لا اشتغل الا بما تحته عمل »

فاذا طبقنا هذه القاعدة على النشاط الفنى .. فان هذا النشاط يكون مقصودا به تحقيق رسالة انسانية صادقة ، وبذلك يساعد الفن على اعطاء معنى أجمل للحياة ، وتأمين الانسان ضد الخوف والقلق .. وتخليصه من غوائل التشكك والانحراف والريبة والغرور ..

بل أن الفن بهذا المعنى يساعد على تربية الذوق الرفيع ، والفهم الرشيد ، بما يعرضه من أسباب التقدم الهائل فى شتى فروع الحياة ، مما يثرى من معرفتنا ويفدى عقولنا ..

والفن على هذا النحو ، يصبح بابا لوقاية الانسان من التحلل والتفكك والضياع ..

ولاشك أن العمل الصالح .. هو الذى يرمى الى الخير والنفع للناس جميعا .. وليس هو العمل الفاسد الذى يعتقد صاحبه أنه أرضى به بعض القلوب المريضة .. والنفوس المنحرفة .. أو ازيد من غروره بنفسه .. فرأى المفاسد أعمالا جليلة .. وأفعالا عظيمة .. تصديقا لقوله تعالى :

« أقمن زين له سوء عمله فرآه حسنا »

(فاطر : ٨)

الفن والتربية النفسية

أما وقد عرضنا للعمل ، وغاياته ، فيجب أن نقرر ضرورة ربط العمل بالنواحي التربوية .. والعمل الفنى بصفة خاصة يجب أن يقرن بالتربية النفسية ..

والتربية النفسية دعامتها الكبرى الثقة بالله .. أو هى الأمل فى الله .. والرجاء فيه تعالى ، وهذا الرجاء ، هو الباعث الحقيقى على السعى والاتقان والاجتهاد فى الأعمال والأفعال ..

فلا شك أن الذى يأمل فى الله .. ويسعى بالله .. عليه أن يعمل ويخلص فى عمله .. والا كان الرجاء مجرد أمانى وأحلام وأوهام ، لا طائل تحتها ..

الخير الفاضل فى الفن :

ونحن نتساءل .. كيف يتسنى تطبيق الخير الفاضل فى مجالات النشاط الفنى ؟ ..

انه من المعروف طبيا .. أن الجسم لا يعالج الا بأضداد الأشياء ، كأن يكون به برودة فيعالج بالحرارة .. أو يكون به به حرارة فيعالج بالبرودة .. كذلك حال النفس الانسانية .. انما لا تعالج الا بأضدادها .. أى بمخالفة أهوائها وحظوظها .. وحاجاتها التى لا تشبع ..

فاذا كان نزوع النفس مثلا الى الغرور .. كان العلاج الناجع

لها هو التواضع .. واذا مالت النفس الى الهوى .. كان علاجها
الاستقامة ، واذا طلبت التسلط والتجبر .. كان شفاؤها
بالتزهد فى أمور الدنيا الفانية .. واذا انحرفت الى الانانية ..
عولجت بالايثار .. وهكذا يستمر علاج النفس بأضدادها حتى
تتخلص من الآفات والنقائص ، وينصلح حالها ، وترجع عن
افراطها .. وتفريطها ..

التأليف الفنى : -

ليست الأضداد معالجة خيالية لأمراض النفس ، انما هي
طريقا عمليا يمكن به تغذية النشاط الفنى فى مختلف صورته ،
بمعنى أن نعرض لشخصية بها آفة من الآفات .. ثم تسرد
الحوادث لنبين أخيرا أن الطريق الوحيد الموصل الى سعادة
الانسان .. انما يكمن فى مخالفة أهواء النفس .. وعلاج
امراضها بأضدادها ..

والصورة الفنية التى تعرض كفيلم سينمائى .. أو قصة
روائية .. يمكن أن تستعير هذه المفهومات الاسلامية ، لتضمها
كعمد أساسية فى تسلسل الأحداث .. مع اضافة وسائل التشويق
اللازمة للسامع أو القارئ أو المشاهد ..

واذا كان على مريض الجسم معاناة مرارة الدواء .. وتحمل
مبضع الجراح ، والصبر على المشتبهات ليستقيم حال بدنه ..
ويشفى من عله .. فكذلك الحال بالنسبة لنموذج الشخصية
المریضة ، المعروضة كقصة سينمائية وروائية .. فان مغالبة
النفس ومنازعة الشيطان .. وذلك بكثرة المجاهدات والرياضة
النفسية القائمة على الصبر على الأذى .. والاعتداء ..

والمكابدات التى يعانىها الفرد للتخلص من الآفات والحفظ النفسية وغواية الشيطان .. ثم ينتهى الأمر بالسكينة .. وبها ينصلح حاله .. ويشفى من أسقامه ..

وعلم النفس الاسلامى ينظر الى المرض النفسى نظرة الفاحص المدقق (١) .. فىرى أن تلك الأمراض ثمرة فجأة .. ونتاج طبيعى للجهل ونقص التربية ..

ومعنى ذلك أن صورة الشخصية اللاأخلاقية التى يعرضها المؤلف ، يجب أن تبصر بالطريق المستقيم ، عن طريق بعض الابتلاءات أو الامتحانات أو الاختبارات التى يخوضها .. فتتشقق نفسه .. ويقوى ميله الى الحق والخير .. بعد أن سار شوطا فى طريق الغواية والشر والرذيلة ..

كما يجب أن يصور لنا المؤلف أن شخصية المنافق .. أو الفاسق أو المرائى .. لابد أن تنتهى نهاية سيئة فى آخر الأمر ، وإلى طريق مسدود .. فيه يفكر صاحبها فى التوبة .. ويجد أن لا ملجأ من الله الا اليه .. ويجد أن كل النجاحات الزائفة انتهت بفشل دائم .. وأن النجاح الذى عاشته هذه الشخصية .. انما هو اختبار وفتنة .. وليس الا نجاح متوهم ..

كما يجب أن يصور لنا المؤلف أو الفنان .. أن هناك اختلافا بين مريض الجسم ومريض النفس .. ذلك لأن مريض الجسم إذا تراكمت عليه العلل والأوجاع ، انتهى به المرض آخر الأمر الى الموت ..

أما الشخصية صاحبة الآفات النفسية .. فإنه اذا تعذر علاجها ، ولم ينصلح حالها .. فان صاحبها لا يتخلص من آفاته وأمراضه بالموت ، اذ أن أمراض النفس تدوم فى الدنيا والآخرة ..

وهذه المعالجات الفنية للقصاص بهذه الصورة ، تنبع من الوسط العدل الاسلامى وهو صالح للتطبيق فى جميع الأنشطة الانسانية .. بل وفى كل زمان ومكان .. لأنه خير فاضل .. وأقرب الى الاعتدال والقصد .. وأبعد عن الغلو ..

فاذا تصدى الفن الى تطبيق قاعدة الخير الفاضل، أعطى بذلك العمل نموذجا للحكيم الذى يتوجب على المشاهد أو السامع أو القارئ، أن يجعله قدوة له فى حياته الواقعية .. ونبراسا يستضىء به فى سلوكه اليومى .. وهو يختلف بذلك عن شخصية « السوبرمان » الخيالية ، التى تشجع على العدوان وترمى الى سفك الدماء ، وتخلق فى النفس جوا مثيرا للنناقضات ..

أما شخصية الحكيم .. فهى شخصية مستقيمة ، ومتوازنة ، تخالف دوافع النفس الغريزية ، وتتحكم فى القوى الغضبية والشهوية عن طريق محاكاة القوى الربانية ، فترى أن الشجاعة ليست فى غلبة الخصوم .. وانما الشجاعة فى كظم الغيظ مع القدرة على الاعتدال ..

وليس هذا الوسط الذى يطبقه الحكيم .. وسطا حسابيا .. أو ماديا .. انما هو عدل مأخوذ عن العدل الالهى ، ومعرفة مستقاة من العلم الربانى ..

— ٢٧٥ —

شخصية الحكيم : —

شخصية الحكيم اذن لا تتكلف الأعمال والأفعال والاحداث ،
وانما تسيرها أنوار الله •• وأوامر الله •• وحكم الله ••

والحكيم هنا يمكن أن يكون مجاهدا •• أو اماسا •• أو
رجل علم •• يتقدم بمقتضى الفطرة السليمة •• ولا يتكلف
•• ولا يصطنع الأفعال •• ولا يغش ولا يخدع للوصول الى منافع
أو لذات •• انما هو شخصية تمتاز بالسكينة •• والطمأنينة
•• فهو صاحب خير كثير •• كما ورد فى قوله تعالى :

« يُوْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ •• وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ
خَيْرًا كَثِيرًا »
(البقرة : ٢٦٩)

فنحن نريد هنا باختيار شخصية الحكيم •• أن نستخدم
الفن كوسيلة لتحقيق الغايات النبيلة ، لنرفع من قيمة الانسان
الى أعلى الدرجات ، بدلا من أن نهبط به الى أسفل سافلين ••
فنتجنب محاكاة الفنون الرخيصة ، ونستبعد الأعمال غير الهادفة
•• ونرفض استيراد العروض الفنية اللاأخلاقية •• لنضع
مكانها فنا متساميا •• عريقا •• نتشبه فيه ببديع خلق الله ••
ونقتدى فيه بأمر الله •• ونتتبع خطى الرسول الكريم — عليه
الصلاة والسلام — والأئمة الصالحين ••

العلم والفن : —

ولانشك فى أنه اذا طبق الانسان الوسط العدل على نفسه ،

ونصح به غيره ، فان ذلك يعد احياء للتراث الاسلامى ، والفكر الاسلامى .. بل يعد بمثابة حد قاطع لغرور الصناعات الفنية التى تعتمد على الاثارة .. وايقاظ الغرائز .. فبالوسط العدل ، يمكن الوصول الى أعلى درجات التقدم ، فى الفنون والآداب .. وان هذا الوسط مؤسس على العلم لقوله تعالى :

« شهد الله أن لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »
(آل عمران : ١٨)

والقسط فى الآية الكريمة هو الخير الفاضل ، وهو الوسط العدل الذى يفصل بين الحلال والحرام .. والحق والباطل ، فلا يخلط بين الصدق والكذب .. أو بين العلم الظنى والعلم الحق ..

والفنان الأصيل يصور الوقائع ، ويجمل الحياة ، وينقل بديع صنع الله من مخلوقات وألوان وجمادات .. لكنه لا يدعى لنفسه أنه خالقها .. ولا يفترى على الله كذبا .. انما يقول ان فى هذه الصورة الجميلة آيات من الابداع العبقري .. الذى لا يستطيعه أى انسان .. مهما أوتى من العلم والمواهب أن يأتى بمثلها انها صور من بدائع خلق الله ..

والانسان الفنان انما يحاكي الطبيعة .. ويقلدها .. ويجملها ، لكنه لا يخلق جديدا ، ولا ينشأ عملا فنيا من العدم .. انما الفنان يقلد الطبيعة التى خلقها الله فى أحسن تكوين .. وينقلها - الى المتذوق أو المشاهد أو المستمع - بحسه المرهف وشفافيته .. فى أجمل صورة .. وأتم شكل ..

القيم الفنية الاسلامية : -

كما أشرنا من قبل ، يجب غربلة المفاهيم الفنية . التى نستوردها من الدول التى سبقتنا فى الصناعات والأنشطة الفنية . وأن نرسم لأنفسنا منهاجا لا نشد عنه ابداً . فنقبل ما يتمشى مع مثلنا وأفكارنا . وعقائدنا . ونرفض بأصرار ما يتنافى مع قيمنا الروحية وأخلاقنا الاسلامية .

وعلى المهتمين بالفنون المختلفة . أن يتبينوا سلامة الطريق الى تغذية النفس الانسانية بالخير والفضيلة . ولن يتم ذلك الا بتعميق المفاهيم . وغرس مبادئ الاخلاق ، والتبصير بالطرق المختلفة ، لعلاج آفات النفس ، وتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية . وذلك عن طريق الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر . وتنمية الذوق السليم القائم على الصدق . الذى يساعد على الفهم الرشيد والحكم السديد على ما يقدم من فنون .

والسبيل الى ذلك . انما يكون بالتربية الايمانية الصحيحة . ولاشك أن وسائل الاعلام ، تستطيع أن تلعب دورا خطيرا فى هذا المجال ، فيمكنها عن طريق غرس العادات الصالحة فى نفوس السامعين والقراء والمشاهدين . وربط عرى المحبة والألفة بين الناس ، وتشجيع روح البذل والعطاء ، ويمكن التمثيل لذلك بالقصص القرآنى ، وترجمة حياة الأنبياء والصديقين والصالحين والمجاهدين .

كما يمكن من ناحية أخرى عرض مثالب النفس . والطرق التى يوقع بها الشيطان فرائسه من بنى الانسان . ثم بيان العلاجات الناجعة لصدده وتجنبه . كما أن على المشتغلين

بالأنشطة الدعائية والفنية ، العمل على تشجيع عرض الفنون الرفيعة .. فى اطار خطط مدروسة ، لها أهداف محددة كمناهج عامة ، يقصد منها تربية النفوس على حب الخير والحق والجمال ..

وهذا بطبيعة الحال .. يساعد مساعدة ايجابية على التخلص من السلبية .. والقضاء على التوتر والقلق واليأس ، الذى اذا ترك يسبب الانحراف أو يصيب النفس بالتلف والضياع .. اذ أن الفراغ النفسى هو الطريق المباشر فى عصرنا الحالى للفساد والانحلال ..

تأثير التحليل النفسى على الفن : —

والواقع ان الفن الغربى ، الذى يقدم لنا على أنه يعبر عن الحضارة والتقدم الانسانى .. يدس السم فى فم الانسان المسلم ، دون أن يدرى ! ! اذ يعتمد على الوصف والتشخيص الأوديبى .. الذى يرى السلوك الانسانى الانحرافى هو الطابع المميز للسلوك الانسانى ويعتمد على نظريات علم النفس الفرويدى باعتبارها تؤكد على حقيقة من حقائق النفس الانسانية ..

يزعم فرويد وتلامذته أن هناك حتمية نفسية .. وأن جميع الأفراد تسيرهم الشهوات وطلب اللذات التى لا يستطيعون عنها فكাকা .. كما أن الرجل الطيب — كما يظهر فى القصص السينمائية .. والبرامج التليفزيونية — انما هو شخص مريض نفسيا .. وأنه بركان يغلى من الداخل .. فاذا صادف أى ظروف غير موافقة لأهوائه ، انقلب وحشا مفترسا يهاجم بلا رحمة ..

كل ذلك يدفعنا الى القول أن الفن بهذه الصورة ، يواكب مدارس التحليل النفسى الالحادية ، التى تدين بوجودها الى علم النفس الحيوانى ، وشتان ما بين الانسان والحيوان ..

الفنان الحق :-

وفى تصورنا أن مهمة الفنان أو الأديب ، لها دور أساسى فى تنمية الوعى لدى الجمهور .. وغرس المبادئ الأخلاقية .. والمثل العليا فى الأفراد .. لذلك فان مهمة الأديب .. أو الفنان ليست مهمة سهلة .. اذ أنه بمثابة القدوة ..

لذلك يتوجب على الفنان أو الأديب ، أن يكون سائرا فى طريق الحق والاستقامة .. مخلصا للأسس التربوية الاسلامية .. يعرف أنه يؤدى رسالة انسانية لا يشذ عنها أبدا .. فلا يميل الى منفعة شخصية .. أو شهرة ذاتية سهلة .. ، لتحقيق نجاح رخيص .. وانما يستهدف فى عمله وجه الله تعالى .. فيتخير الطريق المستقيم ، المؤدى الى الحكمة العليا ، مؤثرا الفن التنظيف الخالى من شوائب الاشارة للشهوات .. وهو فى ذلك يعلم .. ويربى ذوق المشاهد أو القارئ أو السامع ، فيمده بالصور المشرقة بدلا من تركه فريسة للقلق والضياع والتوجس .. كما أن عليه أن يملأ قلبه بالأمن .. والطمأنينة بدلا من موافقة الأهواء .. وتعسرية الناس وكشف أسرارهم وغيوبهم .. أو ابراز الشخصيات الوهمية المنحرفة .. كما نجد ذلك فى بعض البرامج الساقطة على أنها تعبير صادق وحقيقى عن شخصية فنية حقيقية ..

فالفنان فى تصورنا مثله مثل المربى الأخلاقى الفاضل ..

ذا تجربة ذوقية يستهدف المثل العليا الجمالية ، عن طريق تغذية النفوس والعقول بالحقائق الوجدانية ..

ومن هنا يمكن أن يؤثر الفنان في الآخرين لاكتساب الفضائل وتجنب الرذائل .. وتعويد الأفراد على المحبة بدل الكراهية .. وعلى البذل بدل الأنانية ، والألفة بدل الرفض والتمرد .. وعلى الصبر .. بدل الرعونة والحمق .. والاندفاع .. والتهور .. وعلى الايمان بدلا من الشك والريبة (١) ..

كما يجب التركيز على أن الفنون لا يمكن أن تكون أشكالا وصورا ومظاهر خارجية فحسب .. وانما لابد أن يكون لها آثارا بعيدة في أعماق الانسان .. تلعب دورا أساسيا في تغيير سلوكه واتجاهاته ..

لذلك فلكى يتكامل العمل الفنى .. لابد ان يبتعد عن السطحية والرياء والغرور ، والتكبر والاستعلاء والاستهزاء ، والسخرية والألفاظ الساقطة والبذيئة .. وغير ذلك من الافات والنقائص الغير أخلاقية ..

وعلى الفنان أن يسبر غور الشخصية التى يقدمها للجمهور ، ويصف سلوكها ويجتهد فى فهمها ظاهرا وباطنا .. ثم يبسدا فى عرض العلاج الناجع فى عمله الفنى ..

وكما سبق القول ، يكون العلاج عن طريق غرس القوى

(١) منهج الفن الاسلامى - محمد قطب - دار الشروق ص ٢٥ ومابعدها

الايمانية ، وتدعيم الصلة بينه وبين الله .. والتركيز على أن التوبة تغفر الذنوب جميعا .. وبذلك تنطبع في نفوس المشاهدين أو القارئین صورة الاسلام الحقة .. المؤسسة على المحبة والرحمة والعفو والتسامح ..

أعمال فنية من الاسلام : -

لا يهتم الاسلام بالسلوك الظاهري فحسب ، اذ ربما يكون المظهر الخارجى خداعا .. وصاحبه مرائيا أو منافقا .. لذلك فان التركيز على المظهر لا يوصل الى فهم حقيقة الانسان .. بل على العكس من ذلك .. ربما يقود الفكر الى بحر لا شاطئ له .. فيستنتج نتائج خاطئة ، تجعل المشاهد فى حيرة مما يقرأه أو يشاهده أو يسمعه .. أو ربما ينقله هذا التحليل الخاطيء الى عالم من الوهم والخيال .. بعيدا عن الواقع والحق ..

ومثال ذلك اننا اذا عرضنا مثلا لشخصية ناجحة ظاهريا صاحبها ثرى .. وله نفوذ وجاه عريض .. مسلكه ينم على السوء والتكامل ، يتظاهر أنه يتبع الأحكام .. ويحترم القواعد الشرعية .. ويؤدى التكاليف المقررة ، الا أنه فى الوقت نفسه حريص على تحقيق مسارب شخصية .. شره تغلبه أنانيته الفردية ..

فاذا كان ظاهر هذا الشخص الاعتدال والاستقامة والورع .. فانه يبطن اخلاق الشيطان ، فطاعته تظاهرا ، واخلاصه رياء ، وعبادته استظهار للطاعات ، ولا يمكن بسهولة كشف أغوار هذه الشخصية واستجلاء أمراضها الا بمنهج اسلامى .. وذلك لخبث معدنها ..

والفنان * * يستطيع أن يكشف عن هذه الشخصية ، اذا امتحن صاحبها عند الشدائد ، أو اذا عالجها من الناحية الأخلاقية * * فيكتشف أن صاحبها يصلى ويصوم * * ولكنه يغتاب الناس * * أو يشور عندما لا يثنون على عطائه ، ويمتدحون تقواه ، أو يقومون لخدمته * *

كما يمكن للفنان على هذا النحو * * تطعيم المؤلفات الفنية بالفكر المتجدد ، عن طريق رسم شخصيات مختلفة ، تمثل الطبائع الانسانية الأربع المختلفة ، من دموية وصفراوية وبلغمية وسوداوية ، ويمكن وصف هذه الشخصيات * * وتحليل أنماطها وسبر أغوار سلوكها * * ونقدها * * كما يمكن عرضها عرضا مختلفا عما نراه لدى الادباء والفنانين الغربيين * * وذلك فى اطار المنهاج الاسلامى * *

بمعنى أن الفنان الغربى يفصل بين الحياة المدنية * * والحياة الدينية بحكم ثقافته وبيئته * * أما الفنان الاسلامى * * فلا يرى فواصل بين الحياة الدينية والأخلاقية * * وبين الأنشطة المادية * * ومحددات السلوك الانسانى (١) * حيث ان الغاية الاخيرة التى يستهدفها هو التوحيد الالهى * * والتوحيد هو العمل فى طريق الله * * *

أمثلة من القصص القرآنى والاسلامى : -

ويمكن للفنان الاسلامى التعبير عن أهدافه مستعينا بالقصص القرآنى * * وترجمة حياة الأنبياء والصدقيين

راجع « نحو منهج علمى اسلامى » للمؤلف - نحو منهج فنى اسلامى -

والصالحين .. على ألا يخرج عن الاطار الأخلاقي .. والمنهاج
الاسلامى .. فلا ينحرف فى رسم شخصية اسلامية يجنح بها
بعيدا عن الحق الى مستوى الابتذال أو التجريح .. مما يفقد
هيبتها واحترامها لدى جمهور المشاهدين أو السامعين أو
القراء ..

ومن هذا القصص القرآنى على سبيل المثال لا الحصر :

١ - قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ « بلقيس » ..
التي اعتقدت غرورا أنها تملك ما لا يملكه أحد .. ثم
أحضر عرشها أحد الصالحين .. عنده بعضا من العلم
الالهى .. ودخلت الملكة الى قصر سليمان - عليه السلام -
وظنت عند دخولها الى القصر - نظرا لاعجازه الفنى - أن
تحتها بحيرة فكشفت عن ساقها .. ثم اتضح لها أنه من
البلور الخالص .. وأسلمت لسليمان - عليه السلام -
ورجعت عن غرورها .. وعرفت طريق الحق ..

٢ - قصة يوسف عليه السلام مع اخوته .. وكظم يعقوب -
عليه السلام - لغيظه ، وصبره الجميل .. حتى أبيضت
عيناه على فقد ابنه .. واتجاهه الى الله وحده ليبحث حزنه
وشكواه اليه .. ثم انتصار يوسف عليه السلام .. وعفوه
وتسامحه .. وطلب المغفرة لآخوته الجاهلين مع قدرته
على البطش والانتقام ..

ووصول يوسف - عليه السلام - الى الوزارة - وحمل
مفاتيح خزائن الملك .. والعلم اللدن الذى حظى به فى
تفسير الرؤى ..

— ٢٨٤ —

ثم رجوعه غانما .. ظافرا .. الى أسرته ..
ومعجزة عودة بصر يعقوب - عليه السلام - عند رد
يوسف - عليه السلام - اليه ...

٣ - قصة موسى - عليه السلام - الذى تربى فى بيت فرعون
مصر ، الذى ادعى الالهية - وكيف شب موسى - عليه
السلام - عدوا له ، لنصرة دين الله ..

ثم المعجزات التى أيد بها الله رسوله موسى - عليه
السلام .. وايمان أكابر السحرة بدين الله الذى دعا
موسى - عليه السلام - قومه اليه .. وتفضيلهم للعذاب
والقتل من فرعون على الاقرار بأنه اله ..

ويمكن ترجمة حياة الصحابة وكبار المجاهدين .. وعرضها
داخل اطار المنهاج الاسلامى .. وبذلك يمكن أن نقدم لجمهور
الأمة الاسلامية أعمالا فنية متعددة .. تخدم رسالة الاسلام فى
كل مكان ..

أثر المسجد فى العملية التربوية

لا تتكون شخصية الطفل من فراغ ، اذا أنه لو ترك دون تربية أو توجيه أو تأديب ، لتلقاه أصحاب السوء ، وتلقفته الغواية وقادته الى الانحراف أو الجريمة وساء ذلك من مصير ..

ولكى يتسنى للمربين والمشتغلين بالوعظ والارشاد النجاح والتوفيق فى مهمتهم الرائدة العظيمة ، كان لزاما أن يجتذبوا البراعم الصغيرة الى البيئات الصالحة كيما تنبت نباتا حسنا ..

وليس هناك مكان أشرف ولا أفضل من المسجد مستقرا ومقاما ، اذ يتوفر به جميع الشروط المطلوبة للتنشئة الاجتماعية والنفسية السليمة (١) ، ذلك أن المسجد ، بما تشتمل عليه جنباته من هدوء وخشوع ، ينقل هذه السمات الى وجدانيات الطفل والشاب والكهل ، فتدخل الى أنفسهم وشائج المحبة ، والى قلوبهم الأمن والسكينة والى عقولهم الأمل والثقة فى الله تعالى ..

لكننا نتساءل هل يعد المسجد فى وقتنا الحاضر لجذب انتباه الطفل اليه ، باعتباره المكان المناسب لمقامه بعد البيت والمدرسة ؟ ! أم هو يعد فحسب لاقامة الفرائض الخمس المقررة ؟ !

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : الى أى حد يمكن أن نربط بين البيت والمدرسة والمسجد ، فى عروة وثقى لا تنفصم عراها ؟ وهل يمكن قبول التوسع فى دور المسجد التربوى ،

(١) راجع للمزيد « الشريعة والحقيقة » للمؤلف

ليصبح المكان الأنسب لتلقى الثقافة العامة ، والمعارف المختلفة ، فضلا عن أنه المكان الأصلح للعبادة وآداء الفرائض المقررة . .

انه مما لاشك فيه ، أن النقطة الرئيسية التي يتوجب الانطلاق منها لعمل الانجازات اللازمة لتتطور رسالة المسجد في مجتمعنا المعاصر ، انما تبدأ من الاقتناع الضروري ، بأنه قد حان الوقت الآن ، لأن يقوم المسجد بدوره في قيادة المجتمع دينيا وأخلاقيا وثقافيا واجتماعيا . .

واذا تخلل هذا الاقناع تشكك فانه سينسحب - مما لا ريب فيه - على مجالات الحياة المختلفة ، مما يؤدي الى التقاعس عن الجهاد والعمل والانتاج . . ثم أن ذلك سيؤثر حتما في قابلية فلذات أكبادنا لاستيعاب القيم والمفاهيم والأخلاقيات ، التي نود تلقينها اياهم . .

ان في ادراكنا لدور المسجد الخطير ، في التربية النفسية للطفل ، لهو المفتاح لولوج الأبواب المغلقة ، التي ما زالت في حاجة منا الى جهود مكثفة ، وعمل متواصل ، للتعبير عنها باستخدامات المستحدثات والمكتشفات والأدوات الحديثة .

لقد انجذب الصبية والشبان في مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، الى تلكم الأدوات والمستحدثات ، وأغرم كثير منهم بما تقدمه بواسطتها من فنون رخيصة وغواية تثير الشهوات . . ورغم أن هذه الأدوات الحديثة ، والوسائل المستحدثة ، لا تنم من قريب أو بعيد عن أضرار بالفرد أو بالمجتمع . . الا أنه يمكن بواسطتها أن تذيب الخير بين الناس كما يمكن أن تشيع الفساد والافساد . .

ان تقسيم المسجد الى أقسام متعددة ، تضمن المكوث فيه أطول مدة ممكنة ، عمل طيب مما لا شك فيه ، فوجود مدخل خاص يقود الى قاعة العبادة والصلاة ، وينفصل عن مدخل آخر يقود الى المكتبة العلمية والثقافية شيء ضرورى ، كما أنه بإضافة قاعة فى الدور الثانى منفصلة تماما عن مدخل المسجد ، تكون بمثابة دائرة تلفازية مغلقة ، تعرض بها برامج مدروسة عن التراث ، وقصص الصالحين والأتقياء ، وموضوعات تربط بين العلم والإيمان ، سيشجع الكثير من الفتيان والشبان الى الانجذاب نحو المسجد ، لتأدية الشعائر والاستمتاع بالبرامج التثقيفية الإسلامية منها والعلمية ..

ان التربية النفسية تحتاج منا الى تفهم عقلية الطفل . قبل البدء فى الارشاد والتوجيه ، الأمر الذى يلزمنا الاستعانة بالمتخصصين فى هذه المجالات ، وذلك لتدعيم المسجد بالكفايات للإشراف على النواحى الاجتماعية والنفسية ..

ان وجود أخصائى اجتماعى أو نفسى لتوجيه الطفل وارشاده ، والعمل على حل العقبات والمشكلات التى تعترض طريقه يعاون كثيرا فى تصحيح الفكر الخاطئة التى يمكن أن تتعرض داخل صدر الطفل ، لتصبح فى كبره مرضا سرطانيا من الصعب علاجه ..

ان الفكرة الخاطئة تنبت صغيرة ، فاذا أهملنا علاجها ونحن نعتقد أنها ستذوب مع الزمن . تضخمت الى حد لا يمكن اقتلاع جذورها اذ أن جزر الحشيش من فوق الأرض ، ليس معناه أنه لن ينبت ثانية ..

ان التربية النفسية اذن ، لابد أن تبدأ مبكرة جدا ، وبدون الاستعانة بالمسجد ، مع البيت والمدرسة ، نكون قد عملنا في فراغ . . ولكي يتحقق لنا تنفيذ ذلك ، لابد أن نقتلع من أنفسنا ذلك الخوف المتوهم الذي يقودنا الى الظن بأنه من العبث ادخال العصرية الى المسجد . .

ان الطفل والشباب ينجذب الى كل ما هو محبوب ومرغوب فيه ، ومن ثم يتوجب علينا أن نجعل للطفل والشباب المسجد مكانا محبوبا له ومرغوبا فيه . . وبذلك نكون قد نجحنا في استعادة شبابنا الى بيوت الله .

ان تجربة اقامة مجمع ثقافى دينى ، يرتكز على عمد راسخة من القيم والمفاهيم الاسلامية ، سيكون بمثابة المنارة الهادية فى بحر متلاطم الأمواج ، اذ أنه مما لا ريب فيه ، سيقود السفن الضالة بأنواره الساطعة الى حظيرة الأمن ، وشاطئ الأمان .

ان التقليد والمحاكاة هى السبل الأولية لتعليم الطفل وتربيته (١) ، وعن طريقها يعتاد الطفل ويتطبع بالميول والعادات ، واذا لم يجد الطفل القدوة الحسنة والأنموذج الفاضل ، انبرى يحاكي ويقلد ما يراه أمامه من نماذج سيئة ، وبذلك يكتسب عادات مذمومة ، وأوصاف ذميمة ، ربما تقوده الى الجريمة اذ شب عن الطوق ، لذلك فإنه من الأهمية بمكان ايضاح الأنموذج الفاضل فى عين الطفل ليحاكيه ، ومن الضرورة ابراز القدوة الحسنة وتحريكها بصفة دائمة أمامه ، حتى يقلد سلوكها ويحاكي تصرفاتها ويستن بها ، وان فى اغفال هذا

العامل تحريك لكوامن النفس واثارة للشهوات وموافقة
الأهواء ..

ان العقل السليم فى الجسم السليم كما هو مأثور ، لذلك
فان التركيز على التربية البدنية أمر يأمر به الشرع ، ذلك أن
مصلحة المجتمع المسلم أن يكون اعضاؤه من الصحة والقوة
بمكان ، حتى لايطمع فيهم عدوهم ..

لذلك فان انشاء قسم خاص بالتربية البدنية ، يشرف عليه
متخصصون فى المجتمع الدينى ، أمر تفرضه ضرورة العصر
ويشجعه ديننا الحنيف ، ولا شك أن هذا القسم سيجذب شباب
الحى . الى المسجد الذى يلحق به جميع أنواع الأنشطة الاجتماعية
والثقافية والرياضية ، فضلا عن المهمة الأولى والرسالة
الأساسية ، وهى تعليم الناس أمر دينهم وأداء الفرائض المقررة
والمعاونة فى حل مشاكلهم الاجتماعية والنفسية والتربوية ..

ان رسالة المسجد ، يجب أن تمتد لتشمل جميع أنشطة
الحياة ، والا فكأننا نوافق النصارى فى ادعائهم بوجوب الفصل
بين الدنيا والدين .

ان اجمل ما فى العقيدة الاسلامية انها فطرية ، يقيها
العقل الرشيد ، وتواكبها النفس المستقيمة ، ويطمئن اليها
القلب السليم ، فلا خوف اذن فى الاسلام من ربط الأنشطة
المختلفة بالعقيدة الدينية ، اذ أن ذلك يعين على تطبيق الفكرة
الصحيحة ، بأسلوب يتمشى مع واقع المسلمين ويواكب شئونهم
الحياتية ..

ان المسجد هو المنارة التى يهفو اليها قلب كل مسلم ،
لذلك فانه يتوجب على المشرفين على المسجد ، أن يجعلوه دائما -
فى الشكل - والمضمون مما يثلج الصدور ويرضى جميع
المصلين . .

ان تعطل جهاز تكييف فى يوم قاتظ الحرارة ، يجعل بعض
الشباب يفضل الصلاة فى بيته المكيف الهواء . . . كما أن عدم
وجود رقابة دائمة على نظافة المسجد ، يلعب دورا خطيرا فى
التأثير على نفسية المصلين . . . لذلك فان صيانة المساجد ،
والمحافظة على نظافة بيوت الله ، أمر يقتضيه الشرع والعقل . . .
انه من غير المعقول أن يكون بيت الانسان أكثر صيانة
ونظافة من بيت الله . . . اذ أن المفروض أن يكون المسجد هو
النموذج الذى يحاكيه المسلم فى كل شىء . . .

ان الدور الخطير الذى تؤديه التربية النفسية الاسلامية ،
لا يقل أهمية عن تلقين المسلم العبادات المقررة . . . ذلك لأننا
نحتاج الى المسلم لا الذى يؤدى التكاليف والشعائر المفروضة
فحسب ، بل نحتاج الى ذلك المسلم المتفتح العقل والقلب ، العارف
بالآداب الاسلامية ، والقدوة الحسنة فى السلوك والأخلاق ،
المتسامح الرحيم مع اخوانه وأقرانه وأرحامه . . .

لقد مرت بالدول العربية بخاصة ، والاسلامية بعامة ،
سنوات طويلة اقتصر فيها دور المسجد على أداء التكاليف ، دون
الاهتمام بالتربية النفسية للطفل والشباب والكهل . . . ولقد كان من
نتيجة هذا الفصل ، أن ابتعد كثير من الدارسين وطلبة العلم عن
المسجد ، الى المدارس التى أعدت للتعليم العام دون الدينى ، بل

دعت الى تعليم اللغات الأجنبية وثقافتها ، وأهملت اللغة العربية وثقافتها ، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر ، الى انفصال المسلم عن مجتمعه وتقاليده وأخلاقياته ، وأصبح التفاخر بالحديث بلغة أجنبية ، فرنسية كانت أو انجليزية فى الأمكنة العامة ، دليلاً على الرقى والتقدم والتحضر ، بل أن أهل العروس كانوا يتباهون أمام أهل العريس بأن ابنتهم تعرف اللغة الفرنسية وتعزف على البيانو .

لقد أنشأ هذا النوع من التعليم الذى روجه الاستعمار الغربى ، نوعاً من الفصام بين الشباب ودينه القيم وشريعته الغراء ، وبالتأكيد فقد أثر على السلوك وطريقة التفكير ، بحيث أنه يمكن القول ، أنه خلق نوعاً من الشباب يمكن أن نسميهم بالمسلمين اسماً فحسب .

لقد كان المسجد فى عصور الاسلام الزاهرة ، أمل الشباب ومكانهم المفضل ، فقد ارتبط أقوى ارتباطاً بالتربية الاسلامية فى عصورها اليانعة المزدهرة .
فمنذ أن شيدت الدولة الاسلامية ، وهى تعاون بشتى الوسائل على قيام حلقات الدرس بين جنبات المسجد وأروقته ، تدعو فيها كبار الأساتذة والعلماء لشرح أصول الدين الحنيف ، وتوضيح أحكامه واظهار محاسنه وأهدافه ، والتعرف على أسرار شريعته .

لقد كان المسلمون يقيمون المساجد فى كل مدينة افتتحوها ، فى مسيرتهم الظافرة لاعلاء كلمة الله ، ولم يكن المقصود فى بناء هذه المساجد فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن تكون دوراً

للمعبادة فحسب ، بل قصد بها أن تكون أيضا معاهد للتعليم ومجالس
للقضاء ، ومنتديات للاجتماع بين المسلمين *
لقد كثر عدد المساجد فى المدن الاسلامية ، حتى أننا نجد
على سبيل المثال أن مدينة كبداد كان بها أكثر من ٣٠٠٠ مسجد (١) *

ولم يكن المسجد اiban العصور الاسلامية الزاهرة يعنى
بالتعليم الدينى فحسب ، بل اتسعت رسالته لتشمل جميع أنواع
العلوم والفنون *

لقد كان جامع المنصور مثلا الذى بناه الخليفة أبو جعفر
المنصور فيما بعد ، مطمح العلماء والفقهاء ورجال الفكر
الاسلامى فى مختلف العصور ، حتى روى أن الخطيب البغدادي
عندما حج طلب من الله فى دعائه أن يحقق له التدريس فى النحو
بجامع المنصور *

كما كان الجامع الأموى ، من أشهر المدارس التى لعبت دورا
كبيرا فى التربية الاسلامية ، كما كان الجامع الأزهر منارة للعلم
والتربية زهاء ألف عام ، وكان يدرس فيه ضروب من المعارف ،
شملت الطب والتاريخ والفقه على المذاهب الأربعة ...

لقد آن الوقت الآن الى التوسع فى رسالة المسجد ، بعد أن
انصرف كثير من شبابنا المسلم عنه الى المدرسة والمنتديات ...
ولا يمكن جذب الشباب المسلم الا باستخدام الوسائل الحديثة ،

- ٢٩٣ -

التي تيسر وصول المعارف والعلوم المختلفة بصورة يقبلها الشرع
الحنيف * بدلا من استخدام تلكم الوسائل في دور اللهو ، وهي في
أيدي أناس يفتنون الشباب في دينهم *

ان المسجد والمدرسة ، هما المنبران اللذان نأمل بهما اصلاح
التعليم ، والرجوع الى الأخلاق الاسلامية الحقة ، وبتعاون كل من
المسجد والمدرسة مع البيت ، يمكن أن يتخرج الى الحياة ، شبابا
مسلمة ، سليمة نفسيا وتربويا *

الباب الخامس

(فى الآداب الاسلاميه)

الفصل الأول : « حتمية الدين فى العملية التربوية »

- ١ - حتمية الدين •
- ٢ - التربية النفسية الاسلاميه •
- ٣ - البدايات فى العملية التربوية •
- ٤ - اختيار المربى الصالح •
- ٥ - أدب النفس فى الاسلام •

الفصل الثانى : « الآداب الاسلاميه »

- ١ - آداب المائدة •
- ٢ - أدب اللباس •
- ٣ - فى آداب المجلس •
- ٤ - تكريم اليمين •
- ٥ - أدب السلام •
- ٦ - آداب السفر •
- ٧ - الحياء •
- ٨ - عيادة المريض •

حان الوقت بعد التجارب المريرة ، التى مرت بها مجتمعاتنا
الاسلامية بعامة ، والعربية بخاصة ، أن نبادر الى ادخال منهج
التربية الاسلامية ، فى المدرسة والمصنع والجامعة ...

ان منهج التربية الاسلامية لا يحتاج الى عناء بحث ، وكثرة
تأويل ، فهو يتلخص فى الرجوع الى ينبوع الذى لا ينضب من
كلمات الله التامات ، ثم العمل على تطبيقها تطبيقا واعيا
وحكيما ، ويبدأ ذلك بمخالفة اهواء النفس والسير فى طريق
الاستقامة ، وشجب كل صور الاسراف والافراط ، من عدوان
وافساد فى الأرض *

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره
فرطا »
« الكهف : ١٨ »

ويضع منهج التربية الاسلامية القيم الصالحة للاتباع فى كل
زمان ومكان ، ويرشد الى السلوك الواجب الاتباع ، الذى يتحلى
به المؤمن ، كالمودة والمحبة والأخوة والصفح الجميل ، والاحسان
والايثار ، الى غير ذلك من الفضائل ومكارم الأخلاق
« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

« النحل : ١٢٥ »

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ،
فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »
« فصلت : ٣٤ »

هناك ضرورة اذن يفرضها واقعنا الملموس ، للعمل على نشر
منهج التربية الاسلامية ، وذلك لتقييم الأحداث الجارية تقييما

واعيا وسليما • فهناك جاهلون يفسدون فى الأرض ، يحملون دعاوى الحادية ، ويظنون ظنونا كاذبة ، ويتخيلون أن الطريق الأوحى لاشباع متطلباتهم وتلبية حاجاتهم ••• وتحقيق مآربهم والظفر بأغراضهم الدنيئة ، لن يتم الا بالعدوان والعنف والتضليل ••• واشاعة الفرقة ، وذلك باختراع نظريات مزعومة ، ودعاوى مسمومة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ••

« حسداً من عند انفسهم »

« البقرة : ١٠٩ »

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »

« البقرة : ١٠ »

والجاهل الذى يفسد فى الأرض لا يدرك عواقب أفعاله الشريرة :

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم »

« البقرة : ٢٠٦ »

هذا الجاهل قلبه مريض ونفسه ظالمة ظلومة ، أماراة بالسوء ••• فهو يكره الناس جميعا ، ويظنهم أعداءه وخصومه دون دليل أو برهان من الحق •••

وهؤلاء الجهلة معذورون ••• يظنون أن أفكارهم الفاسدة ، وفلسفاتهم التافهة تحقق لهم السيادة والعزة والسلطان فى الأرض ••••

« أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم

« المائدة : ٥٠ »

يوقنون »

— ٢٩٩ —

ومن المفسدين من يعمل السوء بجهالة ، وهؤلاء لا يجدون
الناصح الأمين ، فهم يحتاجون الى ترشيد وتذكير ، وتوعية
وموعظة حسنة ، ليأخذوا بالعفو ويأمرؤا بالمعروف ، وينتھوا عن
الضلال والظلم والعدوان

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة »
« النساء : ١٧ »

اننا اذا طبقنا منهج التربية الاسلامية فى مجتمعاتنا ، ووعى
العامل والطالب وعياً تاماً الأسس الأخلاقية التى يتوجب أن يسير
عليها ، فلن يندفع أبدا الى صور الجاهلية ، ولن يحاكى بلا فهم ،
نفر ممن يتبعون الفكر المنحرف ، والعقائد الفاسدة ، من الملحدين
والكافرين .

وبالتربية الاسلامية يتبدل الجهل بالعلم ... والحمية
بالصبر ، وكظم الغيظ والعدوان ... بالصفح الجميل ، والحد
بالتوبة ، والانتقام بالاحسان :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین »
« الأعراف : ١٩٩ »

حتمية الدين

أمر الله تعالى الخلق بعبادته حتى يوم الدين ، والعبادة تأياها النفوس العاصية ، بما فطرت عليه من الشهوات والبعد عن الطاعات . وما غرس فيها من ميل الى المحظورات وما جبلت عليه من التجبر والتكبر والاعتزاز .

والله تعالى أعلم بتركيبها ، وأهدى لنزعاتها الطاهرة والباطنة ، وأعرف بما يصلح لكى تستقيم . يعلم ما يجب على النفس تجنبه للبعد عن غواية الشيطان واتباع الصراط المستقيم .

والنفس البشرية التى تأبى العبادة ، وتنزع الى هواها ، انما يكون صلاحها فى مخالفة حظوظها ومنازعة شهواتها . . . ولقد ورد فى ذلك قوله تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

(الذاريات : ٥٦)

« وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

(الحجر : ٩٩)

واليقين هنا يعنى الانتقال من الحياة الدنيا الى الآخرة .

فالعبادة شريعة الله فى خلقه . أمرهم بها حتى تقوم الساعة ، لمغالبة النفس والهوى والشيطان جميعا . لذلك تحتاج العبادة الى مجاهدة ومكابدة ومعاناة . فاذا داوم العبد على العبادة لله ظاهرا وباطنا مخلصا لله ، انتقل الى الحياة الاخرى

- ٣٠١ -

ملاقيا ربه مؤمنا ، فيثاب على عمله ويلحق بالصالحين فى جنات
ونعيم وذلك وارد فى قوله تعالى :

« واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان
الجنة هى المأوى »
« النازعات : ٤٠ ، ٤١ »

فاذا دخل المؤمن الجنة كثمرة لمجاهداته الدنيوية ، ومكافأة
له على طاعته واحسانه ، كانت داره ومقره ومصيره ، وأمن فيها
من التحول عنها ، والتقلب الى سواها ، والانتقال والعودة الى
جهنم ، وتجدد له فى الجنة كل أنواع من النعيم ، ويهدى فيها كل
ساعة أصناف من الحل والحل بلا حد * ولا وعد *

أما الذى اتبع هواه ، وظلم نفسه ، وانقاد لحزب الشيطان ،
وعصى أمر ربه وعبد طاغوت الضلالات ، وتمرغ فى وحل
المعاصى وأشرك بالله * أتاه الموت وهو ذليل * وقبض بعيدا
عن رحمة الله فيدخل النار التى أعدت للكافرين والثى أصبحت
مقره الأبدى ومصيره الأزلى * يحرق جلده ولحمه * ثم تجدد له
جلود ولحوم كلما نضجت فى النار * الى ما لا نهاية ليظل يصلى
بنارها ، وليتصل عذابه بعد عذاب ولتستمر آلامه بعد آلام *
بلا نهاية *

فالعبادة اذن هى الموصل الى نعيم الآخرة * والرسول صلى
الله عليه وسلم يقول فى ذلك : (الدنيا مزرعة الآخرة) *

فأهل الجنة تجدد لهم كل وقت ثمرات ولذات مضاعفة *
وأهل الجحيم يجدد لهم كل وقت العذاب والآلام أضعافا
مضاعفة *

- ٣٠٢ -

وليست العبادة أشكالا ورسوما ، وزخارف وحركات ،
 وليست صورا ومظاهرا وجدالا • انما العبادة اخلاص لله
 وطاعة لأمره ، وذكر لفضله ونعمه ، ورضا ببلائه وابتلائه ،
 وتوكل عليه فى كل أمر وفعل ، وصبر على ما يعطى وما يمنع ،
 ومحبة دائمة لا يعتريها اعتراض ولا مخالفة • والعبادة قلب
 سليم مع الله ، وسكينة فى حجر الرحمن • وخوف من وعيده
 ورجاء فى وعده • فاذا خطر للعبد أنه لا يرى الحق • فإنه موقن
 أنه تعالى يراه • وقد صدقت نيته وذابت نفسه الأماره • •
 وبقيت نفسه مطمئنة •

والعبادة ليست مقصورة على الفرائض المسنونة ، ولا
 التكاليف المقررة • وانما العبادة أيضا صدق واخلاص ونية
 حسنة ، ويقول صاحب الحلية نقلا عن الأوزاعى - رضى الله
 عنه : -

« ان القوم ليكونوا فى الصلاة الواحدة ، وأن بينهما كما بين
 السماء والأرض » •

ومعنى ذلك أن يكون أحدهم خاشعا مقبلا على صلاته
 باخلاص ، والآخر ناسيا • • غافلا عن الله •

التربية النفسية الاسلاميه

لاشك أن التربية تشتمل على التعليم .. وتكوين الملكات الخلقية والعقلية .. والتربية الخلقية رغم أهميتها البالغة في تكوين أخلاق الأفراد والشعوب الا أنه للأسف الشديد .. ليس لها نصيب وافر في التعليم في المراحل المختلفة في عصرنا الحديث .

وأما التربية العقلية .. فينصب الاهتمام فيها على الذاكرة (١) بمعنى أن تربية العقل تنحصر في الاهتمام بالحفظ .. فالامتحانات التي تعقد لطلبة المدارس الثانوية .. بل وفي الجامعة .. هي امتحانات لاختبار ما شحن بذاكرة الطالب .. وليست دليلا على ذكائه .

ونحن نرى أن كثيرا من الشباب الذين يتخرجون في المدارس الثانوية والجامعة ، يسخطون كثيرا على كم المعلومات التي يتلقونها .. بل ويشعرون أنها لم تفيدهم في قليل أو كثير .

والواقع .. أن التربية اللفظية التي تلقن بطريق المحاكاة والاستظهار والتعالى ، لا تصلح في الحياة الواقعية .. اذ أن العلم الذى يمس كل شىء دون أن يتعمق فى شىء .. هو علم من الواجب تجنبه ، ذلك لأنه فى تصورنا ليس من المهم شحن ذاكرة الطالب بالالفاظ ، والجمال العلمية والادبية فحسب .. بل أيضا ضرورة ارتباط ذلك بالتطبيق العملى والممارسة الفعلية فى الحياة والمجتمع .

(١) روح التربية - جوستاف لوبون ص : ١٠٧ تعليق د طه حسين

كما أنه من الصعب أن نطالب المربين الذين خضعوا أثناء دراستهم في الصغر الى نفس نظم التربية التى يعلمونها لتلاميذهم .. أن يغيروا تلك المناهج بمناهج جديدة .. لأن معنى ذلك .. أننا نطلب منهم أن يغيروا مزاجهم العقلى *

فمثلا هم قد تعلموا طرقا تربوية تقوم أساسا على الوصول من المركب الى البسيط ، مع أن المفروض كوسيلة سليمة انتهاج طريقة عملية للوصول من البسيط الى المركب .. أو بمعنى آخر البدء من الأيسر والأسهل الى الأشد والاعسر *

والرؤية الطيبة التى خبرها الامام الغزالى .. ووجدها نافعة لتربية نفسه .. وتقييم معارفه .. وتثبيت طريقه فى الحياة والمجتمع .. تبدأ من المحسوسات .. وهى الأيسر والأسهل لما لها من ارتباطات بالجزئيات والمشخصات (١) *

ثم أنه شك فى هذه المحسوسات * وبين أنها لا تؤدى الى المعرفة السليمة ويقول : « من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وبه ينظر الانسان الى الظل فيراه واقفا غير متحرك .. فاذا به يحكم بنفس الحركة .. ثم اذا به بالتجربة والملاحظة .. بعد ساعة يكشف أن الظل يتحرك .. وانه لم يتحرك طفرة .. وانما بالتدريج .. ذرة .. ذرة ، أو دفعة .. دفعة ، ومعنى ذلك أنه لم يتوقف قط *

وكذلك ينظر الانسان الى الكوكب فيراه صغيرا فى مقدار الدينار .. ثم أن الاثباتات العلمية والهندسية تدل على أنه

(١) المنقذ من الضلال — أبو حامد الغزالى ص : ١ — ٧

أكبر من الارض فى المقدار .. وهكذا يكذب حاكم الحس ،
ثم يتشكك أيضا حاكم الحس فى حاكم العقل فيقول : ان ثقتك
بى كانت كاملة حتى جاء العقل فكذبنى .. وربما هناك حاكم
وراء العقل يكذبه أيضا .. فلماذا تصدق العقل وتكذبنى ؟ *

ثم ينتهى آخر الأمر الى التشكك فى حاكمى العقل والحس
جميعا ، الى أن يصل الى الأمن واليقين .. وليس ذلك بأدلة حسية
وعقلية ، أو بطريق الاستنباط والاستدلال .. ولكن عن طريق
الايمان ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ، وعلامته أن الدنيا
هى دار الغرور .. وأن الآخرة هى دار الخلود *

وقد بدأ الامام الغزالى بتربية نفسه بالأيسر .. ثم بالاشق
والاعسر .. أى من البسيط الى المركب .. ومن الأسهل الى
الأصعب .. وهذا هو منهج التربية الاقوم *

واننا نؤمن أن التربية هى الوسيلة الوحيدة التى يملكها
الانسان لتحقيق التطور الاجتماعى ، وتشبيت المشل والقيم
الأخلاقية ، ولكى يتحقق ذلك .. فلا بد من تحويل ما هو ظاهر
الى ما هو باطن .. أو بمعنى آخر من تحويل المظاهر الخارجية
الصحيحة ، الى عقيدة ايمانية .. وذلك بتحلية النفس بالأوصاف
المحمودة ، وتخليتها من الأوصاف المذمومة .. ولاشك أن ذلك
يتطلب منهجا واعيا .. لغرس مبادئ الحق والعلم والفضائل
فى نفسية من يتولى تربيتهم *

كما أن هذا الطريق .. يحتاج الى مثل أعلى .. أو قدوة
حسنة تلتف حولها القلوب للخروج من حياة الجهل الى العلم ، ومن
الغرور الى الايمان ، ولاشك أنه بدون التحلى بالايمان الالهى ..

- ٣٠٦ -

وما يستتبعه من قيم عليا .. يؤدي الى التخلل فى وحدة الأمة
فتتفكك ، وتأخذ قوتها فى الانحلال ، وبالتالى يؤثر ذلك فى
أفراد هذه الأمة .. ذلك لأن المثل الأعلى الجامع لوحدة الأمة
والذى يتجمع حوله الافراد * ولهم فيه أمانى مشتركة قد ذهب
بذهاب المثل والقيم العليا *

وفى تصورنا أن تلقين مبادئ الاخلاق .. وغرس قيم
أخلاقية ، انما يتطلب تجنب الشر والاقبال على الخير * ولن نمكن
من ذلك الا بمخالفة النفس بالرياضات .. والبعد عن الشهوات ..
وذلك عن طريق التأديب والترويض .. وتحقيق الخير بالتمثيل
بالقدوة الحسنة .. والممارسة الواقعية تدل على أن الخير
أفضل من الشر .. وأن الامم انما تتكون ثقافتها .. وحريتها
.. وارتقاؤها .. اذا سادت الاخلاق .. وانها ترجع الى الظلمة
والجهالة عندما تترك الاخلاق *

علينا اذن ان نتحرر فى مجال التربية من القوالب والصيغ
.. الى الاسلوب العملى فى استخدام الارشاد والتوعية بالقيم
والمبادئ ، ثم توفير الحرية للتفكير مع وجود رقابة .. أما
التركيز على حفظ المواعظ والحكم .. ثم فرض رقابة شديدة
على الشباب ، والتشكك فى قدراتهم وملكاتهم .. ونزع الثقة
منهم .. فان ذلك يؤدي حتما الى النفاق العلمى .. والخداع
.. والرياء .. ولاشك أن ذلك مصدر من مصادر الشر
والجريمة فى حياة أى أمة من الأمم *

ليكن هدفنا الاساسى ، أن تصل القيم الى باطن الشباب ،
وتصبح غاية عملية يطبقها فى حياته جميعا .. يتوارثها جيلا

عن جيل ، فالفضائل العليا •• كحب الخير •• والايتثار ••
والاحسان •• والاخوة •• والمحبة •• •• انما هى ثمار للبيئة
الحسنة •• ونتاج مكارم الاخلاق عند الجماعة والافراد •

ولاشك أن التربية النفسية تعمل على تكوين الرجال ،
والتحلى بمكارم الاخلاق •• وليست هى اذن الحصول على أعلى
الشهادات دون تطبيق العلم فى الحياة كسلوك اخلاقى يعاون على
تجنب الشر واتباع الخير •

وفى تصورنا أن التربية الخلقية السليمة ، لا تعتمد على
المواعظ الجامدة •• والتعابير المطاطة •• والالفاظ المكررة
•• والحكم المتواترة •• والكتب المترجمة •• •• انما تعتمد
اساسا على المربى الفاضل ، صاحب الخبرات الذى يوجه تلميذه
الى الخير •• والحق بما له من الحنكة والتجربة •

والتجربة التى نقصدها هنا •• تتمثل فى معرفة مصلحة
الجماعة ومصلحة الجماعة هى القانون الثالث فى الشريعة
الاسلامية ، بعد القرآن والسنة •• والتى لا يمكن مخالفتها ••
أو الاعتداد بجهلها والا استتبع ذلك وقوع المخالف تحت طائلة
العقاب الذى تحدده الجامعة •• فضلا عن الجزاء الأخرى •

ان وسائل التربية فى الوقت الحاضر •• تعتمد على عملية
تلقين فحسب •• اذ أن الاستاذ يعلم التلاميذ علم الاخلاق مثلا
بقوله : أن علم الاخلاق انما يبحث فى حب الاسرة والمجتمع ••
والجهاد فى سبيل الله •• وأن حب الوطن واجب مقدس •• وأن
الجهاد فى سبيل الله شرف للانسان •• ثم أن الاستاذ نفسه ••
ربما يكون متشككا فى قيم الاخلاق التى يدرسها •• ولذلك فان

دروس الاخلاق تبدو عديمة القيمة .. لانها غير مؤثرة تأثيرا ايجابيا .

علينا اذن لكى ندرس الاخلاق دراسة سليمة .. صالحة للحياة العملية .. أن نربطها بالعلاقات الانسانية .. كما علينا أن نربطها بعلاقة الانسان بربه ، فليست الاخلاق مجرد برنامج دراسى على الطالب أن يحصله ويمتحن فيه فحسب معتمدا فيه على التذكر وحفظ الموضوعات المقررة ، دون أن يكون لها أى نفع فى الحياة العملية والعامة .. وانما التربية أساسا تقوم على الارتباط الوثيق بالواقع ، فهى تهتم بالحقائق ، وليست بالالفاظ والتعبيرات والحكم .

علينا أن نفرس حب التأمل فى طالبى المعرفة ليستخلصوا الحقائق المجردة ويمتحنونها فى حياتهم وواقعهم ، بل وعقيدتهم الدينية ، ولن يتم ذلك بتغيير البرامج والنظم المتشابهة .. التى نزع من بها نطور ثقافتنا .. أو باستخدامنا الادلة العقلية التى ندعى أن بها تؤثر فى الاخلاق بما نستحدثه من نظم وبرامج .

انما الذى يؤثر فى الأخلاق حقا .. ليس الحفظ وشحن المعلومات .. وليس المنطق .. وانما المؤثر الحقيقى هو المثل العليا والبيئة الصالحة التى يعايشها أولادنا واخواننا .

فالاساس فى ايجاد تربية سليمة ، ليس باصلاح البرامج أو تغييرها أو تعقيدها .. أو تسهيلها .. وانما باختيار المنهج السليم الذى يجب أن يكون نقطة ينطلق منها البناء التربوى محققا غاية يستهدفها ، ويسعى لتحقيقها .. فى عملية تربية الافراد والجماعة .. أما تغيير البرامج والانظمة المعمول بها الى

— ٣٠٩ —

أنظمة أخرى ، فليس الا تغييرا لحذاء قديم بدل حذاء قديم . وأما الشخص واحد •

أو بمعنى آخر •• ليس الا احياء لشئ عفن ••
ليس هناك من سبيل لحيائه •• لانه لاسبيل لحياء الموتى !!

والمنهج المقترح يستقى مصادره من القرآن الكريم •• وهو السراج الاعظم •• متوخين في تطبيقه ما انتهجه الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم سائرین على هدى الانمة الذين اتبعوا تعاليمه ، وهم القدوة الحسنة التى تعاوننا على تربية أمتنا تربية صالحة فى كل زمان ومكان •

وتعتبر تربية الانسان فى الاسلام ، غاية من الغايات العظمى تستهدف العلم ومكارم الاخلاق •• فالرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول :

« أدبنى ربى فاحسن تأديبى » • (متواتر)
وقوله — صلى الله عليه وسلم — :
« انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » • (متواتر)

وخروج الانسان متكاملا ، واعيا •• عارفا بربه •• سليما فى معاملته مع اخوانه ، غاية للتربية الاسلامية ، ولكى تتحقق هذه التربية ، يتوجب أن ننطلق من محركين أساسيين •• محرك ترغيب •• ومحرك ترهيب •• فالنفس تنزع بفطرتها الى لهوى •• وتميل الى الشهوة ، وتركز الى تحقيق ذلك ركونا عظيما •• بما جلبت عليه من صفات مذمومة •• يمكن أن تحدث لها العطب والفساد والانحراف •

لذلك وجب تحريك محرك الترهيب .. للقضاء على هذه الآفات أولا بأول حتى لا تعتاد عليها النفس .

كما تقوم التربية الاسلامية على محرك الترغيب فيما يتعلق بالافعال الحمودة .. والعلوم النافعة .. والقدوة الحسنة .
حتى يتجلى بها باطن الانسان .. فتصبح هذه الافعال هدفا .. وغاية .. وسلوكا .

ولكى يتم تطبيق ذلك عمليا .. يتوجب تحليل النفس بالافعال الحمودة .. وتخليتها عن الاوصاف المذمومة .. والمنطلق الذى تنطلق منه مناهج التربية .. يقوم على ركيزة مستقاة من القرآن الكريم .. وهى أن الانسان فطر على نسيان الحق .. فاذا لم يذكر به بصفة مستمرة انحرف عن جادة الصواب .. وركن الى الخمول والبلادة ، فيتلقفه الشيطان .. ويوسوس له .. ويحسن له باطل عمله .. وبذلك تميل النفس الى طبيعتها .. فتتحرف الى الاهواء والامانى الكاذبة .. وتندفع الى الغفلة والضيايع (١) .

ومن هنا كانت أهمية الرياضة النفسية لتقوية العزيمة .. والعزيمة باب الصحة النفسية ، لانها طريق الى الاستقامة والعدل التى بهما يتحقق الخير والعلم .. اذ أن أبا البشر آدم — عليه السلام — نسى ولم يستطع الصمود أمام غواية الشيطان .. تصديقا لقوله تعالى :

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى .. ولم نجد له عزما »
« طه : ١١٥ »

(١) رسائل ابن عربى (اصطلاحات الصوفية) الامام محبى الدين بن عربى

فالنسيان اذن آفة مفطور عليها الانسان .. وعليه مغالبتة
بالعلم .. والعلم بهذا المعنى رياضة نفسية .. وممارسة عملية ..
وارشاد وتوجيه مستمر لتقوية العزم .. والعزم نقيض
النسيان .

ومن الناحية العملية .. يجب ان تبدأ التربية النفسية
بالاقتداء بالقدوة الحسنة ممثلة في الانبياء والصالحين لقوله
تعالى :

« ثابصبر كما صبر أولوا ألهم من الرسل »
« الاحقاف : ٣٥ »

فالعزم يحتاج الى صبر .. وكظم للغيظ .. وتحمل
للابتلاءات .. كما انه لتحقيق التربية السليمة .. يجب استخدام
وسائل الترغيب .. والترهيب .. كما يجب التذكير حتى لا ينسى
العبد .. لان النسيان غفلة .. وبعد عن العلم والحق
والصدق .. وذلك وارد في قوله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى » *

« الاعلى : ٦ »

كما أن النسيان فطرة في الانسان (١) فهو ينسى ما يذكر
به .. فكيف لا ينسى ما لا يذكر به لقوله تعالى :

« قال كذلك آتتكم آياتنا فنسيتها .. وكذلك اليوم تنسى »
« طه : ١٢٦ »

تنبيه المغالين - الابهام السور قنذى ص ١٠٥ وما بعدها .

تذكر الحق اذن يستهدف به عدم الغفلة .. والعلم بما هو مطلوب عمله مع بيان الطريق الصحيح الواضح .. الصالح - للتطبيق العملى .

وقد نبه الاسلام الى القدوة الحسنة فى شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن استن بسنته من الصحابة والتابعين .. وتابع التابعين ، فاذا تعامى الانسان .. وتغافل .. ونسى بعد ما أرشد الى الحق .. ما وجه اليه من الهدى .. ولم يؤمن به .. فان ذلك علامة الجهل الذى يؤدى الى العذاب والهوان .. بالاضافة الى العقاب على تغافله ونسيانه الحق .

ولقد أراد سيدنا موسى - عليه السلام - من الخضر .. وهو عبد من عباد الله الصالحين آتاه الله علما خصه به .. أراد سيدنا موسى - عليه السلام - أن يتعلم هذا العلم ، ويربى نفسه على الصبر .. وكظم الغيظ .. واحتمال المكابدة والمعاناة للوصول الى العلم اللدنى .. لكنه لم يستطيع مع الخضر صبرا .. مصداقا لقوله تعالى :

« قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا »
« الكهف : ٧٣ »

ويمكن استخلاص من قصة موسى والخضر عليهما السلام ، هذا المنهج القرآنى فى التربية النفسية .. فالعلاقة بين استاذ وتلميذ .. والاستاذ عبد خصه الله بعلم .. والتلميذ نبى حظى بما لم يحظ به أحد فى عصره .. ومع ذلك فهو يتواضع لاستاذه العبد الصالح ، والعبد الصالح يبين صعوبة الدرس .. فيقول له : انك لن تستطيع الصبر على ما أريد أن أعلمك عنه .. اذ أن ذلك

يحتاج الى كظم للغيظ .. والتعود بعمادات تحتاج الى رياضة ..
وسياسة نفسية .. غير ما سبق أن علمته وخبرته .. وما أوحى
اليك .

فالتربية الاسلامية تربية سليمة .. قوامها كسر حدة مألوف
العمادات .. وتجاوز مرحلة الرخص الشرعية ويرد عليه النبي
الكريم كتلميذ متواضع أخطأ في الدرس .. فيقول له :

« لا تؤاخذني على نسيان مواعظك وارشاداتك ووصاياك ..
ولا تكلفني مشقة في تحصيل هذا لعلم .. ولأخذ بما كنت
أجهله من حقائق وجودية .. فلا تجعل الامر بالنسبة لي شاقا
عسيرا » .

اذن فالتربية تحتاج الى علم .. والعلم يحتاج الى تذكر
دائم .. كما يحتاج الى مكابدة .. ومعاناة .. ومجاهدة
.. حتى يصير سلوكا .. واخلاقا .. وأدبا ، كما في قول عز
من قائل :

« لتبتغوا فضلا من ربكم .. ولتعلموا عدد السنين
والحساب » .
« الاسراء : ١٢ »

والعلم المقصود هنا ليس علما نظريا فحسب (٢) ولا علما
عمليا فقط .. انما علم جامع للنظر والعمل ، صالح للتطبيق
في الحاضر والمستقبل ، الا أن أئمة الاسلام ينظرون الى الجزء
الخاص بالعلم النظري على أنه سابق للعمل .. بمعنى أن التربية

(٢) احياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي ج ١ ص : ٧٨ .

— ٣١٤ —

الصحيحة تقتضى البدء بالعلم النظرى .. ثم تطبيق هذا العلم فى مختلف مجالات الحياة وليس العكس .

وقد سمي أئمة الاسلام هذا العلم .. بعلم المعاملة ..
وقسموه الى أقسام ثلاثة :

- ١ - اعتقاد .. أو تفكر أو نظر .
- ٢ - تطبيق .. أو سلوك عملى أو معاملات - أى تنفيذ وتطبيق - .
- ٣ - ترك .. استبعاد وهجر .

١ - الاعتقاد:

هو التعليم المنظم المرتب .. المبنى على الاقناع لحقيقة الدين حتى لا يخامر نفس المسلم الريبة أو الشك فيما يلقي اليه من العلم .. فاذا ما قوى الاعتقاد .. يبدأ بالتنفيذ والتطبيق .

٢ - التطبيق :

والتطبيق .. ما تلقنه وأرشد اليه من علم .. مثل القيام بالفرائض كالصلاة .. والطهارة .. والصوم .. والزكاة .. والحج ويتم ذلك بالتدرج شيئاً فشيئاً حتى لا تسأم النفس وتتمرد بالعصيان وتشور على الاعتقاد الى أن يسلس قيادة النفس .

٣ - الترك :

ثم يبدأ المربي بالاصعب من الامور .. وهو ترك ، أو استبعاد ما لا يصلح تعليمه أو تلقينه .. كأن لا يعلم الاعمى

ما يحرم من الكلام .. كما لا يعلم البدوى .. ما يحرم من الجلوس فى الاماكن العامة .. اذ أن هذه العلوم لن يستفيد بها صاحبها فى الآن أو فى المستقبل ، فضلا عن أنها ليست صالحة للتطبيق العملى بالنسبة للاعمى .. والابكم .. والبدوى .. وانما الذى يجب أن يلقن تجنبه والابتعاد عنه من الاعمال والافعال ما هو جائز أن يقع فيه الطالب فى الحاضر والمستقبل حتى لا يكون سببا فى انحرافه وضلاله .

وللتربية الاسلامية جانب آخر يختص بتربية القلوب .. وهى رياضة نفسية عملية .. تهتم بالنيات والخواطر .. فتدفع بعيدا الخواطر والوساوس .. والنيات السيئة .. كالرياء .. والغرور .. والحسد .. والكبر والتعجب .. وغير ذلك من الآفات .

ولا تترك النفس فى فراغ .. بل تدفع اليها مكارم الاخلاق .. ممثلة فى الايثار والصدق .. والعدل .. والاحسان .. والتواضع وتنقية النفس بالخواطر المحمودة .. وفى ذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« ثلاث مهلكات .. شح مطاع .. وهوى متبع .. واعجاب المرء بنفسه » .

على المربى اذن .. أن يعاون تلميذه على التخلص من هذه النقائص .. بل يجاوزها فى معالجة آفاته الباطنة .. وذلك بتطبيق منهج واع ، وقواعد عملية .. تنطلق من مفهوم اسلامى مؤداه :

« من لا يعرف الشر .. يقع فيه » .

وعلاج هذا الامر بمقابلة السبب بضده .. اذ أنه من الأهمية بمكان اتمام عملية التربية بمعرفة السبب والمسبب .

ولذلك يتوجب تعلم ما يتوقع الانسان وقوعه في القريب العاجل ، بل أن ذلك فرض على كل مسلم .. ومثال ذلك تعلم الطب لعلاج الاجسام .. أو تعلم الحساب من أجل المعاملات .. وبالمثل في الصناعات والحرف .. لانه اذا خلا المجتمع من تعلمها وقع في الاغاليط .. وانتكس .

ومن ناحية أخرى .. هناك من العلوم ما يجب تجنبه .. مثل تعلم السحر .. والشعوذة .. التي ليس من ورائها فائدة على الاطلاق .

وليتم ذلك يقينا .. لابد من مربى ومريد .. أو معلم وتلميذ ، ثم انه لابد من رابطة قوية .. أساسها الثقة والادب حتى تتحقق التربية السليمة .

آداب التربية :

الرابطة بين المربى وطالب العلم لها آداب وشروط .. منها :

- ١ - النصيحة الخالصة التي لا ترتبط بمنفعة أو مصلحة .. فان تدخلت المنافع ، ففترت التربية .. ومن ثم شابها العيب .
- ٢ - أن يتحقق في المربى الحلم والشفقة والرحمة بمن يتولى تربيتهم .

- ٣ - أن يترفق بهم .. وأن يلاينهم عند عجزهم وضعفهم في احتمال المجاهدة .. ويقوى عزائمهم على المجاهدة والسعى

- ٣١٧ -

- والعمل على مخالفة العادات السيئة والطبائع المذولة •
- ٤ - أن يعتبر المربي من يربيه بمثابة ابنه • • فيعامله معاملة الوالد الحكيم • • الشفوق • • اللبيب •
- ٥ - أن يأخذ المربي من يربيهم بالأسهل • • ولا يحملهم مالا طاقة لهم به •
- ٦ - إذا ما وجد المربي المريد قوى العزيمة • • يأمره بالاشد • • فالاشد ، وذلك بترك محاكاة الطبع • • واتباع الحق • • حتى يخرج من مألوفات العادات • • وقيودات الطبع وأحكامه •
- ٧ - أن يعود على العزم • • فلا يتعلق بالرخص في المباحات ، وانما يستبدل بها العزيمة • • حتى يتعود على المجاهدات • • وتجنب الخمول والكسل •
- ٨ - إذا وجده صادقا • • مجاهدا • • صاحب عزيمة • • فانه لا يسامحه في شيء ، بل يأخذه بالاصعب من الرياضات التي لا تضعف عزيمته • • ولا تفسد ارادته •
- ٩ - ألا يهون عليه أمره عندما يقع في المخالفات • • ولا يترفق بحاله عندما يشتد صلبه • • حتى لا يقع في الرعونات •
- ١٠ - أن يحسن تربيته وتأديبه • • ولا ينتظر من ذلك عوضا • • وعليه ألا يختار من يربيهم عن طريق التوصية أو الوساطة • • وانما يربي المريد الذي جاء من نفسه طالبا تربية نفسه • • فهذا يصلح ويوفق في التربية • • ونجاحه أسرع وفلاحه أتم وأثمر •

١١ - اذا وجد فيه خلا ٠٠ فعلية أن يحفظ سره ٠٠ فلا يطلع عليه أحد غيره ٠٠ لانه أمانة عنده ٠

١٢ - أن يكون ملجأ المريد عند الحاجة ٠٠ ومرشده ٠٠ وموجهه عند الطلب ٠٠ وعليه أن يعظه في السر ٠

١٣ - أن يصغر له أحواله ٠٠ وأعماله ، لأن التعجب يفسد المجاهدة واذا رأى من بعض المريدين انحرافا ٠٠ فانه يجمعهم ويقول لهم بلغنى أن فيكم من يدعى كذا ٠٠ وكذا ، ويذكر المفسد ٠٠ ويحذرهم منها ولا يعين أحدا منهم (١) ٠

وقد ركزت التربية الاسلامية على الوفاء للمربي ٠٠ فالابن يجب أن يبر بوالديه برا تاما ٠٠ وعندما يهرم الوالدان في آخر العمر ، فعلى الابن أن يتحملهما ولا يضجر من طلباتهما ٠٠ ولا يزجرهما ببخس القول ، ويجفاف المعاملة ٠٠ انما عليه أن يقول لهما قولا كريما ٠٠ لينا ٠٠ فيه وفاء ٠٠ واحسان ٠٠ وتكريم لهما لانهما قد ربياه صغيرا ٠٠ وأن يتواضع لهما بلين الجانب والايتار ٠٠ وأن يكون شفوفا ٠٠ رحاما بهما ٠٠ لان ذلك من حقهما وفضلهما عليه ٠

والاحسان ٠٠ وخفض الجناح ٠٠ والتواضع ٠٠ والايتار ٠٠ والقول الحسن ٠٠ ثمرات للتربية الحسنة ٠٠ والاخلاق القويمة ٠

ولكن يجدر بنا أن نتساءل هنا ٠٠ ايجوز اتباع المربي

(١) الغنية - الامام عبد القادر الجلاني ٠ ج١ ص : ١٦٨ - ١٦٩ ٠

المنحرف ؟ وتأتى الاجابة على هذا التساؤل فى الآية الكريمة عن
لسان فرعون :

« قال ألم نربك فينا ولبثت فينا من عمرك سنين »
« الشعراء : ١٨ »

ويأتى رد موسى - عليه السلام - :

« وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل »
« الشعراء : ٢٢ »

كان فرعون يشرك بالله .. ويؤله نفسه ، ويقتل الذكور
من المواليد .. لذلك أبى موسى - عليه السلام - أن تسمى تربية
فرعون له نعمة عليه .. لان سبب التربية الاضطرار ، اذ أن
لجوء موسى - عليه السلام - الى بيت فرعون ، راجع الى قتله
الاطفال الذكور فألقته أمه فى اليم لينجو من القتل ، قال الى بيت
فرعون ، ولولا ذلك لتربى بين والديه .

والتربية الصحيحة .. تعلم الجلد .. والمثابرة ..
والصبر .. وحفظ اللسان .. والايتار .. والاحسان ..
والرحمة .. وقد قال حكيم من الحكماء أن الخصال التى يعرف
بها الجاهل هى :

أولا : الغضب بدون سبب .. أى يغضب الانسان على
الانسان والحيوان بل على كل شىء يرى نفسه مكرها عليه ..
مضطرا فيه لمخالفة هواه .

ثانيا : الكلام بغير نفع .. لان العاقل لا يتكلم كلاما
لا منفعة فيه .

— ٣٢٠ —

ثالثا : افشاء السر فى كل مكان ، وافشاء ما يجب ستره •
رابعا : الثقة بكل انسان • لان العاقل يقظ • فطن •
خامسا : أن لا يعرف صديقه من عدوه • فالعاقل يعرف
صديقه ويطيعه ويعرف عدوه فيحذره •

ولقد مدح رجل أحد التابعين • فضاقه ذلك وقال له : لم
تمدحنى ؟ • أخبرتنى عند الغضب فوجدتنى حليما ؟ •

قال : لا !!

قال : أخبرتنى فى السفر فوجدتنى حسن الخلق ؟

قال : لا !!

قال : أخبرتنى عند الامانة فوجدتنى أمينا ؟

قال : لا !!

قال : لا يحل لاحد أن يمدح أحد ما لم يجربه فى هذه
الاشياء الثلاثة •

الاسلام ينظر اذن الى التربية نظرة واقعية • عميقة •
ونافذة ، ليبصر بنظام صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان •
يتعدى حدود الواقع • بل يتجاوز حدود الدنيا • ليوصلها
بالحياة الباقية •

فالتربية الاسلامية شاملة • جامعة • تعالج الانسان
ككل • كوحدة مع الاهتمام بالفروق الفردية والجسيمة
والمميزات العقلية والخلقية • فى العلم والعمل جميعا • كما
تنظر الى أصحاب التشوهات والعاهات الخلقية نظرة كلها رحمة
وشفقة • يقول الله تعالى :

« ليس على الاعمى حرج • ولا على الاعرج حرج • ولا

على المريض حرج .. ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ..
أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت
اخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم
أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتكم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم
جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على
أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة »

« النور : ٦١ »

تبين هذه الآيات الكريمة .. العلاقات الانسانية التى يجب
أن تربط بين الانسان والانسان وهى أصل من أصول التربية
النفسية فى العلاقات الفردية الاسرية .. فليس هناك حرج على
الاعمى أو الاعرج أو المريض .. كما ليس على الصحيح حرج
أن يأكل فى أسرته أو عند أقربائه من جهة الام أو من جهة الاب
.. أو العم والعمة والخال والخالة .. وكذلك فى بيوت
الاصدقاء المخلصين .. اذا لم يكن فيها حرمت .. وذلك بعد
استئذان رب البيت

والناحية الثانية فى التربية الاخلاقية .. الاستئذان عند
الدخول على البيوت .. وتحية أهلها بالسلام .. لأن بين الناس
علاقة وثيقة ورابطة لا تنفصم تتمثل فى القرابة والدين ..
وهذه التحية مباركة بها تطيب النفوس .. وتزداد المحبة
والوئام ..

فان الله تعالى يرى أن الانسان الذى يربى تربية كريمة ..
يخرج نسلا كريما .. لقوله تعالى :

« والبلد الطيب يخرج نباتا باذن ربه .. والذى خبث

« الاعراف : ٥٨ »

لا يخرج الا نکدا »

البدايات فى العملية التربوية .

هل يمكن أن تكون النهاية كالبداية ، أم أن البداية
شئ والنهية شئ آخر ؟ !

واذا كانت البداية أفضل من النهاية فيا شقاء الانسان ،
واذا كانت النهاية أفضل من البداية فهل يكتب له النجاة ؟ !

المولود يولد على الفطرة السليمة ، ويقوم الأبوان بدور
خطير فى اكتسابه للأوصاف المحمودة ، أو الأوصاف المذمومة ،
ويطبعانه على العادات الحسنة أو السيئة ويدلله أو يقسوان
عليه ، فينشأ نقياً تقياً أو مائعاً أو متصبباً أو فظاً غليظ
القلب

فعملية المحاكاة تلعب دوراً أساسياً فى بداية العمر ،
وخاصة فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، وإذا لم يتكلف
الطفل الأعمال والأفعال الحسنة ، ترسبت فى طبعه الرغبات
الذاتية ، والنزعات الشخصية ، وأقبل بشره على تلبية متطلباته
واشباع حاجاته ، دون اهتمام بتعارض ذلك مع مصالح
الآخرين

وتكمن الخطورة فى التغاضى عن تصرفات الطفل الشاذة ،
والتغافل عن سلوكه السيئ ، بدعوى أنه ما زال طفلاً لا يفقه
ولا يعقل ، وإن الزمن وحده كفيل بأن يعلمه السلوك السليم . .

وتؤثر البيئة ، بما تشتمل عليه من رفاق وأصدقاء
وجيران ، على حياة الطفل النفسية كما تؤثر على تربيته
الخلقية ، فان دور الشارع والمدرسة ، والنادى الاجتماعى

والرياضى والثقافى ، من الأهمية بمكان بحيث تكمل دور
الأبوين فى العملية التربوية ...

وإذا كانت البدايات فى العملية التربوية غير سليمة ، وغير
متناسقة ، ترتب على ذلك وجود نقص ظاهر ، يختلف من حيث
الخطورة فى تكوين الشخصية غير السوية ..

ولذلك كان التركيز منذ الصغر ، على تربية الطفل فى ظل
المفاهيم والقيم الإسلامية ، ضرورة لا غنى عنها ، اذ عن طريقها
يضمن الأبوان ، كما يضمن المجتمع المسلم نشوء الطفل على هدى
الدين القيم والشريعة الغراء ..

وان الجهل بأصول التربية الإسلامية ، يجعل من الصعوبة
بمكان ، تكوين الشخصية الإسلامية ، التى هى عماد الأمة ، فلو
افترضنا وجود تقصير فى تربية الطفل ، تربية اسلامية ، وغرس
القيم الدينية فى نفسه ، فانه مما لاشك فيه سيتزعزع
كالحشائش الضارة ، فلا تفيد نفسها ولا غيرها على السواء ،
وربما تكون سامة تضر من قاده سوء حظه الى التقرب منها ..

وهكذا الفتى الذى ينشأ بدون رعاية وتوجيه ، فانه بالكاد
يستطيع أن يفرق بين السلوك السليم ، والسلوك السيئ ،
والحسن والقبيح فى الأعمال والأفعال ..

ورب قائل أن هناك من الأطفال اليتامى ، أو هؤلاء الذين
لم يلقوا رعاية أو توجيه فى أسرهم ، نتيجة تغيب الأب المستمر
أو طلاق الأم ، أو زواجها بزواج آخر غير والد الطفل ... رب
قائل يقول ، أن هؤلاء الأطفال ، برغم ظروفهم الاجتماعية
القاسية ، يصبحون فيما بعد من المسلمين الصالحين ..

ونحن لا نشك فى وجود هذا النفر من الناس ، وقد أصبحوا أفضل خلفاء ، وأعظم اثراء للدين والمجتمع ، من هؤلاء الذين نشأوا فى ظل الأبوين ، ولقوا الاهتمام والرعاية البالغة . .

الا أنه قد نسى هؤلاء ، أن من الآباء والأمهات من لم يحسنوا تربيتهم لأولادهم ، سواء بالتدليل المفرط أو القسوة الفاشمة ، بحيث يخرج الطفل الى المجتمع وقد فقد المعايير الصحيحة ، التى يحكم بها على الفاسد من الصحيح من الأمور . . وربما يقع فى شرك جهله فيرتكب الجريمة ، وينال القصاص ، وقطعا فان مسئولية الآباء الذين أهملوا فى عملية التربية ، مسئولية مشتركة مع ما أقدم عليه الأبى من الانحراف عن جادة الصواب . . .

أما الذين فقدوا الرعاية الأبوية ، ومع ذلك نشأوا على حب الخير وأعمال البر ، والمسابقة فى الاحسان ، وأستمسكوا بعروة الدين الوثقى ، فان هؤلاء قد صادفهم الحظ ويسرهم الله للمقاء بعض أفاضل المربين ، فكانوا بمثابة البدلاء لمهمة الأبوين . وهم بمثابة الجنود المجهولين ، الذين قاموا بتوجيه ورعاية هؤلاء الأطفال ، الذين لم يسعدهم الحظ فى الرعاية فى احضان الأسرة . . .

من اليتامى وشبه اليتامى ، من تخرجوا عن مدرسة الحياة ، وقد صقلت معادنهم ، ونضجت تجاربهم ، وتوصلوا الى طريق الحق والرشد والصلاح ، بما يسره الله لهم ، من أناس مخلصين أحضنهم ، حتى شبوا عن الطوق . .

أما التعساء من الأطفال ، فهم من عدموا العطف والحنان
والرعاية والتوجيه ، فتخبطوا فى وادى الحياة ، واصطدموا
بأشواكه وقفر نباته فقصت قلوبهم ومرضت نفوسهم ،
ومالوا للعدوان واستحبوا الكفر على الايمان تمردا وسخطا ...

لذلك أنه من سخف القول ، الزعم بأن الذى ينشأ بلا أسرة
بعيدا عن رعاية الأبوين ، يمكن أن يصبح عضوا فاضلا خيرا فى
المجتمع ، لأنه يصبح كالبذرة التى لم تلق من صاحبها عناية
أو رعاية ... فهل يمكن أن تصبح فيما بعد شجرة طيبة ..

إذا وجدت من يرعاها غير صاحبها الأصلي فانه من الجائز
أن تتزعزع وتصبح شجرة طيبة ... أما إذا فقدت المساء
والرعاية تعرضت للجفاف والفساد والافساد ..

لا بديل اذن للأسرة ، فان مهمة الأبوين تتكامل بعضها مع
بعض ، بحيث تسفر عن ثمار طيبة فى تنشئة الانسان الصالح ،
وهذا لن يتأتى أيضا الا اذا كان الوالدان من أصحاب القيم ،
والاخلاق الفاضلة ، فضلا عن تمسكهما بأهداب الدين ...

ويجدر بنا أن نناقش الآن تهافت المثل الدارج الذى يقول :

« يخرج من ظهر العالم فاسد ، ويخرج من ظهر الفاسد
عالم »

لا نشك أن الله على كل شىء قدير ، لكنه تعالى حضنا على
التمسك بالقيم العليا ، ونبتد الفساد والافساد ، وأعلمنا أن خير
شىء فى الدنيا هو العلم ، وأنه صنو الخير ، فكيف نزعم أن
الطفل الذى ينشأ فى بيئة صالحة ، يغترف الأبوان فيها من

مناهل العلم ، ويحاكى الأطفال الآباء فى طلب العلم والتقرب الى الحق . . . كيف يمكن أن نزعّم أن الطفل فى هذه الأسرة ، يمكن أن يخرج الى الحياة فاسدا مفسدا . .

ان التبرير الوحيد لانحراف الطفل ، فى أسرة زعيمها من العلماء ، هو تقصير هذا الأب أو اهماله ، أو زواجه المتكرر مع عدم العدل بين الزوجات والأولاد . . . وبذلك لا يمكن أن يقال للأب المهمل أو الغير عادل أو المقصر فى حق أولاده ، أنه عالم على الحقيقة . . الا أنه يمكن أن يكون للأب عذره ، اذا لم يتسنى له تربية ابنه لظروف خارجة عن ارادته ، كوفاته مثلا ، وقيام الأم الجاهلة برعايته ، فتفسده بجهلها وقصور فهمها وطيش عقلها . .

أما القول بأنه يخرج من ظهر الفاسد عالم ، فهو قول لا يقل سخفا عن سابقه ، اذ أنه كيف يمكن أن تترعزع البذرة فى أرض فاسدة التربة ، وغير صالحة للزراعة ، وبالمثل كيف ينشأ الطفل فى جو فاسد ، ثم يخرج من هذه البيئة الفاسدة عالما . .

لا يمكن أن يتم ذلك الا اذا استأصل هذا الفساد بشكل أو بآخر مثل أن ترعاه أم فاضلة ، أو يربى الطفل بعيدها عن الأب الفاسد أو يموت هذا الفاسد فلا يكون هناك تأثير ضار فى تربية الطفل .

أدب النفس فى الاسلام

لا يقر الاسلام المربى الذى افتقد هو نفسه التربية الاسلامية الصحيحة ، فلا يقبل الدين القيم مربيا للمسلمين من غير عقيدة الاسلام ، وبذلك لا يصح أن يربى غير المسلم مسلما ، فالتربية تعليم وتوجيه وارشاد ، وتوعية وغرس للمفاهيم وتلقين للآداب ، وتبصير بالقيم والأخلاقيات والمثل العليا ...

ولكل أمة شرعتها ومنهجها فى الحياة وأسلوبها فى التربية والتعليم ، ولكل عقيدة مفاهيمها وغاياتها ، وأهدافها وآدابها وسلوكها ، ونظرتها للدين والدنيا لذلك فان المربى الذى تربى فى مجتمع لا يحمل راية الاسلام ولا يؤمن هو نفسه بشريعة الله ودينه القيم ... لا يمكن أن يسلم اليه فلذات أكبادنا ، ليشوه عقيدتهم ، ويفتنهم بزخرف القول ، فيحاكونه ويقلدونه لحسن ظنهم به ، وثقتهم فى علمه واعتقادهم فى خبرته ، وهم لم يبلغوا بعد السن ، التى تؤهلهم للحكم على فساد من يلقنهم به من صحته ...

فالتربية نوع من الولاية على الصغير ، والمربى بمثابة الأب الروحى له ، فيصبح المعلم والموجه والقدوة ، فاذا كان فاسد الطبع ، منحرف الأخلاق ، مشركا أو ملحدا أو صاحب عقيدة غير الاسلام .. سعى بوعى أو بغير وعى ، عن قصد أو بدون قصد الى غرس مفاهيمه ومثله واتجاهاته ، وأفكاره وعقائده ، فى نفس الصغير ، فيخرج الى الحياة وقد اهتز ايمانه ، وتذبذبت قيمه وافتقد مفاهيمه ، واحتار بين ما تعلمه من والديه ، وما لقنه اياه معلمه ومربيه ... ونشأ بذلك ذا شخصية

متمزقة ، وفكر ملوث ، وسلوك متناقض ، وعقلية متشككة
مرتابة فى كل شىء حولها

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ،
بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم «
« المائدة : ٥١ »

لقد قامت المدارس التبشيرية فى مصر وسوريا ولبنان ،
وبعض البلدان الاسلامية ، بمهمة التربية والتعليم ، لأبناء
الأسر المسلمة ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، ووضعت المناهج
الدراسية التى توافق مخططاتها ، وذلك لغرض خبيث لئيم ، وهو
تشكيك المسلم فى عقيدته ، ومحو قيم الاسلام وتعاليمه من
نفوس المؤمنين ..

طفت اذن المدارس التبشيرية بهذا النوع من الاستعمار
الفكرى ، على عقول أبنائنا وبناتنا بغية تشويه حقيقة الاسلام
فى أهله ، عندما فشلت فشلا ذريعا فى تنصير المسلمين ..
وأغوائهم للدخول فى النصرانية ...

ولقد نشأ جيل من الشباب للأسف الشديد ، ذا شخصية
مزدوجة ، وعقيدة مختلطة وعقلية مشتتة ، وقد تأثر بالتربية
النصرانية ، وتعاطف مع مناهجها وأفكارها ، يدافع عن آرائها
ومعتقداتها أكثر من دفاع المبشرين أنفسهم عنها ...

ان الآيات القرآنية تشتمل على نصوص صريحة ، لا تأويل
فيها ، تأمر المؤمنين ألا يجعلوا من الكفار وغير المسلمين
أولياء .. منها قول عز من قائل :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »
(آل عمران : ٢٨)

« الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،
أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا »
(النساء : ١٣٩)

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا
ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء »
(المائدة : ٥٧)

من هذا المنطلق القرآنى يتوجب علينا أن نوجه ثقافتنا ،
وأن نتصارع بدون حرج فى أمور تعليم أبنائنا وبناتنا ،
ونخطط بوعى سليم وإدراك عميق للنظم التربوية التى أمرنا
تعالى بتطبيقها •• وجعلها أصولا لثقافتنا ومفاهيمنا
وأخلاقياتنا ••

أما الزعم بأننا متخلفون عن الشرق الشيوعى والغرب
الوجودى ، فهذا ناتج بالدرجة الأولى من عدم ثقتنا فى أنفسنا
وعلمائنا ومفكرينا •• الأمر الذى يجعلنا فى اضطراب دائم
للاستعانة بغير المسلمين ، ليضعوا لنا مخططاتنا التربوية ،
ونظمنا التعليمية ••• ونسلم لهم القيادة للإشراف والرقابة على
مدارسنا ومعاهدنا ومؤسساتنا الثقافية •

والغريب أننا نتوهم أننا نستفيد الكثير من أصحاب
الحضارة الغربية ، عندما ننقل نظمهم ومفاهيمهم ومناهجهم ••
والحق أننا نبذل الجهد والمال ، وكأننا نضع كل ذلك فى جراب

- ٣٣٠ -

ممزقة ، وأوعية متهدلة •• فلا نحصد غير العرق والدموع ••

علينا اذن أن نرجع الى تراثنا ، وأن نراجع مناهجنا
التعليمية من خلال منظار الشريعة السمحاء •• وأن نتفحص
ما يقدم اليها من أفكار وآراء ، فحصى العالم اللبيب ، حتى
يتخرج أولادنا ، وقد استعدوا بسلاح الايمان لمواجهة الحياة ،
وتفهموا المصلح من المفسد ••

ولاسبيل الى ذلك الا بالتربية النفسية الصحيحة •••

اختيار المربي الصالح

يشبه الغزالي الانسان في علمه ، كحاله في جمع الأموال ،
ويقسم طالب العلم الى أربعة أحوال ، كما يقسم صاحب المال
الى أربعة احوال (١) .

فصاحب المال اما أن يكون مستفيدا بالمال ، فيكون مكتسبا
به ، أو مدخرا لما اكتسبه ، فيكون غنيا عن السؤال ، أو منقفا
على نفسه فيكون منتفعا به ، والرابع أن يكون باذلا لغيره ،
فيكون سخيا متفضلا ، وهذا هو أشرف أحوال صاحب المال .

وكذلك العلم ، فاما ان يقتنى الانسان العلم ، كما يقتنى
المال فهو في حال طلب العلم واكتسابه ، ثم أن هناك حال لتحصيل
العلم يغنى عن السؤال ، ثم حال التفكير فيما حصله من علم
والتمتع به ، ثم حال ارشاد وتبصير ، وهو الحال الرابع ، وهو
أشرف الأحوال .

والعلم عند الامام الغزالي هو علم وعمل ، فمن علم وعمل .
ثم علم العلم ، فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات ، وهو
بمثابة الشمس التي تضيء لغيرها ، وهي مضيئة في نفسها .
ويصف الغزالي هذا العالم بأنه كالمسك ، الذي يطيب غيره وهو
طيب .

وأما الذي يحصل العلم ولا يعلم به ، فمثله كمثل الكتاب
الذي يفيد غيره وهو خال من العلم وكالمسن الذي يشهد غيره
ولا يقطع ، أو كالابرة التي تكسو غيرها وهي عارية .

ويرى الامام الغزالي ، ان الذى يشتغل بالتعليم ، فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما ، وان عليه أن يحفظ آداب العلم ووظائفه ، وقد حددها الامام الغزالي فى الوظائف الآتية :

١ - الشفقة بالمتعلمين وهذا اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله انى أنا لكم مثل الوالد لولده .

« أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة »

(أبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة)

٢ - أن يكون المعلم مقتديا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يطلب على افادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، وطلبا للتقرب اليه .

٣ - ان لا يتوقف عن نصح المتعلم ، وأن يمنعه من التصدى لرتبة لا يستحقها ، وأن ينبهه أن الغرض من العلم ، هو التقرب من الله ، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، فان العالم الفاجر ، يفسد أكثر مما يصلح .

٤ - وأما الوظيفة الرابعة ، وهى أدق الوظائف فى التربية والتعليم ، وهى أن على المعلم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، ما أمكن ذلك ، بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجراءة .

٥ - ألا يقبض فى نفس المتعلم العلوم الأخرى ، التى لا يدرسها له .

٦ - أن يبين له ما يقدر على فهمه ، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه

- ٣٣٣ -

عقله ، فينفره من العلم ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء ، أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم » .
(عن أبي داود من حديث عائشة)

ان على المعلم ، أن يلقي على مسامع المتعلم ، الجلى الواضح ، ولا يذكر له أن وراء ذلك نقدا أو رأيا مخالفا يدخره فيما بعد ، فان ذلك يصيب المتعلم بالفتور ، وفى الرغبة فى الجلى الواضح ، ويشوش عليه قلبه ، أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يناقض قوله فعله ، ولا يكذب كلامه سلوكه ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار ، وان ارباب الأبصار أكثر من ارباب البصائر ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشده ، وكل من تناول شيئا ، وقال للناس هذا سم مهلك سخر الناس منه ، واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه .

الفصل الثانى

للمسلم آداب وأخلاق تعز على غيره معرفتها ، ويفتقر غير المسلمين اليها ، فهى من الله تعالى لرسوله ، ومن الله ورسوله الى الناس أجمعين ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه :

« أدبني ربي فأحسن تأديبي »

رواه ابن مسعود

فأدب المسلم فى القول والفعل والسلوك والحياة ، وهذه الآداب التى يتميز بها المسلم تفرقه عن غيره ، بحيث يمكن أن يحكم المرء عليه من مجرد ملاحظة آدابه وسلوكه وأخلاقه .

ومن هذه الآداب العظيمة التى يتمثل بها المسلم ، الحياء ، وحفظ الأسرار والوفاء بالمهد ، وانجاز الوعد ، والمحافظة على أفعال البر وأعمال الخير ، واستحباب طيب الكلام مع الآخرين ، وطلاقة الوجه عند لقاء الأغيار ، والأصدقاء ، واستحباب الاصفاء الى الجليس والضيف ، ما دام الحديث ليس بحرام ، والاقتصاد فى الوعظ والتوجيه والارشاد ، والجلوس بوقار وسكينة ، واکرام الضيف واستحباب التبشير والتهنئة ، ووداع الصاحب والصديق عند فراقه ، والدعاء له بالخير ، والاستخارة والمشاورة فى الملمات .

كما أن من آداب المسلم ، التسمية عند أول الطعام ، والحمد لله فى آخره ، ومن أدبه ألا يعيب طعاما ، بل يستحب مدحه ، كما أنه لا يتقدم الى الطعام الا من جانب الطبق الذى يقدم فيه طعامه وليس من وسطه ، كما أنه يستكره أن يأكل متكئا ، ويستحب أن

يأكل بثلاثة أصابع ، كما أنه للشرب آداب ، فيستحب عند الشرب أن يتنفس ثلاث خارج الاناء الذى يشرب منه ، ويستكره الشرب من فم الاناء مباشرة ، كما يستكره النفخ فى الشراب ، ويستحب أن يكون ساقى القوم آخرهم شربا *

وأما فيما يتعلق بأدب اللباس ، فيستحب الثياب البيضاء ، والتوسط فى اللباس ، ويحرم على نفسه لباس الحرير بالنسبة للرجال ، الا أن يكون به مرض جلدى *

وللنوم أيضا آداب فهناك آداب فى الاضطجاع وآداب المجلس والجلوس *

كما أن للمسلم آداب فى السلام ، ولافشاء السلام فضل ومكرمة ، ويستحب اعادة السلام والبدء به *

وللمسلم قواعد وأخلاق فى الاستئذان ، وآداب فى الدخول والخروج ، فيجب عليه الاستئذان عند دخول بيوت الأغيار ، وأن ينتظر حتى يؤذن له بالدخول ، أو يرجع اذا لم يؤذن له *
وللمسلم آداب فى عيادة المرضى ، فعليه أن يسأل عن المريض ، وعن حاله وعما اذا كان أهله يحتاجون الى معاونة أو مساعدة *

كما أنه يجب على المسلم أن يودع الميت ، ويستحب أن يصلى عليه صلاة الجنازة ، وأن يحضر دفنه ، وأن يلحق المحتضر لا اله الا الله ، وألا يذكره الا بخير ، وأن يعظ المسلمين عند القبر وأن يتصدق على الميت * وفى السفر آداب عظيمة ، ويستحب فيه الرفقة والدعاء والصلاة عند السفر ، كما أنه عند رجوعه من

- ٣٣٧ -

السفر ، يستحب أن يقدم على أهله نهارا ويستكره أن يقدم عليهم ليلا ، كما يحرم سفر المرأة بمفردها •

ويحرم على المسلم الشفاعة في الحدود ، كأن يطلب من القاضي تبرئة القاتل والسارق ، كما ينهى عن التغوط في طريق الناس أو التبول في الماء الراكد •

ومن آداب المسلم كراهية تفضيل الأب لأحد أولاده في الهيئة أو المعاملة ، أو صرف المال في غير وجوهه الشرعية ، كما ينهى عن اشهار السلاح على مسلم أو تخويله أو نحو ذلك •

ومن الآداب الاسلامية كراهية خروج المسلم من المسجد بعد الأذان وقبل أن تنتقد الصلاة •

ويكره في الاسلام الخروج من مدينة أو بلدة وقع بها الوباء ، كما انتساب الابن لغير أبيه •

ومن اخلاقيات المسلم الكرم والجود ، والقناعة والاقتصاد في المعيشة والانفاق ، والنهي عن البخل والشح ، ويستحب الايثار والمواساة ، وكذلك التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يثرك به المسلم في دنياه وآخرته •

كما أن من الآداب الاسلامية ، توقير العلماء والكبار ، وأهل الفضل والتحذير من ايداء الصالحين ، واستحباب العزلة عند انتشار الفساد في المجتمع •

كما يحرم على المسلم الكبر والاعجاب بنفسه ، ويستحب له احتمال الأذى والعفو والاعراض عن الجاهلين •

كما أن من الآداب الاسلامية وجوب طاعة ولاية الأمور في غير معصية الله .

وتلك الآداب التي سنذكر بعضها في الصفحات التالية بالتفصيل ، هي جواهر وفصوص نادرة في الأخلاقيات والمعاملات بين المسلم وأخيه المسلم ، وبين المسلم وغير المسلمين .

فالمسلم قدوة حسنة لغيره ، فاذا شاهد غيره مكارم أخلاقه ، وأدبه ، حاكاه وقلده وتطبع بطباعه ، واستحسن الأخذ عنه ، وربما يصل غير المسلم الى التصديق بدعوته والايمان بالله ورسوله .

ومن القصص المعاصرة ، التي تحكى عن الآداب الاسلامية ، أن فيلقا من الجيش التركى ، أرسل في حرب كوريا ، فكان الأتراك يقسمون أنفسهم عند مواقيت الصلاة ، فاذا ما أذن المؤذن للصلاة ، دخل قسم منهم الى الصلاة وبقي قسم فى مواجهة الأعداء ، حتى اذا انتهى القسم الأول من الصلاة ، وقف للدفاع ، ودخل القسم الآخر الى الصلاة .

وتعجب الكوريون من هذه الآداب الاسلامية حتى أن بعضهم وهم الأعداء ، كانوا عندما يسمعون الأذان ، وتكبيرة الصلاة ، وترتيل القرآن ، يتأثرون غاية التأثير ، ويذرفون الدموع .

وعندما انتهت الحرب ، تقرب بعضهم الى الأتراك ، ليتعلموا شيئا من أمور الدين ، واذا بعدد غفير منهم يدخل الى الاسلام (١) .

(١) تقابل المؤلف مع عديد من هؤلاء الكوريين ، الذين أسلموا ، وذلك بمقر جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، وذكر له بعضهم سبب دخوله الاسلام ومنها هذه الرواية .

ان الآداب الاسلامية قميينة بأن تكون هى الرائدة لأخلاقيات هذا العصر لما تشتمل عليه من فضائل وما تتضمنه من قواعد فطرية ، تواكب العقل الرشيد والنفس المستقيمة ، والقلب السليم .

فتحية الاسلام ، وهى السلام ، لا نجد لها مثيلا فى الآداب الغربية . فاذا قابل انسان انسانا ، فى فرنسا المتحضرة ، لا يبادلہ السلام الا اذا كان هناك بينهما منفعة ومصلحة متبادلة . حيث غلبت على النفوس المادية المطلقة ، وانمحت أو اصر المودة والمحبة بين الناس نتيجة للتكالب على الرغبات ، الأنانية ، والمطالب الشهوية .

فما أحرى المسلمون أن يرجعوا الى هدى نبيهم ، ويعملوا بأمر الله وينتهوا عما نهى عنه ، ويتمثلوا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو القدوة الطيبة لكل زمان ومكان ، ولا يستطيع أحد من الشرقيين أو الغربيين ، المعاصرين أو القدماء ، أن ينكر أن أخلاق الرسول وآدابه ، هى أفضل الأخلاق والآداب فى كل عصر .

ففى كتاب (الخالدون مائة : أعظمهم محمد) ، يظهر كاتبه وهو أوربى غير مسلم ، بعد دراسة مستفيضة للعظماء والعباقرة وبعد دراسته لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتهى الى أنه أعظم شخصية فى العالم ، القديم والحديث ، بلا منازع ، وهذه النظرة محايدة من رجل ليست عقيدته الاسلام .

(١) آداب المائدة :

١ - طريقة الجلوس :

يستقى المسلم آدابه فى هيئة الجلوس للطعام ، من القدوة المباركة متمثلا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .
ويروى (١) عنه قوله :

« لا أكل متكئا ... وقال : انما أجلس كما يجلس العبد
وَأَكَلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ »

وروى ابن ماجه فى سننه : أن الرسول صلى الله عليه وسلم
نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه .

وقد فسر الاتكاء الذى يقصده الرسول صلى الله عليه وسلم
على أنه الاتكاء على الجنب ، فانه يمنع مجرى الطعام الطبيعى ،
ويعوق الغذاء عن سرعة نفوذه الى المعدة ، ثم أن الاتكاء على
الجنب يضغط على المعدة فلا يسهل فتحها للغذاء ، بالاضافة الى أن
المعدة تميل ولا تبقى منتصبه ، الأمر الذى يعوق وصول الغذاء
اليها ...

وهذا الوضع عند الأكل ، وهو الوضع الذى يشبه جلوس
العبد ، فى مقام الرب ، معناه الأدب مع الله الذى انعم عليه بهذه
النعم التى يتغذى منها ويصح بها بدنه ، وبالإضافة الى ذلك أن
هذه الجلسة هى جلسة طبيعية يكون الجسم فيها مستعدا لقبول

(١) زار المعاد - ابن القيم الجوزية ج٣ ص ١٣٧ وما بعدها

الطعام حيث يكون منتصباً انتصاباً طبيعياً .. كما تكون آلات الغذاء وآلات النفس فى وضعها الطبيعى أيضا ...

فأدب الطعام يستهدف الصحة البدنية والنفسية جميعاً ..

٢ - طريقة الأكل :

وقبل أن يبدأ المسلم طعامه يذكر اسم الله تعالى فان نسى فعلية أن يذكر : بسم الله أوله وخيره (١) ، من الآداب الإسلامية فى المآكل ، استخدام الأصابع الثلاث ، وهذا أنفع للأكل ، فان الأكل بأصبع واحدة أو أصبعين لا يستلذ به الأكل ولا يشبعه (٢) الا بعد طول وقت ، ولا تفرح المعدة ولا آلات الطعام بما ينالها فى كل أكلة .

كما أن الأكل بالأصابع الخمس كلها ، يوجب ازدحام الطعام على المعدة ، وعلى الآلات (كالأسنان والفم) وربما أنسدت الآلات من كثرة الطعام ، فأصاب الأكل بأذى عظيم ، أو دفعت الآلات الى المعدة الطعام الكثير ، الذى لا تقوى على احتماله ، فلا يجد الأكل أى لذة فى أكله .

والغريب أن الأوروبيين بخاصة ، والأمريكيين بعامة بدأوا يستحسنون الأكل بأصابعهم الثلاث ، بدلا من استخدام السكاكين والشوك والملاعق حيث ثبت لهم أن هذه الأدوات المعدنية ، يعلق بها كثير من الجراثيم مهما نظفت ، ومن ثم تنتقل بواسطتها الى المعدة فتسبب لها الأمراض المتعددة .

(١) المرجع السابق

(٢) رواه أبو داود الترمذى مع تغيير فى اللفظ وقال حديث صحيح حسب

فى أدب الشراب :

كان من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم الشرب قاعدا ، لكن صبح عنه أنه شرب قائما ، ومعنى ذلك أن الشراب جائز مع الوقوف ، لكن يستحسن الشرب مع الجلوس *

وللشرب فى حالة الوقوف أضرار ، منها أن لا يرتوى به انسان ، لما أن الماء لا يستقر بالمعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء ، بل ينزل سريعا الى المعدة ، مما يخشى منه أن يبرد جدارها ، ويسرع الى النفوذ الى أسافل البدن ، وهذا ما يضره ، بالشارب * لكنه اذ شرب قائما لحاجة أو ضرورة ، لم يضره ، ولا عبره بالعوائد فهى طبائع ثوانى ، ولها أحكام أخرى *

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اذ شرب تنفس ثلاث ، وذلك اروى للمرء ، والتنفس يكون خارج القدر ثم يعود مرة أخرى الى الشراب *

ولهذه الطريقة فى الشرب فوائد جمة هامة ، وهو الرى من شدة العطش ، اذ التوقف يهيا للمعدة الملهبة دفعة دفعة ، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت عنه الأولى ، والثالثة ما عجزت عنه الثانية * وهذه الطريقة أسلم لحرارة المعدة ، وأبقى عليها من أن يهجم عليها الماء البارد دفعة واحدة ، فانه لا يروى المعدة لمصادفته لحرارتها *

كما يخشى منه أيضا فساد خراج المعدة والكبد ، والوقوع فى أمراض رديئة خصوصا بالنسبة لسكان المناطق الحارة أو فى زمن الصيف *

(٢) أدب اللباس

لقد كان لباس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، فلا يطيل أكمام الازار أو القميص ، ولا يقصره عن الحد (١) المعقول .

كما كان يستحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللباس الأبيض ، نظرا لأنه قليل الحمل للدنس ، ويظهر فيه بوضوح الوسخ اذا علق به شيء منه . ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، فيما يروى عنه قوله :

«البسوا من ثيابكم البياض فانها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم»

(عن ابن عباس رضى الله عنه) (٢)

لكن بعض الصحابة رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى حلة حمراء ، وفى ذلك يقول الصحابى البراء رضى الله عنه :

« ولقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئا قط أحسن منه » (٣)

كما أن بعض الصحابة قد رأى الرسول فى عمامة سوداء ، يخطب بها الجمعة ، يقول : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، وعليه عمامة سوداء .

« رواه مسلم »

(١) زاد المعاد . الجزء الثالث ص ١٤١ - ١٤٢ - المطبعة المصرية
 (٢) أورد هذا الحديث الامام النووى فى رياض الصالحين وروى الحديث ابو داود الترمذى وقال عنه حديث حسن .
 (٣) هذا الحديث متفق عليه .

استحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الثياب
البيض ، لكنه لبس العمامة السوداء ، والقميص الأحمر كما
لبس الشعر والصوف وغيرها . . .

والمستحب شيء يلبسه في العادة ، كالقميص الأبيض ، إلا
أنه لا يمنع المسلم من لبس قميص بلون آخر ، بحسب الظروف
والحاجة إليه ، ما دام لا يخرج عن حد الاعتدال .

فان من الآداب المرعية في اللباس ألا يسترخي اللباس
فيكون طويل الأكمام بشكل يلفت النظر ، أو يكون قصيرا
يظهر العورة ، أو يخدش الحياء العام ، كما لا يكون اللباس مما
يبعث على الخيلاء كلبس الجبابة ، وفي هذا ورد عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قوله :

« لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا »
«متفق عليه»

وهذه من الآداب الرفيعة لأن الذي يجر ثوبه لابد أن يسير
في خيلاء حيث ينشغل به ، لأن المبسل ازاره (ثوبه) مثله كمثل
المنان والمسرف والمنفق سلعته بالحلف الكاذب . .

التوسط في اللباس :

والقاعدة الاسلامية في اللباس ، التوسط فيه ، فالله
سبحانه وتعالى يريد أن يرى أثر نعمته على العبد ، فلا يشح
ويبخل ويقتصر في لباسه ، كما أنه تعالى لا يحب الجبارين
والمفتريين ، والذين يسرون في خيلاء في الطريق العام ،
بملابس قضاضة .

والأمر كذلك بالنسبة للحرير ، فقد روى الفاروق عمر
رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

« لا تلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى
الآخرة »

(متفق عليه)

وفى حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى » (١)

ومداومة لبس الحرير تمتت الرجولة فى الذكر ، وتجعله
يتشبه بالنساء فى مشيه وسلوكه ، لما فيه من نعومة الملبس ،
الأمر الذى يؤثر غالبا على سلوك الرجل *

لكن قاعدة تحريم لبس الحرير على الرجال ، فيها
استثناء ، اذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد سمح
للسحابى عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك للزبير رضى الله عنهما
فى لبس الحرير وذلك لاصابتهما بحكة (٢) ، أى حساسية فى
الجلد كانت بهما * وهذا يدل على اليسر فى القواعد الشرعية *
والآداب الاسلامية *

ويتضح للمتأمل أن المقصود بآداب اللباس الاعتدال فى
كل شىء بما لا يكون مثيرا للآخرين أو يحمل معنى الابتذال أو
الاسراف أو الغلو من ناحية ، كما يحمل معنى البخل والتفريط
والتقتير من ناحية أخرى *

(١) رواه الترمذى وقال عنه حديث حسن *

(٢) رياض الصالحين ص ٣٤٦

(٣) فى آداب المجلس :

ان من آداب المجلس فى النظرة الاسلامية ، ألا يدخل رجل على مجلس فيقوم له بعضهم ليجلسه مكانه ، فلقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك :

« لا يقيم من أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا »

وهذه نظرة عميقة للنفس البشرية ، اذ أن الناس سواسية ، فاذا دخل أحد الكبراء الى مجلس ، وقام له أحدهم ليجلسه مكانه ، شعر الأخير بدنو منزلته أمام الناس ، كما يشعر الكبير بعلو كعبه عليهم ، وهذا ربما يكون من أسباب الفتنة والشعور بالعظمة ، وهذه الأخلاق منافية للخلق الاسلامى .

لكن اذا خرج أحدهم من مجلس ثم رجع اليه فهو أحق بمقعده ، ان جلس فيه غيره ، وهذا معناه أن الآداب الاسلامية ليست قواعد جامدة وانما تطبق بحسب الظروف والملابسات ، وما فيه مصلحة للفرد والمجتمع على السواء . .

فان دخول أحد الرجال الى مجلس ، يستوجب من ناحية أخرى أن يوسع له فى المجلس ، فيجلس بينهم ، وهذا أيضا يظهر قاعدة أن الناس سواسية ، فلا يتنازل له أحدهم عن مقعده ليجلس ويقف هو ، ولا يترك واقفا فلا يجلس فى المجلس . وهذه آداب رفيعة لا نجد مثيلا لها فى آداب الأمم والشعوب الأخرى

واذا جلس الرجل فيجب أن يكون وقورا فلا يحدث جلبة وضوضاء تشوش على الحاضرين سكينتهم ، وتفسد عليهم مجلسهم وهذه من الآداب الرفيعة •

(٤) تكريم اليمين :

من الآداب الاسلامية ، استخدام اليمين فى كل ما هو من باب التكريم ، وأما ما يتعلق بغير التكريم تستخدم فيه اليسار ...
من حديث عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يعجبه التيمن أى استخدام اليد اليمنى وذلك فى التطهر والترجل والتنعل »

لذلك فان من آداب المسلم اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، استخدام اليمين فى الوضوء والغسل والتيمم ، ولبس الثوب والحذاء والملابس ودخول المسجد ، كذلك من آدابه استخدام اليد اليمنى فى التسوك (السواك) وتقليم الأظفار ، وقص الشارب وحلق الرأس ، والسلام عند الانتهاء من الصلاة ، والأكل والشرب والمصافحة واستلام الحجر عند الطواف بالكعبة المشرفة ، والأخذ والعطاء ، الى غير ذلك من الأمور التى فيها تكريم •

لكنه من ناحية أخرى يستحب تقديم اليسار فى ضد ذلك ، كالبصاق فيجب أن يكون على اليسار ، والخروج من المسجد فتقدم الرجل اليسرى على اليمنى ، وعند خلع الخف أو الحذاء ،

أو السراويل والثوب ، والاستنجاء وفعل المستقذرات ...
وأشبه ذلك ..

وقد ورد فى تكريم اليمين قول عز من قائل :

« فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ يَمِينُهُ فَيَقُولُ : هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا
كِتَابِيهِ »
« الحاقة : ١٩ »

وقوله تعالى :

« فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ »
« الواقعة : ٨ ، ٩ »

وروى عن حفصة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله
عليه وسلم كان يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ، ويجعل
يساره لما سوى ذلك «

(رواه أبو داود)

أدب السلام :

ان الاسلام خير كله ، فهو أخلاق حسنة وآداب طيبة ، وخير
الاسلام يظهر للمتأمل فى التعاون والمحبة والايثار وانكار الذات
والتواضع للآخرين ، وتحية الاسلام السلام وهو جامع لآدابه
وأخلاقياته ، فهو عطاء وتقديم للاحسان فى صورة معنوية كما
أن الطعام يقدم للضيف والمحتاج والضعيف فى صورة مادية ،
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأل أحد الصحابة ،
أى الاسلام خير ؟ (أى أكثر ثوابا عند الله) قال : « تطعم
الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »
(متفق عليه)

ان الجود والعطاء والكرم والسخاء ، من أخلاقيات المسلم ،
والتي لا نجد لها نظيراً في الشعوب والأمم الأخرى ، التي لم
تتكشف الغايات العظيمة من هذه الأخلاق والآداب •

فان تقديم اليد بالمعونة ، يؤلف بين القلوب ، ولو بشرية
ماء أو كسرة خبز ، كما أن الاحسان الى الغير بالسلام ، مما
يدخل على القلوب بالبهجة والسرور ، ويشعر بالأمن
والطمأنينة • وعلى النقيض من ذلك فان الشح والبخل ولو في
السلام ، يميّت في القلب المودة والرحمة ، ويقضى على أواصر
التعاون والترابط •

لقد كان تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق ، يقيم
مائدة تحف بها كل أطايب الطعام ، ويدعو اليها المختلفين معه في
الرأى ليحل المشاكل المستعصية ، فلا شك أن الدعوة الى الطعام
تقديم لليد بالخير والمودة ، ويعد مصافحة ومسالمة للقلوب
والجوارح ، وربما يكون له الأثر النافع ، لفض الخلافات في
الرأى ، والتقريب بين وجهات النظر المتعارضة

ان البدء بتحية الاسلام : السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته ، تمييز للمسلم عن غيره ، وبسط آداب الاسلام على
الملأ ، ليعرف غير المسلم هذه الآداب الرفيعة والأخلاق العظيمة •
كما أن تحية الاسلام تستهدف معاني متعددة :

- ١ - تذكير الانسان بالله وتأنيس له به •
- ٢ - تأكيد على رابطة الأخوة في الاسلام •
- ٣ - ادخال البهجة والأمن على المسلم •

— ٣٥٠ —

٤ — تقريب القلوب بعضها من بعضها ، واذكائها بالمودة والتعاطف .

٥ — يحمل السلام معنى الرحمة بين العباد ، واقتداء برحمة الله مع عباده .

٦ — تبادل السلام تكريم للانسان فى الارض والسماء .

كما أن للسلام غايات أخرى نبيلة ، وذلك وارد فى عديد من آيات الله البينات :

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »

« النساء : ٨٦ »

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »

« النور : ٢٧ »

« فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة »

« النور : ٦١ »

ومن هذه الآيات يستنبط معانى جلييلة ، وتزيد المؤمن ايمانا بربه ، وتجنبه الوسواس والخواطر النفسية ، والغواية الشيطانية -

فان القلب اذ أنشغل بخير ابتعد عن الشر فاذا شغل بالاحسان الى الآخرين بالسلام ، وكان الرد احسانا باحسان ، وسلاما بسلام ، طرد ما فى القلب من هواجس ، أو مخاوف أو خواطر نفسية ، أو وسواس . ربما تكون عالقة بقلب أحد المحيين ، فاذا تبادل الطرفين السلام ، ذاب ما بينهما من توجس

أو ريبة أو خوف ، وأمن كل منهما للآخر . ولذلك يؤكد الله تعالى ، على أن يكون رد السلام بأحسن منه ، أو على الأقل مثله ، حتى لا يترك في القلب الا الوقع الحسن والأثر الطيب .

ويبين الله تعالى في بعض آياته أن دخول الانسان بيت الأغيار ، يستوجب عليه أن يدفع عنهم الحرج وأن يعدهم اعدادا حسنا لاستقباله ، لذلك فان عليه أن يدخل الأمن الى النفوس بإفشاء السلام واعلامهم باسمه ، وادخال البهجة والمودة الى قلوبهم ، وأشعارهم أن زيارته للخير ، وذلك من الأدب الرفيع في الأخلاق الاسلامية .

وللسلام معنى عميق فيما يتعلق بدخول الانسان لبيته ، فان عليه أن يفشى السلام ، حتى وان كان يعلم أن لا أحد في بيته ، ليرد عليه سلامه وفي تصورنا أن الغاية من السلام على النفس كما أمر تعالى ، انما هي في تسكين النفس ، وبث السكينة الى القلب . . . فلربما تلازم العائد الى بيته بعض الخواطر المذمومة ، أو الوسواس ، كأن يتوهم أن بيته سرا ، أو أن هناك مصيبة تنتظره ، أو حدث شر لأهله أثناء غيابه . . . كل هذه الأمور يمكن أن تشغل ذهنه وتتسلط على قلبه ، فيدخل الى بيته مهموما مغموما مكروبا . . . فينشر ألهم وألغم وألكره على زوجه وأولاده بدون سبب ظاهر

أما اذا دخل على بيته وهو آنس بالله ، مقدما تحية الاسلام التي تشتمل على السلام والرحمة والبركة ، كان لهذه المعاني أثر عظيم على النفوس

لذلك فان التحية اذا اقتصر على السلام ، كان ثوابها

— ٣٥٢ —

عشر درجات ، وإذا اشتملت على السلام والرحمة ، أى يقول :
السلام عليكم ورحمة الله ، كان ثوابها عشرين درجة ، وأما
إذا زاد « وبركاته » كان ثوابها ثلاثين درجة (١) .

لذلك فإنه يستحب السلام عند الدخول أو الخروج من
المجلس ، أو مفارقة الأصدقاء ، أو وداع الأهل والأصحاب ،
وعند الاستئذان .

ويرتبط السلام كأدب من آداب الاسلام بالمصافحة ، وهى
الافضاء بصفحة اليد الى صفحة اليد وهى تأكيد للمحبة ، وقد
حث الرسول صلى الله عليه وسلم على المصافحة :

« ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان الا غفر لهما قبل أن
يفترقا »

« رواه أبو داود »

وإذا كانت المصافحة تقريب للقلوب وتأكيد للود القائم
بين المتصافحين ، فإن التقبيل مما هو منهى عنه عند التلاقى ،
ويرفض الاسلام الطرق المستحدثة كالانحناء ، ويعتبر بدعة من
البدع .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ردا على رجل سأل :
— يا رسول الله . . . الرجل منا يلقي أخاه أو صديقه

أينحنى له ؟

(١) فى المعنى ورد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر هذا
الحديث مع اختلاف فى اللفظ أبو داود الترمذى وقال عنه حديث حسن .

قال : « لا »

قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ (أى يعانقه ويقبله فى بدنه)

قال : « لا »

قال : أفياخذ بيده ويصافحه ؟

قال : نعم

« رواه الترمذى »

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زيد بن حارثة (١) كما كان يقبل الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وليس معنى ذلك أن هناك اختلافا فى الأحاديث ، انما المستحب أن يلتقى الرجل بأخيه فيصافحه ، لكن الرحمة توجب أن يقبل الأب أبنه عند لقائه ، لبث حبه ومودته له ، كما أن زيدا كان بمثابة الأبن للرسول فقد رباه صغيرا .

فالقاعدة الاسلامية فى آداب المصافحة ، عدم التقبيل لكن التقبيل استثناء من هذه القاعدة ، عندما يكون بين أفراد الأسرة الواحدة ، فانه يذكر صلة الرحم ، ويقوى عرى المحبة بين افرادها . ومن آداب السلام ، أن يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد والقليل على الكثير ، وأن أفضل الناس من يبدأ بالسلام . وهكذا فان الآداب الاسلامية ، مستقاة من الله سبحانه وتعالى تأدب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت هى السنة المباركة ، التى يستن بها المسلم فى غدوه ورواحه ، وفى مأكله ومشربه ولبسه ، وفى سفره ودخوله على بيته ، وفى أخلاقه وسلوكه ومعاملته لأهله وإخوانه ورفاقه .

(٦) آداب السفر

للسفر آدابٌ جليّة في النظرة الاسلاميّة ، لا نجد لها متيلاً في آداب الشعوب والأمم الأخرى . فمن آداب السفر كما أوصى بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يستحب فيه الخروج أول النهار ، تأكيداً لحديث رسول الله (صلعم) :

« اللهم بارك لأمتي في بكورها » (١)

فالتبكير في السفر فيه بركة ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر في إرسال الجيوش ، فإذا بعث سرية أو جيشاً ، بعثه أول النهار . كما كان التجار يرسلون تجارتهم أول النهار ، تيمناً بوعده الرسول بالخير والبركة في أول النهار (٢) .

ويستحب في السفر الصلابة ، اقتداءً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده » . .

رواه البخاري

وللسفر آداب أخرى ، مثل أن يولى أحدهم عليهم أميراً أو قائداً ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) عن صخر بن وداعة الغامضي ، وذكر الحديث أيضاً صاحب : رياض

الصالحين ص ٣٨٩

(٢) روض الرياحين ص ٢٩٠

« اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمرا أحدهم »
(رواه أبو داود)

ويستحب فى السفر ، أن يكون العدد أكثر من ثلاثة ، أى أربعة فأكثر ، وكلما كان العدد فى السفر أكثر ، كان ذلك أفضل حتى يتعاونوا على الخير ، ويقيموا الصلاة ، فاذا نسي أحدهم ذكره الآخر ، بالاضافة الى أن المسافر بالليل وحيدا ، يمكن أن يفتن فى السفر أو يغويه الشيطان ، وكذلك الراكبان أو المسافران والثلاثة • لكن الثلاثة أفضل من الاثنين ، والاثنين أفضل من الواحد والأربعة أفضل منهم جميعا •

وعلى المسافر اعانة صاحبه ، وذلك تأكيدا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

« كان الله فى عون العبد ، ما كان العبد فى عون أخيه » (١)

ويستحب أن يزود المسافر صاحبه بالزاد أو بالصدقة ، اذا لم يكن عنده زاد ولا مال ، كما أن على المسافر أن يتعوذ من وعشاء السفر عند سفره • وعن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاثة دعوات مستحبات : دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده »

(رواه أبو داود)

والسفر قطعة من العذاب ، اذ أنه يمكن أن يمنع عنه

(١) روض الرياحين ٣٩٤ - الميافى

— ٣٥٦ —

الطعام والشراب والنوم الذى اعتاد عليه ، لذلك يستحب اذا
قضى الانسان مهمته فى السفر ، التعجيل بالرجوع الى أهله .

ويستحب حين الرجوع من السفر ، اذا أطال الانسان الغيبة
على أهله ، ألا يطرق باب أهله ليلا ، وذلك تأكيدا لقول الرسول
صلى الله عليه وسلم :

« اذا أطال احدكم الغيبة فلا يطرقن - المجيء - أهله
ليلا »

(متفق عليه)

والمقصود أن عودة المسافر الى أهله ، تستحب أن تكون قبل
الليل حتى لا يتعب زوجه وأولاده بالقدوم المفاجيء ، الا اذا
أعلمهم بقدومه حتى يعدوا لاستقباله .

وينظر الاسلام لسفر المرأة وحدها على أنه من الأمور
المحرمة ويؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر وحدها
ليوم وليلة الا مع ذى محرم »

(متفق عليه)

ونظرا لأن السفر الآن أصبح أمرا ميسرا ، وانه يمكن أن
يجوب الانسان من الأقطار فى أقل من مسيرة يوم ، فان سفر
المرأة وحدها من بلد الى بلد أصبح لا يتطلب أكثر من ساعات
قليلة ، والمقصود بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه
يحرم خلوة المرأة برجل أجنبى عنها ، لذلك يستحب أن تسافر
المرأة مع ذى محرم ، خوفا من الفتنة ، وحتى لا تكون معرضة

للفجوة • وفى هذه الآداب الاسلامىة ما يصلح أن يتمثل به المسلم المعاصر ، فلا يقلد أخلاقيات الغرب الرأسمالى ولا الشرق الشيوعى من سفور المرأة وتبرجها ، وسفرها وغيبتها عن بيتها واهلها ، دون رقيب أو حسيب • وهذا ما يساعد على نشر الرذائل والفساد والافساد فى الارض •

(٧) الحياء :

يعتبر الحياء من أفعال الخير وأعمال البر ، ومن الآداب الاسلامىة الرفيعة ، ولقد مر رسول الله على رجل وهو يعظ أخاه فى الحياء ، فقال صلى الله عليه وسلم :
(دعه فان الحياء من الايمان) (١)
(متفق عليه)

والحياء هو خلق ، يبعث على ترك القبيح من الأقوال والافعال والاخلاق ، ويمنع من التقصير فى حق ذا الحق ، وقد روى بعض الصحابة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أشد حياء من البكر فى خدرها فاذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه (٢) •

وللفتاة البكر عشر حياءات فاذا تزوجت فقدت حياء واحدا ، وبقي لها تسع ، فاذا أنجبت الأول فقدت حياء واحدا ، واذا أنجبت الثانى فقدت حياء آخر ، وبقي لها سبع حياءات لا تزيد فيها ولا تنقص مهما أنجبت بعد ذلك ، فاذا زنت فقدت كل حيائها •••••

(١) أى ان استعماله ما يحمد صاحبه فيه قولاً وعملاً •

(٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وهذا الحديث منفق عليه •

ومن الحياء ألا يسمع الرجل أو المرأة ، قبيح الكلام ،
كالسب واللعن ، ولا يجلس المسلم مجلسا ليس فيه وقار أو أدب ••
ومن الحياء عدم الاطلاع على أسرار الآخرين ، أو التطفل على
الأغيار أو الدخول فيما لا يهم الفضولى أو يعنيه •••

الحياء فى المرأة كنز وفى الرجل فضل ، ومن لا حياء عنده
فهو ضعيف الايمان ، اذ الحياء شعبة من شعب الايمان •

والمؤمن عظيم الحياء لأنه يرى نفسه دائما مقصرا مع
الله ، مع دوام نعمته وفضله عليه •

وعالمنا المعاصر يحتاج الى الحياء سواء فى الشباب أو
الشابات ، فاننا نرى اليوم نماذج للتعري والسفور والتبرج
لدى كثير من الشباب والشابات تغرى الى انعدام الحياء ،
واللامبالاة ، وذلك ثمرة فجأة للابتعاد عن الآداب الاسلامية
الرفيعة التى من أهمها الحياء •••

(٨) عيادة المريض :

من الآداب الاسلامية العظيمة ، المسارعة الى زيارة المريض
والسؤال عن حاله ، ومعاونة أهله ، فاذا توفى شيع جنازته ،
ومكث عند قبره ودعاه •

يقول البراء بن عازب :

أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

بعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ،

وابرار المقسم ، ونصر المظلوم (١) ، واجابة الداعى ، وافشاء السلام .

(متفق عليه)

وفى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول يوم القيامة :
يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . . .

قال : كيف أعودك وانت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدى « فلانا » مرض فلم تعده . .

أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ . . . (٢)

ان حث المسلم على زيارة أخيه فى مرضه ، يوطد العلاقات الأخوية بوشائج من المودة والمحبة ، ولا شك فى أن المرض ضعف وأن معاودة المريض فى ضعفه ، اشعار له بالأخوة فى الله ، وشد أزره لمغالبة المرض وعدم الاحساس بالوحدة ، ونفور الناس عن المريض وابتعادهم عنه ، يولد الكراهية والبغضاء ويورث الحقد ، فيشعر المريض أن الناس يتخلون عن الضعيف ويحبون السليم القوى ، فيفقد بذلك الثقة فيهم ، ويعاملهم بنفس هذه المعاملة اذا كتب له الشفاء .

ولمعاودة المريض غايات سامية ، وأن ذكر بعض الأدعية الطيبة يثلج قلب المريض ، فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض فقال له :

(١) ابرار القسم وكف الظالم عن المظلوم .

(٢) للحديث بقية ، وقد رواه مسلم .

« لا بأس - طهور ان شاء الله »

(رواه البخارى)

وهذا الدعاء الذى دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم للمريض ، يخفف عنه آلامه ويذكره بثواب الله عليه ، فان ما يعانى منه المريض من تعب ونصب ومعاناة فى بدنه ، يعتبر كفارة لما اقترفه من ذنوب ، كما أنه مطهر للبدن .

واذا علم المريض ذلك وواعاه ، فانه بمثابة شد من أزره وتقوية لقلبه ، وسمو بروحه ، الأمر الذى يعاونه على تجاوز هذه المحنة ، فيستأنس بالله ، ويتحمل الألم فى سبيل التقرب اليه تعالى ، عسى أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

الآداب فى الوفاة :

واذا اشتد المرض ، ويأس المريض من الشفاء ، وأحس بقرب منيته ، وجب على أهله أن يلقنوه لا اله الا الله ، وفى ذلك ورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لقنوا موتاكم لا اله الا الله »

(رواه مسلم)

فاذا انتقل يقول المسلم :

انا لله وانا اليه راجعون

« مع حديث رواه مسلم »

ومن الآداب الاسلامية ، أنه لا يجوز النياحة ولا الندب على الميت ، فان ذلك يدخل فى باب الحرام ، أما البكاء فهو جائز ،

وان وردت أحاديث بالنهي عنه ، حيث أن الميت يعذب ببكاء أهله (١) .

ويرى صاحب رياض الصالحين (٢) أن المقصود بالتحريم هو البكاء الذي يقترب بالنياحة والندب ، أما البكاء بغير ندب أو نياحة فهو جائز .

ولقد بكى الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاة بعض أصحابه وآل بيته وقال عن البكاء : « هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء » (متفق عليه)

ويستحب وداع الميت وشهود الجنازة والوقوف عند القبر ، وهذا كله له ثواب عند الله .

من تبع جنازة مسلم ايمانا واحتسابا ، وكان معه حتى يدفعن . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك :

يصلى عليها ويفرغ من دفنها (أى بمسوية التراب عليها) .
فانه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد (أى مثل جبل احد) ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فانه يرجع بقيراط «
رواه البخارى

ومن الآداب الاسلامية استحباب التكثير من المصلين على

(١) رياض الصالحين - الامام النووي ص ٣٧٨
(٢) المرجع السابق

— ٣٦٢ —

الجنّازة ، وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً الا شفّعهم الله فيه »
 . « رواه مسلم »

— ٣٦٣ —

للمؤلف

- ١ — ألفاظ الصوفية مؤسسة شباب الجامعة
- ٢ — الحكومة الباطنية دار المعارف
- ٣ — الشريعة والحقيقة الهيئة العامة للكتاب
- ٤ — نحو علم نفس اسلامى الهيئة العامة للكتاب
- ٥ — نحو منهج علمى اسلامى دار المعارف
- ٦ — نحو ثقافة اسلامية دار المعارف
- ٧ — الكوكب الشاهق (تحقيق) دار المعارف
- ٨ — المسلمون علماء وحكماء دار المعرفة الجامعية
- ٩ — نحو تربية اسلامية دار المعرفة الجامعية

تحت الطبع

- ١٠ — فى الطب النفسى النبوى
- ١١ — محاورات بين العقل والقلب

الغائمة

لم نذكر في كتابنا هذا كل نصوص وجواهر التربية الإسلامية ، وانما أردنا فحسب ، أن نعين على تفهم منهج وأصول التربية في الاسلام .

واذا عقدنا مقارنة بلا تعصب أو تحيز ، لوجدنا تفوق منهج التربية الإسلامية بلا شك - على مناهج وفلسفات التربية الوضعية والانسانية .

ذلك أن منهج التربية الإسلامية كما أشرنا اليه بين ثنايا هذا الكتاب انما هو يستمد أصوله وحقيقته من النبع الفياض الذي لا ينضب ، وهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم

ان وجود ثغرات في فلسفات التربية الغربية والشرقية ، وقصور في نظمها ، يجعلنا في حل عن التمسك بمفاهيمها وأصولها ، حيث ثبت عقمها عند التطبيق ، وتهافتها في التجربة الحية .

ان فلسفات التربية الوضعية ، انما تقننها عقول بشرية تخطيء وتصيب ، بل تخطيء كثيرا وتصيب قليلا ، ولا تحتل المفاهيم التربوية ، والقيم الاخلاقية ، الخطأ والصواب ، فاذا كانت العلوم الطبيعية والتطبيقية والعملية ، يمكن أن تتقدم نتيجة محاولات الخطأ والصواب ، بحيث يتمكن عالم الميكانيكا أو الكيمياء ، من الوصول الى نتائج صحيحة في مجال بحوثه بعد محاولات وتجارب تحتل الخطأ والصواب ، الا أن ذلك لا يصلح فيما يتعلق بالتربية والاخلاق .

فالانسان غير المادة الجامدة أو الالة الصماء ، فاذا لم يكن المنهج سليما ، والوسائل طيبة ، والغايات نبيلة ، فانه من الصعب، بل من العسير أن يصل الباحث والعالم الى السلوك الاخلاقى الواجب الاتباع ، أو يستطيع أن يكون جيلا سليما معافيا من الامراض النفسية والاخلاقية ، أو يحقق نجاحا فى العملية التربوية *

لذلك رسم لنا الله تعالى فى كتابه المبين ، الاسس التربوية الواجبة الاتباع والقيم الاخلاقية ، التى يتوجب على المسلم أن يضعها أمامه كنبراس يضىء له طريق الحياة ، وبين له القدوة الحسنة التى يجب أن يقتدى بها ويتخلق بأخلاقها ، فادب رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بخلق القرآن ، ليتزود الناس بسنته ، ويسيروا على طريقه ، ويتعلموا منه منهجهم فى الحياة ، ويتدبروا أمور معاشهم ، ويتصرفوا فى شئونهم بحسب ما علمهم وأدبهم رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم *

لذلك فقد عرضنا فى فصول هذا الكتاب ، أصول التربية الاسلامية ومنهجها وميزنا بينها وبين المناهج الوضعية التربوية ، وظهر لنا تفوقها فى الفكر والسلوك العملى *

ثم أوضحنا غاية العملية التربوية الاسلامية وأظهرنا أن من أهمها عدم الشرك بالله واقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر والاعتدال والايتار والاحسان والوفاء والتزهد واصلاح النفس والطاعة *

ولكى تتحقق هذه الوسائل تحقيقا عمليا ، بيننا الطرق التى أوضحها العلماء المسلمون كوسائل تربوية ناجحة توصل الانسان

- ١٢٦٧ -

المسلم الى الصلاح والاصلاح فى الدنيا والآخرة ، وبيننا أهمية القدوة الحسنة وكيف يمكن الاقتداء بها ، فأشرنا الى المحاكاة والتكلف والتطبع كعوامل أساسية فى التخلق بالاخلاق الاسلامية ، والتخلي عن مردول العادات ، والتخلي بمحمود الصفات •

كما أوضحنا بعض الوسائل الاخرى التى تعين الطالب على التطبع بخلق الاسلام ، وبمكارم الاخلاق مثل الوعظ والموعظة ، والتوجيه والارشاد والترهيب والترغيب ، والتمثيل بالقصص القرآنى •

ثم بينا أثر المسجد فى العملية التربوية ، وما يجب أن يكون عليه المسجد فى هذا العصر من تطور حتى يخدم الشباب والكهول على السواء •

كما أوضحنا الاسس النفسية لتربية الاحساس الجمالى لدى المسلم حتى يكون للمسلم موقف من العروض الفنية والاعمال الجمالية التى تقدم له ، فيأخذ بما يواكب شريعته الغراء وينبذ ما تحرمه ويستكرهه الدين القيم ، فيسير على منهج الله ويتبين له الحرام والحلال •

وللمسلم آداب يختص بها لا نجد لها نظيرا فى فلسفات الاخلاق غربية كانت أو شرقية ، فله آداب فى الاجتماع والمأكل والملبس ، والسفر وعيادة المرضى ، وفى حالة الوفاة ، كما له آداب فى المعاملات ، وفى الجوار وفى الصحبة وفى الكلام مع الكبار والصغار •

ومجمل القول أنه لو تمسك المسلم بالاخلاق والآداب الاسلامية لاستطاع أن يبرز غيره اجتماعيا واقتصاديا وماديا •

اذ الاخلاق ترتبط بالمعاملات ، كما ترتبط بالانشطة الحياتية جميعا ، ومن ثم فان النجاحات التى يمكن أن يصل اليها الانسان فى الدنيا والآخرة ، انما تتوقف على المنهج الحياتى الذى يختاره .

فاذا كان هذا المنهج يركز على النجاح فى الناحية الدنيوية أو المادية ، فان نجاحه انما يتعلق بها فحسب . أما اذا كان المنهج الذى يختاره الانسان كمنهج سلوكى وأخلاقى وتربوى ، يربط السعى فى الدنيا بالآخرة ويهتم فى المقام الاول بالتقرب الى الله عزوجل مع السعى فى الدنيا بما أمر الله تعالى ، فانه مما لاشك فيه أن هذا المنهج سيحقق للمسلم الأمن والسكينة والطمأنينة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

ان هدفنا من هذا الكتاب، هو تبصير المسلم بالتربية الاسلامية القوية ، التى اذا اقتدى بها ابتعد عنه القلق والذمت والخوف والوسوسة ، وحل محلها الامن النفسى الذى هو غاية من أعظم الغايات الانسانية .

ان استخدام الاسس والوسائل الاسلامية التربوية ، والعمل بآداب الاسلام ، سيوصل حتما المسلم الى طريق التوفيق والسداد، وبذلك يرجع كثير من الشباب الذى انحرف عن جادة الصواب ، وانبهر بالفلسفات التربوية المستوردة ، يرجع الى الطريق القويم الموصل الى السعادة فى الدنيا والآخرة .

- ٣٦٩ -

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٩
الباب الأول : التربية بين منهج الله والمنهج الوضعية .	١٥
الفصل الأول : ١ - تفاوت العقل فى تحصيل العلوم .	٢٢
٢ - حدود العقل الانسانى .	٢٣
٣ - هادى العقل	٢٨
٤ - المشيئة والأهواء الانسانية .	٣٣
٥ - العلم والظن .	٤٢
الفصل الثانى : ١ - التأمل والسلوك العملى .	
٢ - فطرة التربية الاسلامة .	
٣ - الربوبية والعبودية	
الباب الثانى : غاية التربية الاس	
الفصل الأول : ١ - عدم الشرك .	
٢ - اقامة الصلاة .	
٣ - الأمر بالمعروف .	٦٨
٤ - النهى عن المنكر .	١٠٢

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثاني: ١ - الثقة بالله .	١٠٥
٢ - الصبر .	١٠٨
٣ - التواضع .	١١٠
٤ - اليقين .	١١٣
٥ - الاعتدال .	١٢٩
٦ - الايثار .	١٣٢
الفصل الثالث: ١ - الاحسان .	١٣٩
٢ - الوفاء .	١٥٤
٣ - التزهد .	١٦٢
٤ - الطاعة والقنوت .	١٦٨
الباب الثالث: وسائل التربية الاسلامية .	١٧٩
الفصل الأول: ١ - القدوة .	١٨٣
٢ - المحاكاة .	١٩٠
٣ - التكليف .	١٩٣
٤ - الطبع والتطبع .	١٩٦
٥ - التعلم الشرطى .	٢٠٠
الفصل الثانى: ١ - الترغيب والترهيب .	٢٠٨
٢ - التخلّى والتحلّى .	٢١٠
٣ - الوعظ والموعظة .	٢١٤
٤ - التوجيه والارشاد .	٢١٧
٥ - التمثيل بالقصص .	٢٢٤

الموضوع	رقم الصفحة
الباب الرابع : الأسس النفسية لتربية النشء فى	
• النظرة الاسلامية	٢٢٩
الفصل الأول : ١ - معرفة الحلال والحرام	٢٣٤
٢ - الايمان بالغيب	٢٤٠
٣ - جهاد النفس	٢٤٣
الفصل الثانى : تربية الاحساس الفنى والجمالى	٢٥٩
الفصل الثالث : أثر المسجد فى العملية التربوية	٢٨٥
الباب الخامس : فى الآداب الاسلامية	٢٩٥
الفصل الأول : (حتمية الدين فى العملية التربوية)	٢٩٧
١ - حتمية الدين	٣٠٠
٢ - التربية النفسية الاسلامية	٣٠٣
٣ - البدايات فى العملية	
التربوية	٣٢٢
٤ أدب النفس فى الاسلام	٣٢٧
٥ - اختيار المربى الصالح	٣٣١
الفصل الثانى : (الآداب الاسلامية)	٣٣٥
١ - آداب المائدة	٣٤٠
٢ - أدب اللباس	٣٤٣
٣ - فى آداب المجلس	٣٤٦
٤ - تكريم اليمين	٣٤٧

- ٣٧٢ -

٣٤٨

٣٥٤

٣٥٧

٣٥٨

٥ - أدب السلام •

٦ - آداب السفر •

٧ - الحياء •

٨ - عيادة المريض •

٣٦٥

خاتمة الكتاب

مراجع الكتاب

- | المؤلف | الكتاب |
|---------------------------|--|
| ١ - ابن القيم الجوزيه * | * الروح |
| ٢ - ابن القيم الجوزيه : | * زاد المعاد |
| ٣ - ابن عربي : | رسائل ابن عربي |
| ٤ - ابو الأعلى المودودي : | * نظرية الاسلام السياسية |
| ٥ - أبو الحسن البصري : | * أدب الدنيا والدين |
| ٦ - أبو بكر الكلاباذي : | * التعرف لمذهب أهل التصوف |
| ٧ - أبو بكر بناني : | مدارج السلوك الى مالك
* الملوك |
| ٨ - أبو نعيم الأصفهاني : | * حلية الأولياء |
| ٩ - أبو حامد الغزالي : | احياء علوم الدين
الجزء الاول * الثاني |
| ١٠ - أبو حامد الغزالي : | احياء علوم الدين
الجزء الثامن |
| ١١ - أبو حامد الغزالي : | |
| ١٢ - أبو حامد الغزالي : | تنبيه المفترين * |

— ٣٧٤ —

- | المؤلف | الكتاب |
|--------------------------------|--|
| ١٣ - أبو طالب المكي : | قوت القلوب
الجزء الاول - الجزء الثاني . |
| ١٤ - السمرقندى : | تنبيه الغافلين . |
| ١٥ - النووى : | رياض الصالحين . |
| ١٦ - المحب الطبرى : | الرياض النضرة - فى مناقب
العشرة ج ٢ . |
| ١٧ - اليافعى : | روض الرياحين . |
| ١٨ - تيتوس بيركارد : | دور الفنون الجميلة فى
التربية الاسلامية (ترجمة
د . عثمان محمد عبد الوهاب) |
| ١٩ - جلال الدين السيوطى : | الجامع الصغير . |
| ٢٠ - جوستاف لوبون : | روح التربية (تعليق د . طه
حسين) . |
| ٢١ - سيد عثمان : | علم النفس الاجتماعى
التربوى . |
| ٢٢ - د . فايز محمد على الحاج : | نظرية الفعل الشرطى عند
الغزالى (بحث مقدم الى ندوة
علم النفس والاسلام سنة
١٩٧٩ الرياض) . |

المؤلف	الكتاب
٢٣ - عبد العزيز جاويش :	الاسلام دين الفطرة *
٢٤ - عبد القادر الجيلاني :	الفنية *
٢٥ - عبد المجيد الشرنوبى :	شرح تائية السلوك الى الملوك *
٢٦ - عبد المحسن الحسينى :	المعرفة عند الحكيم الترمذى *
٢٧ - مالك بن نبي :	المسلم فى عالم الاقتصاد *
٢٨ - محمد الجبالى :	السوق الأوروبية المشتركة *
٢٩ - محمد قطب :	منهج التربية الاسلامية *
٣٠ - محمد قطب :	منهج الفن الاسلامى *
٣١ - د - محمد على أبوريان :	تاريخ الفكر الفلسفى (أفلاطون) *
٣٢ - ياقوت الحموى :	معجم البلدان *
٣٣ - يوسف كرم :	تاريخ الفلسفة اليونانية *

- ٣٧٦ -

مراجع للمؤلف

- ١ - الشريعة والحقيقة •
- ٢ - الحكومة الباطنية •
- ٣ - ألفاظ الصوفية ومعانيها •
- ٤ - نحو ثقافة اسلامية •
- ٥ - نحو علم نفس اسلامي •
- ٦ - نحو منهج علمي اسلامي •

تم بحمد الله

طبع بمطبعة التقدم
٢١ شارع سيزوستريس - اسكندرية
تليفون : ٨٠٦٠٥٤

